البارون

شهد قربان

مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me/twikilogi

البارون

الكتاب الثالث من سلسلة 005

رواية

شهد قربان

shahdqurban

Shahdqurban

shahdqurban

الطبعة الأولى

1446 هـ - 2025 م

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

أعزّائي القرّاء،

تتضمن هذه الرواية مشاهد من القمار، شرب الكحول، التدخين، والعلاقات المحرّمة، وهي لا تعبّر عن معتقداتي الشخصية ولا تمثل قيم ديننا الإسلامي

وجودها في النص يخدم السياق الدرامي فقط، ولا يعني بأي حال من الأحوال تشجيعًا أو تأييدًا لها

أبرأ إلى الله من كل ما يخالف شرعه، وأسأله الهداية والتوفيق.

إلى الذين أحبّوا بصدق، وظنّوا أن
الحب وحده يصنع المعجزات...

وإلى العاجزين الذين أحبّوا بصمت،
ودائمًا ما تخونهم الكلمات...

هذا الكتاب من أجلكم...

مقدمة

"مذكرتي العزيزة...

مذكرة حقيقية، صفراء، بأوراق، قفل ظريف، ومفتاح ذهبي صغير أفقده دائماً حتى كسرت القفل!

اشتراها لي مارسيل، ورفرف قلبي بشدّة لأنّه اختارها بلوني المفضل، ولا بدّ أنّكم—تبّاً لماذا أتحدث بهذه الصيغة وكأنّي أتحدث إلى الجموع وليس مذكرتي فقط؟ آه لا يهم ليس لديّ وقت للتركيز في الأمور اللغوية!

لا بد أنّكم تتساءلون عن مارسيل، أو كما عرفتموه بـ 005، وإن كنتم تتوقعون حياةً مسالمة بعد ما وجدته واجتمعنا معاً، فأنتم مخطئون... لقد كان الأمر كارثيّاً، ولم أتوقعه

منذ انتحار جاريد، والتعذيب الذي

لاقاه على يد المافيا وهو ليس على حاله. تطارده الكوابيس التي يستيقظ منها فزعاً، ويسرح في الفراغ محدقاً بطيف جاريد الذي يراه في كلّ مكان. حالته النفسية سيئة ولكنّه لا يبوح بشيء، لأنّه يجد السلام والهدوء عندما أكون بجانبه، وأنا أبذل قصارى جهدي للحفاظ على ذلك، وهذه ليست مهمة سهلة أبداً! ينفطر قلبي عليه كثيراً وأحياناً أشعر بالشفقة، لكن ليس عليه بل على الفوضى التي تعمّقتُ بها

أعلم أنّ هذا صادم وأنّي أناقض نفسي الآن. وعدته بأنّي سأحارب من أجله، أغيره، أحبه، أجعله يحبني، ولكن هناك لحظات يصيبني الضعف فيها وأشعر أنّي لا أزال في النقطة ذاتها... لا أزال الهدف ولا يزال هو قاتلي..

حبّه سهل جدّاً ولكن تغييره؟ أصعب

من أي شيء في العالم... ولا أعلم إلى متى سوف أستمر"

****

1: كعكة وأمنية

"سحقاً لقد تعبت"

توقفت روبي وأسندت يديها على ركبتيها، تلتقط أنفاسها المرهقة بقوّة وكأنّها خاضت سباقاً شرسًا، وبجوارها مارسيل الذي لا يبدو عليه التّعب على الإطلاق، يراقب كلّ نفس عميق تسحبه لرئتيها، ويتساءل متى سوف تستسلم...

قال بنبرة هادئة، دون أن يخفي تهكّمه: "أنتِ من أصرّ على القدوم لرؤية كهف الجليد"

رفعت رأسها المتعرّق، ثمّ تذمّرت وهي ترمقه بغضب: "لقد كان في منشور الفندق! بدا رائعاً وقالوا إنّه أشهر كهف جليدي في كلّ النّمسا، لكنّهم لم يذكروا وجود درج جبليّ مميت مثل هذا! آه

أشعر أنّ قلبي سيقفز خارج قفصي الصدري"

هزّ رأسه بخفّة، ثمّ ناولها مطّارة المياه الخاصّة بها مجدداً وسأل: "هل ترغبين بالعودة؟"

"لا.. لقد بقي القليل، فهيّا بنا"

أخذت شهيقاً وأطلقت زفيراً وسط الهواء البارد، ثمّ تابعت طريقها بجانبه حتّى وصلا مع المجموعة لمدخل الكهف أخيرًا، حيث قام المرشد بتوزيع المصابيح عليهم وإدلاء بعض التعليمات، وما أن دخلت حتّى شهقت بانبهار؛ إذ كان الكهف ساحراً ومهيباً في الوقت ذاته، جدرانه الكريستالية لامعة، واتّخذ جليده أشكالاً متعددّة، تلألأت تحت الضوء الخافت

بدأت روبي بالتقاط الصور من هاتفها

بحماسة، وعندما التفتت لتلتقط صورًا عفوية لمارسيل، قال بنبرة متضجرة: "لقد سبقونا للمحطة التالية لانشغالك بالتّصوير، فهيّا بنا"

"مهلاً، دعني ألتقط صورة واحدة فقط"

اقتربت من المتدليات الجليدية وأخرجت لسانها لتلعق واحدة وتلتقط الصورة، ثمّ همّت بالابتعاد ولكنّ لسانها التصق بالجليد، فأصابها الذعر على الفور!

"مالثيل! لثاني... النذدة!"

هزّ مارسيل رأسه كمن لم يعد مندهشاً من تصرفاتها، ثمّ اقترب منها وقام بسكب الماء على لسانها حتّى تحرّر، وحينها أصدرت روبي صوت بكاءٍ مزيف ودرامي، وسألته بهلع: "هل هو

أزرق؟ أسود؟ هل سيقطعونه لي؟"

أجاب بتهكّم: "ربما"

"لا لا! هل سأموت؟ هل هو بذلك السوء؟"

تنهد تنهيدة طويلة: "ليس به شيء، لنتحرك الآن ونخرج من هنا بسرعة، فقد مللت"

لكمت كتفه بضيق ثمّ تابعت الجولة حتّى النهاية، وكان أوّل شيءٍ فعلته بعد خروجهما هو شراء كوبٍ من الشّوكولا الساخنة، لتستمدّ منه بعض الدفء. ارتشفت بضع رشفات، ثمّ قالت: "لذيذ، ولكنّ الذي أعدّه ألذّ! هيا تذوّقه"

ردّ وهو يتصّفح هاتفه: "ليس الآن"

هزت كتفها: "أنت الخاسر"

ارتشفت رشفة أخرى قبل أن تتجه معه إلى حيث سيارته، ثمّ قامت بتشغيل نظام التدفئة فوراً واسترخت على مقعدها حتّى أنهى مكالمته وصعد إلى السيارة...

سألت بعفوية: "من كان المتّصل يا ترى؟"

أجابها دون تردّد متحاشياً النظر لعينيها: "المنتجع الذي حجزته في اليونان"

شهقت بدهشة: "سنذهب لليونان؟ هل أنت جاد؟ ظننت أنّنا عائدان للمنزل"

"ليس بعد... وقد أكتشف هناك المكوّن السري الذي يضعه هيغنز في طعامه"

ضحكت قليلاً ثمّ قالت: "ستسافر لهذا السبب فقط؟ عجباً يا مارسيل"

أجاب بنبرة هادئة وهو يحدّق بالطريق:

"نعم... لهذا السبب"

التقطت هاتفها دون التركيز بإجابته الغامضة. تصفحت الصور وهي تبتسم وتضحك ضحكات مكتومة وسعيدة، ثمّ قالت: "لديّ رفيق حميم مثل عارضي الأزياء... كم أرغب بنشر ذلك على مواقع التواصل الاجتماعي، ولكن مع الأسف لا أستطيع!" أردفت بغرور: "سأستمرّ بالتّباهي على الواقع وخلف عدسة التصوير"

"أفضّل ألا تفعلي أيًّا من ذلك"

تجاهلت ما قاله وتأمّلت إحدى صوره بانبهار: "تبدو رائعًا في هذه الصورة" ثمّ فكّرت قليلاً: "أتساءل ما إن كنت تشبه الدّون فيرناندو في شبابه يا مارسيل، أو ربما والدتك. يجب أن نبحث في الأمر لاحقاً"

"لا حاجة لذلك"

نظرت إليه بحذر، كان يستمر بالقيادة فقط، دون إبداء أي تعابير أخرى، ولكنّها لاحظت نفوراً خفيّاً في جملته الأخيرة، فليّنت صوتها وأبدت الاهتمام: "مارسيل...؟"

"ماذا؟"

"لدي سؤال"

ردّ بتهكّم: "بالطّبع لديكِ سؤال"

ضحكت قليلاً ثمّ قالت: "كنت أريد سؤالك هذا السؤال منذ مدة... متى يوم ميلادك الفعلي؟ من المؤكّد أنّك تعلم"

"أعلم ولن أخبرك"

رمشت بتعجب: "ولماذا؟"

أبدى انزعاجه قائلاً: "لأنّك سوف

تحتفلين به وأنا لا أريد حفلة، ولم أحتفل بيوم ميلادي قط"

"لأنّك كنت وحيدًا، ولكنّي معك الآن لذا أخبرني حتّى يتسنى لنا الاحتفال، أو أعدّ لك مفاجأة على الأقل"

استسلم عندما أزعجته بفضولها، ثمّ اعترف لها أنّ يوم ميلاده قد كان الأسبوع الماضي، لتحدّق به مطوّلاً حتّى عبست ملامحها وأصابها الحزن

"كان بإمكاننا أن نحتفل به معاً... تبّاً! ليتني سألتك في وقت أبكر"

"لا بأس، فلا أهتمّ للأمر"

همست بعبوس: "ولكنّي أردْت الاحتفال..." هتفت عندما لمحت شيئاً: "مهلاً مهلاً هناك مخبز! توقف عنده"

زفر بضجر وهو يقود: "لا. يجب أن نعود للفندق ثمّ نسرع للمطار حتّى لا

تفوتنا الرّحلة"

"لن أتأخّر!"

"لا"

لمست يده التي كان يريحها وشدّت عليها، ثمّ قالت بصوتٍ خافت: "أرجوك... أرغب بذلك"

تنهد من أنفه تنهيدة طويلة، كما يفعل دائمًا حين لا يريد أن يعترف بانهزامه أمامها، ثمّ انعطف عائدًا إلى المخبز بصمت، فابتسمت روبي بسعادة قبل أن تطبع قبلة سريعة على خدّه وتترجل من السيارة، لتتركه مع شعور الرضا الغريب الذي تسلّل إلى صدره، وكأنّ قلبه يخبره أنّه فعل الصّواب

لقد كانت أوّل مرة على الإطلاق يحتفل فيها مارسيل بيوم ميلاده، ولم يكن يظنّ أنّه سيحتفل أبداً ولكن ها

هي ذي روبي تحضر له كعكة مكوّبة صغيرة، تغرس بها شمعة واحدة، تحتفل وتغنّي بابتسامة دافئة، تنظر إليه بعينين ينبعث منهما الحبّ، الحنان والعطف...

"أغمض عينيك، تمنَّ أمنية ثمّ انفخ"

مال بجسده نحوها ببطء، فاضطربت ابتسامتها وتسارعت نبضات قلبها بجنون؛ إذ كان ينظر لعينيها بعمق عوضاً عن الشمعة التي تشتعل بينهما حتّى شعرت بتقلّص الهواء حولها، ثمّ نفخ على الشعلة بهدوء وحدّق بها للحظة أخرى قبل الانسحاب وتعديل جلسته، استعدادًا لاستئناف القيادة

قالت محاولةً إخفاء ارتباكها الواضح:
"لم تغمض عينيك"

"لا داعي"

لم يجد مارسيل حاجة لإغماض عينيه، فقد كان ينظر إلى أمنيته بالفعل. لقد حصل على روبي كما أراد بشدّة مسبقاً، ولكن ربّما كان من الأفضل لو تمنّى أن تدوم هذه الأمنية على الرّغم من الأسرار والحقيقة التي ستصدمها لا محالة، وتهدم كلّ شيء...

2: أسرار مظلمة

تنهدت روبي بحبّ وهي تتأمل السماء التي اشتعلت بلون ناريّ دافئ وبدت مثل لوحة بديعة، من شرفة جناحهما الفاخر، في أفخم منتجعات أويا -جزيرة سانتوريني- اليونان، حيث يجتمع الجمال مع سحر اللونين الأزرق والأبيض

"أوليس الغروب رائعاً؟"

التفتت نحو مارسيل الذي كان يجلس داخل المسبح المفتوح، يسند ظهره لحافّته ويطالع رواية من رواياتها بصمت

أمالت رأسها: "هل تسمعني؟"

لم يكلّف نفسه عناء رفع عينيه وهو يجيب: "نعم سمعتك"

التقطت حبة عنب من الصينية المزينة بقطع الفواكه وقذفتها لفمها، ثمّ قالت بعد أن تلذّذت بها: "أحب سانتوريني!"

"الاسم الرسمي هو ثيرا وليس سانتوريني"

رمقته بنظرات حادّة وتذمّرت قائلةً: "أنت ممل يا مارسيل! ولقد جلبت لي الملل بصمتك وبروايتك"

"أنتِ من أرادني أن أقرأ هذه الرواية العاطفية"

لوّحت بيدها في الهواء وهي مغتاظة: "أحتاجك معي الآن! هذا ليس وقت السباحة والقراءة"

رفع حاجبه بسخرية خافتة: "تعالي وانضمي إليّ لو أردت ذلك"

نظرت روبي للمياه بارتباك، واجتاحتها مشاعر ومخاوف قديمة لم تنجح

بقمعها بعد. أشاحت بنظرها للأفق بينما مارسيل يحدّق بها، ثمّ أعاد عينيه لكتابه عندما تشجعت على الاقتراب والجلوس خلفه، مبقيةً مسافة آمنة

"في أي فصل أنت؟"

"الفصل الذي تعترف فيه آشلي بحبّها لذلك المدعو كاليب... ورأيي حتّى الآن أنّ هذا الكتاب أغرب من السابق" رفع رأسه للأعلى لينظر إليها بنظراته الحالمة: "هل تريدينني أن أكون مثل كاليب أيضاً؟"

أجابت بتذمّر: "أعطيتك قائمة الروايات لتتعلم شيئًا أو اثنين حتى تكون رومنسيّاً معي وتجعلني أشعر أنّي مميزة" ثمّ أردفت باندفاع: "دعك من هذا كلّه الآن وهيا بنا، فهناك حفلة تقام في المنتجع"

أغلق الكتاب بهدوء دون قول شيء، ثمّ قصد دورة المياه ليغتسل ويحضّر نفسه، بينما روبي تسرّح شعرها وتضع القليل من مساحيق التجميل، كما ارتدت ثوبًا صيفيّاً ذا لونٍ أخضر وطوابع زهور صغيرة، انسدل برفق حول ساقيها وأضفى لها هالة لطيفة ومشرقة

عقدت ذراعها حول ذراع مارسيل الذي لم يكترث للتمسّك بها كما تفعل. كان صوت الموسيقى يتعالى شيئًا فشيئًا كلّما هبطا درجات السلالم الحجرية البيضاء التي قادتهما إلى الحفلة، حيث تنعكس الأضواء على المسبح العام، ويحتفل الجميع بحماسة وصخب

سألت بوجه متجهّم وكأنّها تتوقع إجابته مسبقًا: "هل سترقص معي؟ أم سترفض مثل كل مرة؟"

رد ببرود وهو يعاين الحشود حوله:
"سأرفض مثل كل مرة"

ضربت ذراعه بقبضتها الضعيفة، فرمقها بنظرة جعلتها تشيح بوجهها بغرور مصطنع قبل أن تلتقط كأساً من الطاولة التي خلفها وتتجرّع ما فيه دفعة واحدة

وضعته في يده ونظرت له بمكر قائلةً:
"لن أدعك تفسد مزاجي أيّها الوغد! ولا تشطب أيّ كلمة"

ضحك ضحكة خافتة لجسارتها، ثمّ وقف عند أحد الأعمدة الحجرية ليراقبها وهي ترقص وتدور وكأنّ الحفلة لها وحدها، منسجمة مع الموسيقى والسعادة التي صاحبتها. تراقبها أعين غزلية وأخرى خبيثة تصدر من الرجال الذين يجلسون إلى طاولاتهم، ومعظمهم ليسوا برجال

ونساء عاديين، بل أفراد عصابات ومنظمات...

انتهت الأغنية الصاخبة، وخرجت روبي من الجموع وهي تلهث وتترنّح، ثمّ همّت بالتّوجه إلى مارسيل لولا أن اعترض طريقها رجل ضخم الجثّة، أحاطت ذراعه بخصرها وجذبها نحوه لترقص معه قسرًا. حاولت إبعاده وانتشال يده، ولكنّه أبى ذلك حتى صفعته على وجهه بقوة، وحينها أتى أصدقاؤه ليسحبوه عنها ويهمسوا بشيء في أذنه جعله يتحفّظ ويفرّ هارباً!

شتمته روبي قبل أن تجر نفسها إلى حيث مارسيل وتهتف بغضب: "هل رأيتَ ما حدث؟ حاول التحرش بي!"

التقط كأساً من الطاولة جانبه، وناولها إياه وكأنّ أيّ شيءٍ لم يحدث، لتنتشله

وتضعه على الطاولة بقوة وهي منزعجة:

"لماذا لم تفعل شيئاً؟ مجدداً!"

تنهد بعمق، ثمّ قال بنبرة هادئة محاولاً إخماد نيرانها: "أنتِ بخير كما أرى ولم تتأذي"

وضعت يدها على قلبها: "بلى! لقد تأذّت كرامتي كأنثى، ومشاعري من كون رفيقي لا يدافع عنّي كذلك. كان يجب أن تتقدم وتوجه لكمة إلى وجهه، ثمّ تمسك بيدي وترمقه بنظرة حادة قبل أن تقول: ((هي ملكي)) أو: ((سأقطع يدك لو لمستها مجدداً))"

نظر إليها مطوّلاً، يفكّر بكلّ الكلمات التي يريد قولها وكيف ستتقبّلها، ثمّ قال أخيراً: "أنتِ تقرئين الكثير من الروايات يا روبي"

لمست جبينها بإحباط: "لا تحوّر الموضوع"

انتشلت الكأس بطريقة درامية وشربت ما فيه لتطفئ نار غيظها، بينما هو يراقبها حتى انتهت من الشرب ونظرت إليه باستغراب:

"هل هذا ماء؟"

"مع ليمون"

رمت رأسها للخلف بتململ وتأففت، ثمّ قالت: "لا يهم، سآكل!"

تركته وحده واتجهت إلى حيث المقبلات اللذيذة، تجرّب ما تقع عليه عيناها، وتتلذذ بكل قطعة حتى سقطت الأخيرة من يدها المرتعشة وتشوشت رؤيتها فجأة. ترنح جسدها للخلف واستندت على جسد صلب، ثمّ لفّ مارسيل ذراعه حولها ليسندها

جيداً كي لا تقع

همست بصوتٍ واهن وهي تنظر إليه: "مارسيل... أنا متعبة جدّاً. ما.. الذي يحدث؟"

"لنذهب"

عدّل جسدها، ثمّ حملها بين ذراعيه بحركة سلسة ليعود بها إلى الجناح. كانت تسند رأسها على كتفه، تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة وهي نصف نائمة حتى شعرت بدفء الفراش

أمسكت يده ووضعتها على جبهتها: "هل.. أنا مريض.. ة؟"

"لا."

ابتسمت وهي بالكاد تفتح عينيها: "لا بد أنّي أفرطت بالنشاط في الحفلة"

"مرجح" تفقد ساعته، ثمّ قال:

"نامي وارتاحي"

"عانقني حتى أنام"

فسحت له قليلاً، فاستلقى وعانقها كما طلبت حتّى أغلقت عينيها وتأكّد أنّها غاصت في نومٍ عميق، ثم مرّر أصابعه على خصلات شعرها بهدوء، وشعر برغبة في البقاء فجأة، لكنّه قمع ذلك الشعور بسرعة قبل أن ينهض بخفّة، ويتركها وحدها...

***

فتحت عينيها على ضوء الشمس الذي تسلّل عبر الستائر وكأنّه يربّت على وجهها، أو يحاول إنقاذها من حلقة نوم ستهلك جسدها. حدّقت بالسّقف مطوّلاً، ثمّ لمست رأسها ونهضت تنظر لما حولها. الشمس ساطعة، مارسيل يحتسي الشاي ويعمل على حاسوبه،

وهناك عربة بها طعام إفطارٍ مغطّىً

"هل... نمت طوال الليل والصباح؟"

أجاب دون النظر إليها: "مثل القتيلة"

شهقت باندهاش، ثمّ فركت رأسها في محاولة لإنعاش ذاكرتها: "ألا تظن أنّ الأمر غريب ويتكرر معي؟ أكون في أوج نشاطي ثم يصيبني التعب فجأة وأنام مثل الميتة" لوّحت بيدها: "بدأت أشكّ أنهم يضعون شيئاً في الطعام أو الشراب للضيوف"

توقف مارسيل عن النقر للحظة وكأنّ كلماتها أثارت شيئاً به، ثمّ نظر إليها بحذر ليجدها تمدد جسدها، فقال بصوتٍ هادئ: "احزمي حقيبتك، سنذهب إلى إيطاليا"

فتحت فمها بصدمة: "بلد آخر؟ هل أنت جاد؟"

ارتشف من الشاي، ثمّ قال: "قلتِ إنّك ترغبين بالذهاب إلى البندقية قبل أن تغرق وتختفي"

"أجل!"

"سوف آخذك إذًا"

نهضت بحماسة قبل أن تقترب منه لتعانقه وتغمره بالحبّ الذي لم يتعلّم كيف يبادر به بعد، ثمّ قالت: "أنت أفضل رفيق الآن! لست رومنسيّاً بعد ولكن ستتعلم... سأذهب وأحضّر نفسي" همّت بالابتعاد، لكنّها توقفت عندما وقعت عيناها على شاشة حاسوبه والأخبار المتداولة، فسألت بفضول: "ما هذا؟ من مات؟"

أجاب محدقاً بالشاشة: "تاجر مخدرات كبير وُجِد منتحراً في شقّته"

"هذا مرعب..." قالت وهي تهز كتفيها

وكأنّها تتخلص من عبء التفكير بالأمر الذي لم يثر ريبتها: "على كلٍّ، سأسرع وأحزم حقيبتي!"

اتّجهت لدورة المياه بخطوات متحمّسة وعينا مارسيل الهادئ تراقبانها حتى أغلقت الباب، وحينها عاد لتأمّل الخبر قليلاً قبل أن ينقر على أحد المفاتيح وتظهر شاشة سوداء حوت أرقاماً ورموزاً كثيرة، وحوالة بنكية بمبلغ ضخم!

ثم أتاه صوت بارد كالثّلج، يقشعر له البدن، يمسح على كتفيه ويقول: "هذه هي أداتي الاستثنائية"

صرّ مارسيل على أسنانه ليقاوم الرعشة التي أرادت أن تلمّ به، ثمّ أغلق شاشة الحاسوب بعنف ليبدأ جاريد بالحوم حوله ببطء وهو يضع الابتسامة المرعبة، وعيناه تلمعان بفخر

وجنون:

"أنا فخور بك. أنتَ لم تدع تلك المرأة تغيرك، لا تزال كما صنعتك" ضحك ضحكة قصيرة: "كم أودّ رؤية ردة فعلها عندما تعلم بالحقيقة. تظنّ أنّها غيرتك وأنّها تغلبت عليّ، ولكنّي لا أزال الفائز وكلاكما خاسران"

خفض مارسيل عينيه، وتشنّج فكّه قليلاً وهو يكرّر بهمس: "أنتَ ميت.. أنت ميت!"

ضحك جاريد بصوتٍ عال اخترق قلب مارسيل كما الخناجر المسمومة التي تخترق الأجساد، ثمّ قال: "أنا لست ميتاً، بل في مكان لا تستطيع أن تصل إليّ فيه. لا أزال أمتلكك بين يديّ يا 005 ولن تتخلص منّي أبداً مهما فعلت ومهما حاولتَ إقناع عقلك بذلك، وحتى لو قتلتَ نفسك في كل مرة

وضعت فيها المسدس على رأسك دون علم روبي فلن تلحق بي، لذا توقف عن المحاولة وركّز في كونك أداة قتلي الفريدة!

استمر بالصيد، القتل، التخطيط، استمر بكونك عظيماً.... واقتلها"

وفي لحظة غضب وخوف، قذف مارسيل كوب الشاي باتجاه طيف جاريد ليخترقه ويبدّده، قبل أن يتحطّم وتتناثر شظاياه على الأرض

سمعت روبي الصّوت الذي أخافها لوهلة، ثمّ تنهدت تنهيدة طويلة وهمست: "مرة أخرى..."

أنهت استحمامها لتخرج وتجده واقفاً أمام المكتب، يبسط يديه عليه ليسند نفسه ورأسه للأسفل، يحاول التقاط أنفاسٍ منتظمة. نظرت للكوب المحطّم،

ثمّ إليه مجدداً وهي مشفقة، ولكنّها لم تدعه يرى ذلك الوجه المشفق أبداً، أو تجعله يدرك أنّها تعلم بكونه يهلوس بجاريد خارج كوابيسه، وأنّ الأمر يصل لحديثه معه أحياناً، فقد استطاعت سماعه ذات مرة خلسة وظنّت في البداية أنّه يحادث نفسه

تظاهرت بتجفيف شعرها قبل أن تقول بعفويّة مصطنعة: "ماذا حدث؟ آه! هل كانت هناك حشرة طائرة مجدداً؟ أخبرني أنّك استطعت قتلها"

زفر نفساً طويلاً، ثمّ أجاب بصوتٍ خافت: "لقد هربت.."

"آمل ألا تظهر وتفزعني" استطردت وهي ترتّب ملابسها: "كيف هو الطقس في البندقية؟ آمل ألّا يكون بارداً جدّاً"

عدّل جسده ونظر إليها: "إنّه معتدل"

ردّت بابتسامة دون أن تنظر إليه خشية أن يكشفها: "ممتاز... يجب أن تحزم ملابسك أيضاً!"

وقف مارسيل يحدّق بها بصمت؛ يدرك ما يجري، ويشعر بالامتنان لأنّها قررت تجاهل ما حدث وعدم السؤال، فلم يكن ليجيبها أو يقول أي شيء وسيستمرّ بالكتمان...

توقفت روبي عن ترتيب ملابسها فجأة، ثمّ التفتت إليه وهي محمّلة بالشكوك: "لقد غفلت عن الحقيقة لوهلة. هل نستطيع الذهاب لإيطاليا بعد ما حدث؟"

أجابها بعد أن مرّت ذكريات سريعة للتّعذيب على باله: "نستطيع. لن يتعرّضوا لنا"

ابتسمت وقالت بنبرة مغرورة: "تقصد

لن يتعرّضوا لبيدرو كورتيز ورفيقته!"
التفتت مرّة أخرى لحقيبتها: "متى سنذهب؟"

"سنتناول الطعام أولاً، فلا بدّ أنّك جائعة"

هبطت معه إلى مطعم الفندق المطلّ على الشاطئ وأخذت تتفقد قائمة الطعام ومعدتها تزأر باحتجاج، تطالب بالطّعام على الفور. قاما بإدلاء الطلبات للنادل، ثمّ رفعت رأسها للشمس، تتنعّم بدفئها حتّى أتى عازف الغيتار، وعزف بالقرب منهما وتبعه بائع الورود الحمراء

"هل ترغب بشراء وردة لمحبوبتك يا سيّد؟"

"لا/ نعم" أجاب مع روبي في الوقت ذاته

رسمت الوجه الحزين، فأشاح بنظره بعد أن زعزعت هدوءه وجعلته يضطرب قليلاً. قام بشراء وردة واحدة ووضعها على الطاولة دون قول شيء، لتبتسم روبي وتستنشق رائحتها: "شكراً! لقد فاجأتني"

علّق ببرود: "غير صحيح. أنتِ طلبتها"

"أعرف، ولكنّي سأتظاهر بالعكس حتّى تفاجئني بوردة فعلاً أو شيء ما"

صمت للحظة، ثمّ سأل دون أن يبدي فضوله: "هل تحبّين الزهور؟"

"لا بأس بها. أحبها أحياناً، ولكن لو أتت مع علبة شوكولا فاخرة فسأحبها كثيراً"

ضحك ضحكة خافتة وهو يسرح قائلاً: "كان محقّاً"

"من تقصد؟"

خفض صوته قليلاً، كأنّما يخشى أن يسمعه أحد، وكأنّه نسي لثانية من الزّمن أنّ صديقه القديم نيكولو قد رحل عن هذا العالم، ولم يعد سرًّا يخفيه

"نيكولو... أخبرني أن أحضر لك الزهور والشوكولا"

لمعت عيناها بسعادة خجول: "لم تخبرني تفاصيل هذا الجزء. هل تحدثتما عنّي قبل رحيله؟"

ارتشف من كأس الماء بعد أن قال: "نوعاً ما"

"ماذا قلتَ عنّي؟ كيف بدأ الأمر؟ أخبرني كلّ شيء!"

"ليس شيئاً مهمّاً"

"بلى مهم" ابتسمت بدفء: "أريد

أن أعرف"

لم يرتح مارسيل لهذه المحادثة، أراد تجنّبها وتغيير الموضوع بأيّ طريقة... حتى لو بالكذب

"أخبرته عن خطّتي وسأل عنكِ. قال إنّك تبدين مثيرة للاهتمام، وإنّي يجب أن أحضر لك الزهور والشوكولا... هكذا فقط"

شعرت بخيبة أمل صغيرة حاولت إخفاءها بتنهيدة بطيئة: "أوه.. توقّعت شيئاً آخر"

سأل باهتمام خفيّ: "ماذا توقعتِ؟"

صمتت قليلاً قبل أن تبتسم ابتسامة بدت منكسرة: "لا شيء... لا تهتم"

حدق بها للحظات قبل أن يفتح فمه ليقول شيئاً، ولكنّ النادل قاطعه بقدومه مع الأطباق، فصرفت انتباهها

نحوه ثمّ بدأت بتناول الطّعام والتحدث عن شيءٍ آخر مثل الطقس أو أغنية جديدة سمعتها. كانت تتولّى الحديث معظم الوقت، وكان مارسيل يكتفي بالاستماع والرّد بجمل مباشرة وقصيرة. لا يبدأ المحادثات في العادة —بل في الأغلب، وكان هذا يُثقل كاهل روبي في كثير من الأحيان، ولكنّها تعذره في الوقت ذاته، فهو لم يعش حياةً طبيعية بها أنشطة لا تتمحور حول عمله ك 005

***

لاحقاً، سحبت حقيبتها ذات العجلات خلفها، ومشت إلى جانبه حتّى وصلا للمطار، وكانت تتوتر في كلّ مرة يحملق بها المسؤولون بصورتها على الجواز المكسيكي قبل أن يختموه، وكأنّهم يتساءلون عمّا حدث لها عندما

التقطت الصورة، وكيف تغيرت الأوضاع الآن..

دخلت بفضل رفيقها إلى صالة انتظار فاخرة، حيث تمّ الترحيب بها وخدمتها بكلّ ما تريد إلى حين موعد إقلاع الطائرة، ولكنّها سرعان ما خرجت وسحبته معها بحماسة إلى متجر الكتب في الزاوية

"لن نشتري روايات أخرى" قال بجمود، ونظرات تحذيرية حلّت محلّ الكلمات

"ثلاثة فقط!"

"لا."

"اثنين؟"

"لا."

"حسناً، رواية واحدة وستقرؤها معي!"

تنهد تنهيدة مستسلمة، ثمّ وقف

يراقبها وهي تتفقّد قسم الروايات العاطفية، واستغلّ لحظات تركيزها بقراءة الملخصات ليتأمّل تفاصيلها وكأنّه يتأمّل لغزاً يجب أن يُحَلّ

"ما رأيك بهذه؟ تبدو ممتعة! فتاة تجبر على الزواج من عدوّ شقيقها!" رفعت كتاباً آخر بلهفة: "أو هذه؟ عن فتاة تقع في الحبّ مع رئيس المافيا والعائلتان تكرهان بعضهما بعضاً! حبّ محرّم والكثير من الدراما"

عقد ذراعيه وقال مستنكراً قليلاً: "لماذا تحبّين شراء الكتب ذات القصص الرخيصة؟"

ضمّت الكتاب إليها وكأنّها تدافع عنه: "ليست رخيصة! كما أنّها هروب من الواقع لا أكثر"

"لكنّ واقعك به مافيا حقيقية"

"ولم تكن كما تخيلت في الكتب" أضافت وهي تحرّك يدها بدرامية: "لم تخدعني بكونك رجلاً عاديّاً ثمّ أكتشف الحقيقة وأعلم أنّك قائد في المافيا ولديك عداوة مع عائلتي، واقع في حبّي منذ الطفولة وتراقبني سرًّا، أو تضرب في الخفاء كلّ فتًى آذاني أو جعلني أبكي، وعندما تتم خطبتي لرجل آخر فسوف تأتي وتزمجر قائلاً إنّي لك وحدك وتهدد بقتل أي رجل يقترب منّي!"

"وهل تريدين هذه الحياة؟"

"قطعاً لا. أحبّ قراءتها فقط. لا أحبّ الرجل العنيف والمتغطرس أو الذي يمارس قسوته على النّساء" أردفت وهي تتفقد الكتب: "من حسن الحظّ أنّك لست هكذا"

وكيف ترغبين أن أكون بالضبط؟ مثل

كاليب، أو أوستن؟ جيمي؟ آشر؟"

ضحكت برقّة قبل أن تربّت صدره: "حسناً حسناً توقف!" شبّكت أصابعها خلف عنقه وابتسمت ابتسامة صغيرة بينما هو يحدّق بعينيها ويغرق في زرقتهما الصافية، ثمّ قالت: "لا أريدك أن تصبح نسخة طبق الأصل عنهم. أريد أن تكون أنت... مارسيل الذي أحبه"

"وما الذي ترينه في مارسيل الحقيقي الذي تتحدثين عنه؟"

"لا أزال أكتشفه معك. مبدئيّاً، اكتشفت أنّه مراعٍ ويهتم لأمري، يستمع إليّ، يعرف ما أحب وما أكره، يرتاح لوجودي قربه وسيشتري لي ثلاثة كتب!"

"محاولةٌ جيدة" أنزل يديها بهدوء ثمّ

قال: "كتاب واحد ولديك عشر ثوان تبدأ من الآن... تسع، ثمانٍ—"

صفعت كتفه بضحكة: "حسناً فهمت" نظرت للكتب: "ما رأيك بهذا؟ فتاة والآلفا المستذئب"

"لنذهب من فضلك"

***

رفعت ذراع مقعدها بعد الإقلاع لتلتصق بجانب مارسيل وتسند رأسها على كتفه، ثمّ يقرأا الكتاب معاً لينقضي الوقت...

"هل انتهيت من قراءة هذه الصفحة؟ هل أقلبها؟"

"أقترح أن تغلقي هذا الكتاب السخيف"

ضحكت وحاولت استفزازه: "ألم

يعجبك؟ يبدو المستذئب مثيرًا للاهتمام"

"وهربت منه البطلة لأنّه يملك كلّ الصفات السلبية التي سخرتِ منها"

أغلقت الكتاب بعد ضحكة، ثمّ قالت بحيوية: "حسناً، لنشاهد فيلماً معاً، ما رأيك؟ سأختار شيئاً جيداً هذه المرّة... وسيكون كرتونيّاً!"

تشاركا سمّاعة الأذن. واحدة في أذنها والأخرى في أذنه، أسندت رأسها على كتفه مجدداً وتأمّلت الشاشة حتّى غلبها النعاس خلال الفيلم، فأغمضت عينيها، وتركها مارسيل لتنام. لم يحرّكها أو يتذمّر، بل تابع مشاهدة الفيلم وهو يتنفس عبير شعرها، رائحة المانجو مع الفواكه الاستوائية هذه المرّة، ثمّ التفت برأسه قليلاً لتلامس شفتاه وأنفه سطح رأسها. أغمض

عينيه وتنفس رائحتها للحظة أخرى قبل أن يشيح بوجهه وهو يشعر بعدم الرّاحة؛ كان مثل بحر هائج ومضطرب المشاعر، يخفي في أعماقه أسراراً خطيرة...

3: مدينة العشاق

كانت الرحلة من سانتوريني إلى فينيسيا أو البندقية سهلة ويسيرة. خطفت المدينة أنفاس وقلب روبي التي أصرّت أن يخرجا في جولة على الفور بعد وضع أمتعتهما في الجناح الفندقي، والذي أشعل دهشتها لتصميمه الكلاسيكيّ العتيق، والنوافذ المطلّة على القنوات المائية...

تجولتْ معه في ساحة سان ماركو، حيث تفيض الحياة والرومانسية بين العشاق الذين يتجولون مع بعضهم. هناك من يتقدم بطلب الزواج من رفيقته وسط هتافات وابتسامات، ومن يلتقط الصور مثلها. كانت تملأ ذاكرة هاتفها بالصّور المتنوّعة، وتطلب من مارسيل تصويرها في كلّ زاوية لتوثّق الذكريات الجميلة التي لا تُنسى

أمسكت فكّه في حركة سريعة، قرّبت خدّها من خدّه، ثمّ قالت بنبرة منزعجة وهي تنظر للعدسة الأمامية على هاتفها: "ابتسم يا مارسيل! لا تعتمد على وسامتك فقط. أريد صورة واحدة لنا على الأقل وأنت تبتسم"

أزاح يدها بلطف: "ألم تملّي من التقاط الصور بعد؟"

سحبت هاتفها ورمقته بنظرة غاضبة: "لا"

أشاحت بعينيها لشاشة الهاتف، وأخذت تنقر عليها بسرعة وهي تعض على شفتها وتركز، ثمّ ابتسمت بغرور ورفعت الهاتف لتريه النتيجة:

"من حسن الحظ أنّ هناك برامجَ لتعديل الصور. لقد جعلك التطبيق تبتسم، وابتسامة عريضة أيضاً!"

رفع عينيه ببطء من شاشة هاتفها إليها، وكانت نظراته الباردة تعبّر عن امتعاضه الواضح دون الحاجة لقول شيء

"لا تنظر إليّ هكذا، ولا تظن أنّي سعيدة، فهذه ليست أسنانك ولا ابتسامتك الحقيقية، وحتّى غمازتك ليست موجودة أيضاً، لكن هذا كل ما أستطيع فعله" استطردت: "هيا بنا لنرى الكاتدرائية!"

سحبت يده وتوجهت لتزور كاتدرائية سان ماركو التي تشتهر بفنّ عمارتها البيزنطي، وتصميم فريد تتداخل معه الفسيفساء المطلية بالذهب. شعرت أنّها ولجت عبر بوابة خفية للزمن القديم، حيث يتراقص الضوء على الأسقف المزخرفة، وتروي الجدران قصص العصور الماضية، لتبرز الفنّ

الذي أسر روبي كثيراً لدرجة أنّها نسيت التصوير وباتت تتأمّل مسارات الفنّ حولها. أمّا مارسيل، فلم يثر المكان فضوله؛ كان يتأمّل تحفة نادرة تستحقّ التأمّل والاهتمام، متفرّدة ومتميّزة لم يسبق أن رأى مثيلاً لها في حياته، يجذبه كلّ تفصيل صغير بشأنها. نظراتها المنبهرة وكيف تتسع عيناها بفضول بريء لما تشاهده، كيف تفتح فمها بشكل طفيف، كيف تبتسم وكأنّها تذكّرت شيئًا قد يكون متعلقاً بهذا المكان وإحدى الروايات التي تقرؤها... كان يتأمّلها كما الفنّان الذي وجد مصدر إلهامه الأبديّ!

***

أرادت روبي زيارة برج سان ماركو أيضاً، والصعود للأعلى لتنعم بمشاهدة المدينة من ارتفاع رائع، لكنّ الموقع

كان مزدحماً بشكلٍ أحبطها، فاتّجهت لترى المتاجر الصغيرة عوضاً عن ذلك، بينما مارسيل منشغل بهاتفه...

"انظر، أساور التواصل بين الثنائي. رأيت مثلها من قبل وأعجبتني كثيراً. إن ضغطتُ على سواري فسوف يومض سوارك أيضاً. ومضتان تعنيان أحبك وثلاث تعني أشتاق إليك، إنّها ظريفة جدّاً!"

قال ببرود دون أن يرفع عينيه عن هاتفه: "لن ألبس هذا، فلا تحاولي"

تنهدت بإحباط، ثمّ أشارت لزوجٍين آخرين: "حسناً، ماذا عن هذين؟ زوجا سوار بهما قطعة مغناطيسية صغيرة.جزءٌ من سواري يتصل بجزئك عندما نمسك بأيدي بعضنا "

"لا."

"فات الأوان"

انتشلتهما روبي وذهبت لتدفع الحساب من مالها الخاص، ثمّ لبست سوارها على الفور ورفعت الآخر في وجه مارسيل بعناد، فرمقها بنظرة تهديد، وشدّ على كلّ كلمة قائلاً: " قلت. لن. ألبسه."

ضيقت عينيها بتحدٍّ وقلّدته: "سوف.ترتديه."

اقترب منها ببطء وردّ بصوت منخفض: "لا تتحديني يا روبي. ستخسرين... مجدداً"

"أريدك أن تلبسه. إنّه سوار أسود ويبدو رجوليًّا أيضاً لذا هيا وإلّا..."

ضيق عينيه قليلاً: "وإلّا ماذا؟"

شعرت بالارتباك للحظة وهي تفكّر: "وإلّا...بعثرت أغراضي في كل مكان!"

"اعتدتُ هذا الأمر المزعج"

"إذاً سآكل فوق الفراش وأترك الفتات"

"سأرغمك على تنظيفه" ردّ مقترباً خطوة أخرى لتتراجع هي خطوة للخلف وتصبح محاصرة في زاوية المتجر

"إذاً... سوف... سوف..."

أمال رأسه: "سوف؟"

اغتاظت روبي وعضت على شفتها في لحظة سرقت انتباهه، ثمّ ابتسمت بانتصار ومكر عندما توصّلت لشيء أخيراً، وقالت: "ستتراقص أصابعي بنعومة خلف مرفق ذراعك وأدغدغك، حتى إن كنت نائماً"

انتشل السوار من يدها ليرتديه في لحظة سريعة، ثمّ قال ببرود وهو

مغتاظ: "تحرّكي"

لفّت ذراعها حول ذراعه قائلةً: "لقد نجحت خطتي"

خفضت يدها ودغدغت المنطقة خلف مرفقه-حيث يتصل العضد بالذراع- فاقشعرّ جسد مارسيل ورمقها بنظرة غاضبة، لتنفجر ضاحكةً وتسدّ فمها:

"حسناً آسفة آسفة"

مسحت دمعتها التي فرّت بسبب الضحك، ثمّ أمسكت يده بعمد كي يتلامس السواران. كانت يدها حارة، دافئة، تحمل في دفئها أحاسيسَ خفية تتسلل إلى روحه ذات الحصن المنيع دون استئذان. تجعله مدمنًا لهذا المشاعر، لا يرغب بإفلات يدها أو ابتعادها... وكم يكره هذا النوع من التعلق والإدمان!

نظرت إلى الجندول الأسود - قارب طويل ورقيق يستعمل في قنوات البندقية بإيطاليا. تأملته قليلاً وهي تشد على يده ليتوقف ويحدق بها، يدرس وجهها والملامح العديدة التي ارتسمت عليه ما بين تساؤل، فضول، خوف، لهفة وحزن...

أخيراً، نظرت إليه وقالت بابتسامة شاحبة محاولةً تشجيع نفسها: "لنركب الجندول. إنّه أهمّ وأروع تجربة في البندقية"

نظر باتجاه القارب، واكتفى بإيماءة. تحرك أمامها ويده لا تزال ممسكة بيدها حتى وصلا إلى موقف الجندول. تبادل بضع كلماتٍ مع سائقه قبل أن يعطيه المال، ثمّ صعد إليه أولاً بينما روبي تحدق بالقارب والمياه للحظات طويلة

وقف ينتظرها ريثما تحسم أمرها، ثمّ مدّ يده لها فحدقت بها وكأنّها تقيس المسافة بينهما وبين الشجاعة والخوف الذي ما يزال يطاردها. أخذت بيده وشدّت عليها، ثمّ هبطت على الجندول الذي اهتزّ تحت قدميها بحركة المياه، فتشبّثت بمارسيل وهي ترتعش قليلاً وتراجع قرارها

قال بصوت ثابت: "أنتِ ترتعشين. اجلسي"

ضحكت بتوتر: "آه.. حسناً"

جلست بجانبه ومسحت على ركبتيها كي تهدأ، ثمّ تحرّك القارب، فأخذت تشغل تفكيرها بالنّظر إلى المباني العتيقة حولهما، حتّى تنجح بطرد الخوف والتّوتّر

زفرت نفساً عميقاً: "حسناً، الجو جميل.

المياه الخضراء مشكوك في أمرها، والرائحة كريهة، و–آه السائق حسن المظهر، المباني مدهشة وكلّ شيء ممتع"

اهتز القارب فجأة فشهقت متمسكةً بذراع مارسيل بقوّة، ثمّ تنهدت تنهيدة طويلة وابتسمت ابتسامة مضطربة، تعلن الهزيمة

قالت وهي مشوشة: "أنا آسفة... لقد سافرنا بالغوّاصة من قبل ولكن لا أعلم. لا أزال خائفة، ولكن ليس من الماء بحدّ ذاته بلْ..."

أكمل ما لم تستطع البوح به: "من الظّلام المصاحب للغرق"

"كشفتني"

"لطالما كان الأمر واضحاً. أنتِ لا تنامين في الظلام الدامس يا روبي"

خفضت عينيها بحزن: "أحياناً، أخاف عندما أغلق عينيّ أيضاً وأرى اللاشيء. أكره الظلام كثيراً، أشعر أنّي لا أستطيع التنفس جيداً وكأنّي أغرق في اليابسة"

صمتت قليلاً قبل أن تهز رأسها وتطرد الأفكار السلبية، ثمّ انزلقت يدها لتمسك يده وتتأمّلها، فجاراها مارسيل في رغبتها الخفيّة بتغيير الموضوع بشكلٍ عفوي، وقال: "ألن تتوقفي عن تأمّل أظافري كلّما سنحت لك الفرصة؟ هذه عادة جديدة"

ابتسمت وهي تمسح على مفاصل يده: "أنا ممتنّة للطّب المتقدّم وللطبيب الذي استطاع علاجك... لقد كانت يداك محزنتين بدون أظافر، وتذكّرانني بالتعذيب الذي عشته"

التفت للأمام قائلاً: "أنا بخير"

أتى دورها لتجاريه في تغيير المحادثة، فابتسمت بحماسة وقالت: "لنلعب لعبة أسئلة، ولكن من نوع آخر"

نظر إلى ابتسامتها ثمّ لعينيها بهدوء كما يفعل عادةً. لم يقل شيئاً لكنّه لم يرفض أيضاً. يتقن السكون ويعيرها انتباهه أكثر

"لو كنتُ سيارة فماذا سأكون برأيك؟"

نظر إليها مطولاً، كان يتوقع أسئلة عادية كما في السّابق، ولكنّها لا تكفّ عن مفاجأته بشكلٍ غريب ومثير للسخرية والدهشة أحيانًا. تجعله محتارًا، فضوليًّا لمعرفة ما يجول في رأسها واستكشافها أكثر، وكيف لها أن تفاجئه في كل مرة يظن فيها أنّه توقع خطوتها التالية

عقد حاجبيه مستنكرًا: "ما

هذا الهراء؟"

ضحكت بعفوية، ثمّ قالت: "أجب فقط! على سبيل المثال، لو كنتَ سيارة فأظنّك ستكون... مرسيدس؟ أجل مرسيدس"

حدّق بها لبرهة طويلة حملت كلّ معاني الاستغراب، لتضحك مجدداً وتأمره بالإجابة، رافضةً التراجع والاستسلام، فاستسلم هو وأجاب: "ميني كوبر حمراء"

اتسعت عيناها بدهشة اختلطت بالمرح: "حقّاً؟ حسناً، قد تملك وجهة نظر" زمّت شفتيها تفكّر، ثمّ سألت: "لو كنتُ كتاباً فماذا سيكون عنواني الرئيس؟"

أجاب بنبرة واثقة لم تخلُ من التهكم: "كيف تهرب من الموت"

ضحكت بشدة ولم تستطع التوقف، مما جعله يبتسم للحظة قصيرة حتى التقطت أنفاسها وقالت: "عنوانك سيكون... رحلتي الفاشلة لاكتشاف مكوّن هيغنز السّرّي"

نظر بعيداً ليمنع نفسه من الضحك، لكنّه لم يستطع منع طرفي شفتيه من الارتعاش قليلاً، فغطّى فمه: "هذا سخيف جدّاً"

"ولكنك تضحك!"

"لأنّها سخافة"

عدّلت جلستها بحماسة: "حسناً... لو كنتُ حيواناً؟"

أجاب بهدوء: "ستكونين الكسلان بلا شكّ"

شهقت بغضب مصطنع: "لا، بل سأكون قطة! لدي عينان بلون فاتح لذا أنا

أقرب للقطة"

"لا أظنّ ذلك"

رفعت ذقنها بغرور: "أنت كوبرا"

هز كتفه ونظر للأمام: "منطقي"

"اسحب ما قلته، لست الكسلان"

"إمّا كسلان أو كوالا"

فتحت فمها بصدمة: "أنت تظن أنّي كسول وأحب النوم، ها؟"

ردّ بنبرة متهكّمة: "لم أقل ذلك يا روبي... ركّزي"

عقدت ذراعيها: "لو كنتَ من الخضروات فسوف تكون بصلة! لأنّك مكون من عدة طبقات، وجعلتني أبكي كثيراً أيضاً"

"أنتِ فقط انفعالية وعاطفية جدّاً،

وهذا بسبب الترهات التي تقرئينها" أردف: "وبالمناسبة، ستكونين الفلفل. لنختم هذه اللعبة السخيفة من فضلك"

ضحكت ضحكة مكتومة وتركت الجدال، ثمّ قالت: "حسناً آخر سؤال... لو كنتُ لوناً فماذا سأكون؟"

نظر إليها للحظة طويلة جعلت قلبها يضطرب ويترقّب الإجابة، تتمنى لو تعرف ما يفكر فيه بالضبط، لو يفصح لها بتلك الأفكار ولو قليلاً..

"ستكونين كلّ الألوان"

"حقّاً...؟ ولماذا؟"

"هكذا فقط"

اكتفت بإجابته المبهمة وتبسمت بخجل: "أظن أنّ وجنتيّ احمرتا." زفرت نفساً قصيراً ثمّ قالت: "أنت

ستكون..."

استبق إجابتها قائلاً: "الأسود"

ابتسمت برقّة: "لا..." أكملت عندما نظر إليها: "إنّه فخم وتختاره كثيراً، ولكنّه ليس أنت. أنت ستكون اللون الرمادي"

قطّب حاجبيه في تساؤل: "الرّمادي؟"

"أجل، إنّه لون يمثل العديد من الأمور، منها الموازنة والهدوء، التحفظ وقلّة المشاعر... أمور أجدها بك"

التفت للأمام دون تعليق هذه المرّة، لكنّها تعلم أنّه يفكّر بكلامها ويحلّله. أمسكت يده مجدداً ليتجاذب السواران وأسندت رأسها على كتفه، تتأمّل جمال المدينة...

"الشمس تغرب وزاوية التصوير رائعة. لنلتقط صورة معاً"

رفعت هاتفها وحاولت أن توضّح المنظر خلفهما ولكن دون جدوى، فنظرت لسائق الجندول الذي فهم ما أرادته وتولّى المهمّة. عدّلت جلستها ورفعت ذراع مارسيل لتضعها خلفها دون أن تسأله حتى، ليزفر بانزعاج: "ما الذي تفعلينه؟"

"ضع يدك على كتفي وضمّني إليك، أريد صورة حميمية!"

"جاهزان؟"

أمالت رأسها وابتسمت بنعومة للكاميرا، وللسائق الذي عدّ حتى الرقم ثلاثة قبل التقاط الصورة، ثمّ أعاد الهاتف لتشهق روبي غير مصدقة لما تراه... ابتسامة مارسيل التي لم تكن عريضة أو مجبرة بل بسيطة، ناعمة، حقيقية وتمثله!

نظرت إليه بعدم تصديق بينما هو ينظر للأفق وكأنّ أيّ شيءٍ لم يكن: "لقد ابتسمت..."

"لا تعتادي الأمر"

اتسعت ابتسامتها وزفرت بسعادة وهي تحدق بالهاتف: "الصورة جميلة جدّاً. لقد ابتسمت فيها بشكل... آه لا أعلم كيف أعبّر، لكنّي سأقدس هذه الصورة للأبد يا مارسيل، وأنت احتفظ بها أيضاً!"

أرسلتها إلى هاتفه على الفور، ليتأمّلها قليلاً قبل أن يقول: "ستبدو جيدة على قبرك عندما أقتلك لمعاملتي كتمثال تحركينه كما تشائين"

"بتّ منيعة ضدّ ألاعيبك الذهنية وتهديداتك فلا تحاول حتّى"

أسندت رأسها على كتفه مرة أخرى.

فشعر في أعماق قلبه بالندم لإقدامه على ذلك، وبالضيق الذي جعله يفكر بحذف الصورة من هاتفها، أو ربما دفعه ليسقط من يدها إلى الماء!

قاطعت حبال أفكاره بقولها: "هذه هي اللحظات التي تجعلني أتمسك بك يا مارسيل، وتزيد أملي وقوتي للمتابعة... اللحظات التي لا تكون فيها 005 بل أنت"

"ومن أنا؟"

رفعت رأسها ونظرت إليه مثلما ينظر إليها، ثمّ لمست وجنته وهمّت بقول شيء لولا أن قاطعها صوت هتف باسم سِيِيل...!

التفتت إلى مصدر الصوت لترى ماتِيو مايورانو، ابن رئيس أقوى مافيا في

إيطاليا، يقف على سور الجسر وكأنّه ملك، يضع ابتسامة عريضة وماكرة على وجهه، وخلفه رجلان بدوَا كحارسين له

توقف سائق الجندول وأومأ له إيماءة احترام، بينما اتسعت عينا روبي عندما أدركت أنّهم وحدهم وبعيداً عن بقية زوارق السياح، وكأنّ السائق سلك هذا الطريق عمداً، ثمّ نظرت بحذر إلى مارسيل الذي كان هادئاً جدّاً، يحدّق بماتِيو وينتظره أن يقول ما لديه

تحدث ماتيو باللغة الإنجليزية لتفهمه روبي أيضاً: "لم أرك منذ مدة يا سِييل! أم هل يجب أن أناديك بيدرو الآن؟ آمل أنّك لا تكنّ أي ضغائن، فقد كنّا نؤدي عملنا وحسب"

"ما الذي تريده؟"

"كنت مسترخياً في قصري عندما وصلني خبر وجودك هنا، ولكن جئت للترحيب بك شخصيّاً عندما أخبروني أنّ معك ضيفةً مميزة!" لوّح لروبي وقال بنبرة مرحة: "مرحباً مجدداً يا روبي سميث!"

ازدردت بتوتّر، ثمّ ردّت بصوتٍ خافت: "مرحبًا"

"لا تخافي منّي يا حلوتي! أنا مسالم وقد جئت لأرحب بكما في مدينتي فقط"

"مدينتك...؟"

"نصف السّكان هنا منّا، وأنا الملك الذي يأمر وينهى" رفع حاجبيه مغترًّا: "مذهل صحيح؟ هل أعجبتك الآن؟ أنا أروع وأكثر إثارةً من سييل لو عرفتني جيداً"

رمقته بنظرة ازدراء خفيفة، ثمّ كرّرت سؤال مارسيل: "ما الذي تريده منّا؟"

أجاب بابتسامة عريضة محاولاً إظهار اللطف وإخفاء نواياه الحقيقية: "غداً حفلة ميلادي وستحضران لها، خاصةً أنتِ!"

رفعت ذقنها بتكبر ونظرت إليه بتحدٍّ: "ماذا إن لم أحضر؟"

"هذا ليس خياراً متاحاً"

جال بعينيه عبر المباني حولهما، فتبعته روبي بنظراتها لترى رجالاً مختبئين خلف النوافذ ومعهم أسلحتهم، مستعدين للتصويب عليهما في أيّ لحظة!

نظرت بأعين متسعة إلى ماتيو الذي قال بنبرة مرحة: "لا أتوقع هدية،

لرؤيتك غداً" أردف بعد غمزة: "والآن سأترككما تنهيان جولتكما الرومنسية"

رحل ماتيو ومعه حارساه، ثمّ التفتت روبي للمباني ورأت الرجال قد اختفوا أيضاً لتزفر بعدم تصديق: "يا إلهي ماذا حدث للتو؟" نظرت إلى مارسيل الهادئ: "هل كنت تعلم؟ بالطبع كنت تعلم! لماذا لم تخبرني؟"

"ليس أمرًا مهمًّا"

أطلقت تنهيدة عميقة ومحبطة، ثمّ سألت: "هل نحن مجبران على الذهاب حقّاً؟"

"لن يفعل لي شيئاً إن لم أذهب، ولكن أنتِ...؟"

انكمش وجهها: "مارسيل! ما الذي تلمّح إليه؟"

يا تُرى؟"

"أجل فلا تتلاعب بي" زفرت وهي تلمس رأسها: "ولا أملك ثوبًا لمناسبة كهذه"

"هناك متاجر يمكننا رؤيتها"

***

أنهيا جولة الجندول، وأخذت روبي تتجول معه حيث متاجر العلامات التجارية الفاخرة. دخلت لأحدها واختارت ثلاثة فساتين جهزوها لها في غرفة التبديل لتجرّبها، أمّا مارسيل فقد جلس على الأريكة الحمراء المقابلة، يظهر اللامبالاة وانعدام الاهتمام في طريقة إمساكه بهاتفه، كي لا تقترب منه مساعدة المبيعات التي أبدت اهتمامها به حالما دخلا للمتجر

بالاتصال على سكارليت التي أجابت اتصالها المرئي في ثوانٍ وقالت: "مرحباً يا روبي، كيف سفرتك؟"

"رائعة، ولكنّي وسط أزمة موضة وأحتاج مساعدتك"

"ما الأمر؟"

"أنا مدعوة إلى حفلة ميلاد باذخة وأبحث عن ثوب مميز، لقد اخترت ثلاثة وأريدك أن تريها وتخبريني ما رأيك"

ردت بابتسامة: "حسناً"

استعرضت روبي الثياب التي اختارتها مع موجز سريع، ثمّ نظرت إلى سكارليت التي قالت: "الأحمر جميل ويليق بكِ، ولكنه ليس مناسباً للحفلة، الأزرق؟ قطعًا لا، أمّا الأصفر فأهنئك على اختياره. إنّه مثاليّ!"

"لقد علمتني أنّ هذا التصميم يناسب جسدي لذا اخترته، والأصفر لوني المفضل."

"وما هو رأي سييل؟"

هزّت رأسها: "سييل مشغول بهاتفه ومحاصر بسيدات يتغزلن به... على كلٍّ سأجربه وأرسل لك صورة، وسأختار الحذاء والحُليّ اللازمة"

"حظّاً موفقاً"

أنهت روبي المكالمة وارتدت الثوب، ثمّ نظرت لانعكاسها في المرآة وابتسمت قبل أن تزيح السِّتَار وتخرج لمارسيل الذي رفع عينيه عن هاتفه، ومرّرهما عليها ببطء جعلها تتوتّر فجأة

"ما رأيك؟"

أجاب معيداً تركيزه للهاتف كأنما يتهرّب من شيء ما: "يناسبك. خذيه."

ابتسمت بمرح وحاولت العبث معه: "ما بال هذه الردود المباشرة؟ هل أعجبتك يا تُرى؟ هل أبدو جميلة ومثيرة يا ماغسيل؟"

تنهد بتململ: "أسرعي"

وبعد الانتهاء من شراء كلّ شيء، لفّت ذراعها حوله بتملّك ورسالة واضحة للجميع حولها أنّ هذا الرّجل ملكها وحدها، لكنّ تلك اللحظات لم تدم طويلاً عندما دخلا لمتجر رجاليّ هادئ وتمّت قيادتهما إلى غرفة خاصّة أشبه بمخبأ سرّي، ضمّت العديد من البدل الأنيقة والأسلحة المختلفة. تأملت المكان بقلق خفي، ثمّ ركزت نظراتها مع مارسيل والبائع الذي عرض عليه أجدّ أنواع البدل الخاصة، وأراه ما يمكنه أن يضع فيها من أسلحة، وكيف أنّها مضادة للرصاص، كما عرض

مجموعة من الخناجر الحادة الصغيرة، فأخذ يحملها في يده ويقلّبها بين أصابعه بطريقة بهلوانية محترفة وكأنّه يتفقد وزنها قبل أن يطلقها نحو الهدف المعلّق على الجدار...

***

انتظرت روبي حتى ابتعدا عن المتجر أخيرًا، ثمّ سألت: "هل هناك داعٍ لكل ذلك؟" همست بقلق: "هل سيقتلوننا؟ هل نحن في مشكلة مجدداً؟"

"قد يحدث أي شيء لذا أفضّل أن أكون مستعدّاً"

ازدردت بتوتر وتابعت المشي معه حتى توقف عند أحد المطاعم واقترح تناول العشاء، ليتبدل خوفها إلى سعادة وحماسة لتجربة الطعام الإيطالي في أرض إيطالية. جلسا إلى

طاولة في السطح، تطلّ على المباني العتيقة والقناة المائية التي تعكس مياهها الأضواء الملوّنة كلوحة حية، وكان صوت الموسيقى ينتقل في الهواء كالسحر مع الأجواء الرومانسية..

وبينما كانا ينتظران الطّعام، كسرت روبي الصّمت بتنهيدة وابتسامة حملت الحنين والاشتياق وهي تحدّق بالزّوارق، مثيرةً فضول مارسيل الذي انتظرها أن تتحدّث...:

"سأخبرك بذكرى خاصّة ومحبّبة لي" أبحرت في ذكرياتها وابتسمت بنعومة: "لقد كان أبي يهوى جمع تماثيل الخزف الصغيرة التي تخص المعالم السياحية، ينظفها كل يوم ويعتني بها جيداً. كنت أجلس بجانبه وأستمع إليه وهو يعبّر عن رغبته بزيارة مدن كثيرة

مثل باريس وروما، وأخبرني أن أختار وجهة لنبدأ بها لذا اخترت الجندول وقلت له إنّي أريد الذهاب إلى ميلانو والبندقية لتناول البيتزا الإيطالية والمعكرونة، فضحك ووعدني بالسّفر معاً" أردفت بنبرة حزينة: "مع الأسف... لم يعش ليفي بالوَعد"

ذبلت ملامحها كزهرة في أمسّ الحاجة للماء وضوء الشمس. أمران لا يملكهما مارسيل ولا يعرف كيف يمنحهما لها، لذا تركها تنقذ نفسها دون تدخّله أو دعمه كما جرت العادة بينهما، جاهلاً الذنب الذي يقترفه

رسمت ابتسامة شاحبة، ثمّ التقطت السّكين من الطّاولة وقالت: "عندما كنت في المتجر، قمت بالتلاعب بالسكين في يدك وبين أصابعك"

حاولت تقليده، وقعت السكين على

الطبق مصدرةً صوتاً لفت انتباه الناس، فزفرت ضحكة وأومأت معتذرةً، ليهزّ رأسه بابتسامة صغيرة: "ليس هكذا"

حرّكت كرسيّها وجلست بجواره: "علّمني إذاً، أريد أن أعرف كيف تفعلها"

تأمّل وجهها المتحمس قبل أن يلتقط السكين ويقول: "أولاً، هذه السكين ثقيلة. تحتاجين لشيء أخفّ في البداية"

بدأ بتدوير السكين بين أصابعه، لتنبهر روبي وتركز معه أكثر، ثمّ قام بفعلها مجدداً ولكن ببطء، خطوة بخطوة. كان الأمر معقداً بسبب ترتيب تحرك الأصابع، لكنّها لم تستسلم وحاولت الحفظ والتطبيق

أُفلِتَت السكين من يدها مجدداً، فهمّ

مارسيل بالتقاطها لكنّها فعلتها قبله، وبحركة سريعة جعلتها تشهق: "هل رأيت ذلك؟ كانت ردة فعلي سريعة جدّاً!" قبضت يدها مثل الرجل العنكبوت عندما يطلق خيوطه: "لا يوجد خيوط مع الأسف"

فرت ضحكة مكتومة من مارسيل الذي أشاح بوجهه عنها، لتضحك وتفرك خدّها بحرج قليلاً، ثمّ عدلت جلستها وظلت بجانبه عندما أتى الطعام، تتحدث وتثرثر بينما هو يستمع، يراقب، يتأمل كل زاوية في وجهها محاولاً أن يقرأها ويحلل حركاتها. ينجح أحياناً، وأحياناً أخرى تشتد أعصابه عندما لا يستطيع أن يفهم ما الذي يجري...

وبعد ليلة ساحرة في مدينة العشاق، بعد الضحكات الرقيقة، النظرات

والأحاديث الطويلة، أخذت روبي تتأمل مارسيل الذي يستلقي بجانبها على الفراش وعلى وجهها ابتسامة صغيرة جعلته منزعجاً:

"ما الأمر الآن؟"

"أتأمّلك مثل كل ليلة"

ردّ ببرود وهو يضطجع على جانبه الآخر: "نامي"

ضحكت ضحكة هامسة، ثمّ قالت: "لقد استمتعتُ كثيراً اليوم... ماذا عنك؟"

أجاب بتحفّظ: "لا بأس"

شعرت بالإحباط والشفقة، ثمّ همست: "تصبح على خير... أحبّك"

تأمّلت مؤخرة عنقه لبرهة طويلة، بينما هو ينظر للفراغ بصمت، يقلّب الكلمات في عقله ويبحث عن ردّ أو مهرب!

"تصبحين على خير"

أغلق عينيه بعد تلك الجملة القصيرة، وتظاهر بعدم سماع صوتها عندما همست: "لا بأس عندي إن لم تقلها، ولكن أظهرها لي على الأقل"

4: أمسية مجرمين أخرى

"هناك خلل بك يا 005..."

نطق جاريد بتلك الكلمات السّامّة، مخاطبًا مارسيل الذي يقف وسط غرفته في برج قصر باتروإيڤان، الغرفة التي شهدت معاناته، محاولات اغتياله، تشربت دماءه واحتوت صرخاته وألمه. أكبر مخاوفه يقف أمامه، يرتدي الأسود كالعادة، ينظر إليه بعينيه الرماديتين وملامح وجهه الخالية من التعابير والمشاعر. بدا كثقب أسود، بلا بداية ولا نهاية، يبتلع كلّ معاني الحياة ولا يترك شيئاً!

"تخلص من مسبّب الخلل... تخلص منها"

فتح مارسيل فمه ليتكلّم، لكنّه لم يجد صوته ولا كلماته، فرمقه جاريد بنظرةٍ

كالخنجر الحادّ الذي يخترق هدفه بعمق وقال: "أنت متردّد. لقد تمكنتْ من الدخول إلى عقلك والعبث به." أردف من بين أسنانه مهدداً: "تخلص. منها."

همس مارسيل بصوتٍ مرتعش بالكاد يُسمَع: "لا.."

ارتفعت نبرة جاريد قليلاً، وبدا مشحوناً بالغضب والحقد: "لا يُسمح لك بعصياني يا 005. أنتَ أداة قتلي الاستثنائية... ولن أسمح لامرأة أن تغيّر ذلك"

اختفى من الغرفة فجأة كما لو تبخّر في الهواء، وسرعان ما سمع مارسيل صرخات روبي عبر القصر كلّه ليرتعد قلبه ويهتز كيانه. ركض خارج غرفته والقلق يعلو وجهه، يناديها، يبحث عنها

صراخها المتوجّع، ولكنّه كان يأتي من كلّ مكان!

وجدها أخيراً في السرداب الذي كان يسمّى بسرداب الموت أو العقاب. كان مكاناً مخصصاً للتعذيب ولم يخلُ من الأدوات اللازمة لذلك، احتوت جدرانه الصَّرَخات المعذَّبة، وتشرّبت أرضه الدّماء التي ما تزال تفوح رائحتها في الأرجاء

كانت روبي معلّقة من يديها، تلوّنت ثيابها بدمائها التي تسيل من جسدها وتروي الأرض تحتها، تماماً كما حدث مع نيكولو. رفعت رأسها الثقيل ونادته وهي تبكي، فاندفع نحوها لتظهر أغلال من العدَم وتقيّده. سقط على ركبتيه محاولًا التحرّر والوصول إليها لكن دون جدوى، وكان جاريد يقف بجانبها، ينظر إليه كالقاضي الظّالم الذي يوشك على

إصدار حكمه

ترجّاه بصوتٍ مهتزّ: "حرّرها.. أرجوك! ليس لها شأن بأيّ شيء"

ردّ جاريد ببرود مميت: "لا. يجب أن أصلح الخلل الذي بك، سأحررك منها. أنتَ أداة قتل يا 005 وأنت ملكي للأبد"

هتف بصوتٍ يائس وأنفاس متسارعة: "أنا لا أزال سلاحك!"

"اقتلها إذاً"

"لا أستطيع! لن أفعل!"

صمت جاريد قليلاً، ثمّ تبسم قائلاً: "سأفعلها نيابةً عنك إذًا!"

تحرّك ببطء محضراً دلواً أحمر اللون، ليرتجف مارسيل محدقاً به بفزع وهو يردد كلمة: ((لا))، لكنّ جاريد لم يستمع

أبداً، وبحركة خفيفة، ألقى ولاعته لتشتعل روبي وتحترق حية وسط صرخات مارسيل، وصرخاتها وهي تنادي اسمه...

"مارسيل؟ استيقظ!"

هتفت باسمه مراراً وتكراراً وهي تمسح على رأسه وتحتضنه حتى فتح عينيه فزعاً. كان يرتجف، يحاول التقاط أنفاسه السريعة، وإدراك أنّه عاد للحياة من الكابوس الذي أرعبه للتّو...

أمسكت وجهه وقالت: "لا بأس لا بأس.. لقد كان مجرد كابوس آخر. أنت هنا... وبخير"

احتضنت رأسه مجدداً وربتت على كتفه مرددةً كلماتها حتى أبعدها عنه، وحاول التنفس بانتظام

"هل ترغب بالتحدث عما رأيته؟"

نهض من الفراش فجأة فأمسكت يده، لكنّه سحبها بعنف قائلاً: "اتركيني"

أسرع إلى دورة المياه مغلقاً الباب خلفه. غسل وجهه بالماء البارد، وأبقى الصنبور مفتوحاً قبل أن يجلس على الأرض وخلفه الجدار الذي يشعر أنّه ليس قويّاً ليستند عليه، ولن يستطيع تحمّل وزنه. غطّى عينيه بيديه مجدداً، وأخذ يحاول طرد صوت جاريد، صورة روبي المحترقة وصرخاتها من رأسه، ولكن دون فائدة، وهذا جعله يلعن نفسه والمتلازمة التي يعاني منها

وكانت روبي القلقة تقف خارج الحمام، تنتظره، ترغب بتحطيم الباب والوصول إليه، أخذ مخاوفه وحزنه. تريده أن يسمح لها بفعل ذلك، لا أن يصدّها بعيداً مثل كلّ مرّة تنجح فيها بالاقتراب منه ولمس حواجزه

"هل أنتَ بخير؟" تابعت عندما لم يجب: "أجبني أرجوك"

ردّ بنبرة غاضبة: "أنا بخير لذا اتركيني بمفردي"

"تحدّث إليّ، ربما سترتاح و—"

قاطعها بنبرة جافّة: "لا أرغب بالحديث. ابتعدي ودعيني وحدي فقط"

لم تبتعد روبي وظلّت مكانها، تأبى الاستسلام، تحاول التفكير بطريقة تدفعه للخروج أو تمكنها من الدخول إليه

"مارسيل...؟"

ردّ من بين أسنانه المشدودة: "ماذا قلت؟"

تذمّرت بانزعاج مصطنع: "أعلم ماذا

قلت ولكنّي أحتاج الحمّام حقّاً"

أطلق تنهيدة طويلة بعد أن تلفت أعصابه، ثمّ انقطع صوت صنبور المياه وخرج يتجاوزها دون النّظر إلى وجهها أو قول شيء، فتابعت التمثيلية ودخلت الحمّام قليلاً، ولم تجده بعد مغادرتها على الفراش ولا حتّى الأريكة، فبحثت عنه حتّى وجدته في الشّرفة، يحدّق بالأفق...

همّت بفتح باب الشّرفة ولكنها لم تستطع، فقد أبى الباب الزجاجي أن يُسحب وكأنّه عالق، ثمّ نظرت جيداً لتجد أنّه وضع شيئاً يمنعها من فتحه ،،،قت بدرامية: "هل ستفعل هذا حقّاً؟ أولاً الحمام والآن هنا؟"

حاولت سحب الباب بقوّة فتزحزح بقدر يسمح لها بإدخال ذراعها فقط. نفثت الهواء من فمها لتتطاير غرتها

الخفيفة، ثمّ نظرت حولها باحثةً عن شيء لتقذفه به. التقطت جهاز تحكم التلفاز ثم أخرجت يدها ومدت ذراعها قدر المستطاع قبل أن تقذفه وتصيب كتفه

لم يلتفت إليها مارسيل الذي تابع التحديق في الفراغ، فبحثت عن شيء آخر وعادت لتقذفه نحوه مجدداً، ولكنّها أخطأت التصويب هذه المرّة، ومرّت ساعة يده من جانب رأسه لتهوي من الشرفة. كانت اللحظة تُعرض ببطء أمام عينيه، مدّ يده ليلتقطها ولكنّ ردّة فعله أتت متأخّرة، فشاهد السّاعة تهوي للأسفل قبل أن يسمع لروبي بعد سماع شهقتها

ارتعد قلبها عندما اقترب من الباب الزجاجي وأزاح بقدمه ما وضعه ليحبسها في الداخل، وحينها اندفعت

ممسكة مقبض الشرفة لتمنعه من سحب الباب وفتحه أكثر

"لم يكن الأمر مقصوداً!" شدّت على المقبض وهتفت: "لا لا.. لا تقاومني! وبعد التفكير مجدداً، يمكنك البقاء والتمتع بالجوّ العليل"

صرّت على أسنانها وهي تحكم إغلاق الباب، فانتظر مارسيل من قوّتها أن تنفد عوضاً عن فتحه بحركة قويّة واحدة لن تستطيع صدّها أو قد تؤلمها. تركت المقبض وغادرت الجناح بسرعة هاربةً منه، وكانت تستمر بالضغط على زر المصعد الكهربائي وهي تشعر أنّ شبحاً يلاحقها، وسوف يظهر في أي ـــ ـة ليخطفها!

اندفعت داخله وتنفست الصعداء عندما أُغلِق بابه بسلام وهبط للأسفل. وضعت يدها على قلبها وهمست: "يا

إلهي.. إن قلبي ينبض بسرعة!"

راقبت الطوابق على الشاشة؛ تنتظر أن تصل إلى الطابق الأرضي، ثمّ نظرت إلى انعكاسها في المرآة لتدرك أنّها هربت وهي لا ترتدي سوى ثوب نومها. تنهدت بتعب ثمّ نظرت إلى الطابق الذي توقف المصعد فيه، لم يكن هناك أحد، فزفرت بارتياح قبل أن يسقط قلبها عندما ظهر مارسيل فجأة!

همّت بإطلاق صرخة، لكنّه اقتحم مساحتها وغطّى فمها بسرعة لتبتلع صرختها محدقةً بعينيه الخضراوين بفزع، بينما هو يحتجزها في الزاوية ويحدثها بكل هدوء: "هل ترغبين في أ ثّتلي يا روبي سميث؟"

هزت رأسها وهي ترمش عدة مرات، ثمّ أزاح مارسيل يده ولكنّه لم يبتعد عنها، يشعر بحرارة جسدها تنتقل إليه،

وأنفاسها التي تحاول الانتظام تضرب على وجهه

همست وهي متفاجئة: "كيف لحقت بي؟"

"سلكت درج الطوارئ"

ضاق حاجباها: "وكنت أسرع من المصعد؟ أم أنّك قفزت عبر الدرج؟"

أجاب ببرود: "شيء من هذا القبيل"

شهقت متعجبة وتمعّنت النظر في وجهه قائلةً: "حسناً أيّها الرّجل الخارق"

تجاهل ما قالته وسأل بهدوء محمّل بانزعاجه: "هل تعلمين كم ثمن الساعة رميتها؟"

"لم أقصد... أخطأت التصويب وكانت رميتي قوية، مع الأسف" أردفت

باحتجاج: "والذنب ذنبك! أنت من أغلق الباب وأجبرني على فعل ذلك"

"ألم يكن واضحاً أنّي لا أريد أحداً؟ أم أنّك عمياء لذلك الحد؟"

أسندت ذقنها على كفيها في حركة ظريفة وهي مبتسمة: "لا أستطيع الابتعاد عنك، فأنت مثل بطاريتي واحتجتُ إلى إعادة شحن"

حدّق بها لبرهةٍ طويلة، قبل أن يقول: "هل من المفترض أن يكون هذا غزلاً؟ لو كان كذلك فهو سيئ ولن ينقذك"

تنهدت: "قلت إنّي آسفة"

"أسفك لن يجلب لي ساعة جديدة روبي"

تصنعت الظرافة مجدداً: "لا تقلق، سأكون ساعتك الجديدة. لدي ميزات كثيرة وباهرة"

تأمّل عينيها وابتسامتها قبل أن يتنهد مغمضاً عينيه ويسند رأسه على كتفها مستسلمًا، لتحبس روبي المتفاجئة أنفاسها لوهلة، وتضطرب معدتها وهي تشعر بأنفاسه الحارّة، كما شعرت بالقلق أيضاً، وقفز عقلها بين العديد من الأفكار المقلقة

كان مارسيل يعاني في تلك اللحظة، حيث باغته كلّ كابوس رأى فيه روبي وهي تُعذّب وتُحتضر. عدّة صور لن يستطيع نسيانها، تبدو حقيقية ومسموعة لدرجةٍ تجعله لا يصدّق أنّها تقف بخير أمامه

همست بحذر: "مارسيل...؟"

قال بصوتٍ خافت دون أن يرفع رأسه: "روبي..."

"أجل؟"

"لماذا أنتِ هكذا؟"

"ما الذي.. تعنيه؟"

قال كلماته التّالية بالإيطالية حتّى لا تفهمه، ولم تكن كلمات موجّهة إليها فقط، بل بدت كاعتراف لنفسه... اعتراف يخشى أن ينطقه بصوتٍ عالٍ!

"sei il mio tormento... e mi farai perdere la testa"

سحبت روبي نفساً بتوتر، ثم قالت: "كان ذلك مثيراً وغريباً. هل هذه أغنية أم شعر؟ ماذا قلت؟"

رفع رأسه ونظر إلى عينيها، ثمّ أجاب بغموض: "سرّ"

... فمها لتحتجّ لولا أن فُتِح باب المصعد وعبر رجل وامرأته للداخل، فاختبأت روبي خلفه، لكنّ ذلك لم يمنعهما من استراق نظرة مستغربة

إليها

همست خلف أذنه: "كيف يمكنني أنّ أخبرهما أنّي أمشي خلال نومي بالإيطالية؟ هل هما من هنا أصلاً؟ يبدوان فرنسيين"

التقت عيناها مع المرأة التي قالت بابتسامة مجاملة: "نحن نفهم الإنجليزية جيداً ولا داعي للتبرير. أمورٌ كهذه تحدث"

احمرّت وجنتا روبي لحرجها، وانتظر مارسيل خروج الزوجين حتى يلتفت إليها، فتذمّرت: "لا تنظر إلي هكذا، فأنا محرجة بما فيه الكفاية"

"أنت من تضعين نفسك في واقف كهذه"

"اخرس!" تمتمت بانزعاج

التفت للأمام وضغط زر طابقهما قبل

إليها

همست خلف أذنه: "كيف يمكنني أنّ أخبرهما أنّي أمشي خلال نومي بالإيطالية؟ هل هما من هنا أصلاً؟ يبدوان فرنسيين"

التقت عيناها مع المرأة التي قالت بابتسامة مجاملة: "نحن نفهم الإنجليزية جيداً ولا داعي للتبرير. أمورُ كهذه تحدث"

احمرّت وجنتا روبي لحرجها، وانتظر مارسيل خروج الزوجين حتى يلتفت إليها، فتذمّرت: "لا تنظر إلي هكذا، فأنا محرجة بما فيه الكفاية"

"أنت من تضعين نفسك في واقف كهذه"

"اخرس!" تمتمت بانزعاج

التفت للأمام وضغط زر طابقهما قبل

أن يلتزم الصمت الثقيل، وخلفه روبي التي لم يستطع أن يخرج صورتها المحترقة من رأسه حتى تقدمت وعانقته من الخلف بلطف، مسندةً رأسها عليه، لتخبره بطريقتها: "لا بأس، لا تخف، سأحميك، أنا معك، أنا أسندك...أنا هنا"

لكنّ تلك الكلمات الصامتة لم تصل إلى مارسيل الذي لا يزال جسده مشدوداً مثل أنفاسه، وكأنّه لا يستطيع أن يسترخي ويسند نفسه عليها وحتى على أي أحد

غادرا المصعد، وحينها نظر إليها وسأل: "ما سبب العناق المفاجئ؟"

ابتسامة مرهقة قليلًا: "إعادة شحن! كما أني لا أحتاج إلى سبب لأعانقك، وبالمناسبة هناك فوائد للعناق فابحث عنها يا سيّد صحي"

لم يقل شيئاً وفتح الباب، لتسرع روبي إلى الفراش وتغطي نفسها جيداً بالغطاء الدافئ، ثمّ تثاءبت بصوتٍ عالٍ وكأنّها تغني لتفرّ ضحكة خافتة من مارسيل

"أرغب بالنوم بشدة" فتحت عينيها ونظرت إليه: "ألن تنام؟"

جلس على الأريكة مجيبًا: "سأقرأ قليلاً. اخلدي للنّوم أوّلاً، فأنتِ تحتاجين إلى ساعات طويلة... كوالا"

"قطة!" أضافت بصوتٍ نعس: "تعال واقرأ بجانبي. لن أنزعج."

"أنا مرتاح هنا..."

ـ بإحباط بعد لحظة صمت قصيرة: "حسناً.. كما تشاء"

ومرّة أخرى حاولت روبي البقاء

مستيقظة، ولكن عينيها لم تستطيعا الصمود طويلاً وغطّت في سبات عميق في غضون دقائق قليلة استغلها مارسيل في قراءة فوائد العناق عبر الإنترنت، ولو رأته لكانت انفجرت من الضحك...

عاد إلى الفراش بعد البحث والقراءة، واضطجع على جانبه ليتأمّل وجهها المنكمش مع الوسادة للحظات، ثمّ رفع يده؛ يريد لمس وجهها، الشعور بدفء وجنتها في كفّه، ولكنّه تردد وتخبطت أفكارٌ عديدة داخل رأسه ومنها... قتلها!

***

استيقظت روبي وهي تشعر بالتّعب، نظرت إلى الشمس عبر النافذة، ثمّ إلى الساعة ومارسيل الذي يجهّز بدلته وأسلحته، لتدرك أنّ الوقت يداهمها

حقّاً:

"لقد نمت كثيراً"

ردّ بتهكّم: "ألم أقل إنّك كوالا؟"

تثاءبت وهي تفرك عينيها، ثمّ قالت: "لماذا لم توقظني؟"

زيّف اللامبالاة قائلاً: "بدوتِ متعبة"

ابتسمت بخجل قليلاً قبل أن تنهض وتسرع لأخذ حمّام وتحضير نفسها لحفلة ميلاد ماتيو. قامت بتصفيف شعرها ووضع مساحيق التجميل كما علمتها سكارليت، لكنّها كانت تتأوه وتتذمر كثيراً بسبب قلم تحديد العين ويدها المرتعشة التي تفسد الرّسم، فخرجت إلى مارسيل الذي انتهى قبلها ووقف يضبط ساعة يده بعناية

فتحت فمها بانبهار: "تبدو وسيماً جدّاً لدرجة أنّ قلبي يخفق بسرعة"

مرّر عينيه عليها ببطء، وتأمل تفاصيل الثوب الذي يحتضن جسدها بشكل مثالي، ثمّ قال بنبرة جافّة: "ألم تنتهِي بعد؟"

تنهدت بتعب وكأنّها تحمل همًّا ثقيلاً، ثمّ اقتربت منه وقالت: "هذا ليس يوم محدّد العين! أنا جائعة ويدي ترتعش لذا سأستلقي وأنت سترسمه"

رفع حاجباً باستنكار، يحدّق وينتظرها أن تعلن أنّها تمزح، لكنّها كانت جادّة، فقال: "كلي إذاً وحسب"

"لن يحتمل الثوب وليمتين في اليوم ذاته!" سحبت يده: "هيّا الآن"

ا ..، على الأريكة وعدلت جسدها مسندةً رأسها للخلف بعد أن أرته صورة، وأشارت إلى حدود عينيها. حمل مارسيل القلم متنهداً بضجر

ثقيل، ثمّ جلس إلى جوارها وثبّت وجهها بيده الحرّة كما لو كان جرّاحاً يستعدّ لعملية دقيقة ومعقّدة:

"إياكِ أن تتحركي. لو أفسدتِ الأمر فلن أكرّره مجدداً"

ردت بنبرة مشاكسة: "حاضر سيدي!"

تذمّر بصوتٍ منخفض: "لا أصدّق أنّك تجبرينني على فعل هذا"

"أنت رجل المهمات الصعبة يا ماغسيل"

ردّ ببرود: "كم مرة أخبرتك ألا تناديني بهذا الاسم؟ سأقوم برسم علامة x على جبهتك كنقطة لرصاصة"

وقعت عيناه على ندبتها التي أخفتها بمساحيق التجميل جيّدًا، ثمّ نظر إلى وجهها بعد أن فرّت ضحكة خفيفة منها، وقالت: "لقد تذكرتُ أيامنا في

الغواصة. المذيع الفرنسي والبطارية!"

تأمّل وجهها بابتسامة صغيرة وهو يتذكّر أيضاً، ثمّ نهض معلناً انتهاء العملية لتفتح روبي عينيها وتبتسم له قبل أن تنهض للمرآة وتشهق بدهشة:

"يجب أن تكون خبير تجميل، إنّهما مثاليان!"

تنهد بتململ: "أسرعي..."

همّت بالعودة إلى مرآة دورة المياه، لكنّ عينيها وقعتا على الأخبار في التّلفاز، حيث رأت أحد المعالم السياحية المشهورة وعلمت أنّه في روسيا على الفور، لكنّها مع ذلك سألت بصوتٍ مسموع محمّل بالأفكار والتساؤلات: "هذه روسيا... صحيح؟"

"أجل، العاصمة موسكو"

"فهمت..."

تابعت المشاهدة بينما هو يراقبها جيداً، يعرف جزءاً مما يجول في رأسها؛ فقد أخبرته بالحديث الذي دار بينها وبين جاريد عن والدتها، لذا وجد نفسه يسأل: "هل تريدين الذهاب إلى روسيا؟ يمكننا ذلك لو أردتِ"

تنهدت تنهيدة محبطة، ثمّ قالت: "لا أظنّ أنّي مستعدّة لمواجهة هذا الجزء من حياتي، ولا أظنّ أنّي أرغب بذلك حتّى... ولكن شكراً على اهتمامك"

***

وبعد ساعة أخرى قضتها روبي داخل دورة المياه الكبيرة، خرجت أخيراً وهي تضع أقراط أذنها وتراقب انعكاسها في المرآة الطويلة لجناحهما، عينا مارسيل تتفحصان كلّ إنش منها وكأنّها لوحة نادرة

"حسناً" التفتت إليه وابتسمت بتوتر: "كيف أبدو؟"

"متأخرة. لنذهب."

التقطت معطفها الراقي بانزعاج: "هل ستموت لو أخبرتني برأيك؟ لقد بذلت جهدًا في تحضير نفسي!" استندت على جدار المصعد ولمست معدتها بعد أن ضغط زرّ الطّابق الرئيس، ثمّ تذمرت: "أنا جائعة جدّاً ولدي رغبة شديدة في تناول الشوكولا بالتوت فجأةً" نظرت للمرآة ومسحت على فستانها قائلةً: "هل تظن أنّه فاضح؟ ماذا عن فتحة السّاق؟ هل هي مكشوفة جدّاً يا ترى؟"

"توقفي عن التذمّر. تبدين رائعة. اللون يناسبك."

التفتت روبي المتفاجئة إليه، لكنه لم

يكن ينظر إليها بل إلى باب المصعد فقط، يغلق كلّ سبيل للمواجهة، فسألت بفضول وخجل: "هل أطريتَني لتوّك؟ انظر إلى وجهي" نظر إليها بكل هدوء، لتبتسم وتقول: "هل وجهي أحمر؟ لأنّك أخجلتني"

ردّ ببرود: "لا"

لكزته بانزعاج: "وغد!"

وقفا عند مدخل الفندق، حيث انتظرتهما سيارة تنقّل مثل سيارة الغولف، لكن ذات تصميم فاخر وتكفي لشخصين. قاد بهما السائق حتى الميناء ليصعدا على متن قارب متطوّر، يأخذهما لقصر ماتيو الذي تنبعث منه أضواء الاحتفال القوية. كان صوت الموسيقى يعلو كلّما اقتربا أكثر، كما كان هناك عددٌ كبير من القوارب واليخوت مختلفة الشكل والحجم

عندما توقف قاربهما، بضيوف يرتدون أغلى الثياب التي أضفت المزيد لحضورهم الطاّغي

أحكمت قبضتها على ذراع مارسيل وهمست: "أنا خائفة من أن يحدث لنا شيء فجأة"

"إنّه مجرد حفل"

أخذت نفساً عميقاً لتهدأ: "أنت محق! مررنا بالكثير معاً وأنا مطمئنة لأنّك معي، ستحميني لو حدث شيء"

ابتسم ابتسامة صغيرة أخافتها: "لا أذكر أنّي قلت ذلك"

همست بارتباك: "هذا ليس وقت تلاعبك..."

كانت الحفلة تقام في الهواء الطلق، وكان هناك عددٌ كبير من المدعوين الذين يتم خدمتهم بينما يتحدثون مع

بعضهم، أو يتمايلون في ساحة مخصصة للرقص على أنغام ليست بصاخبة أو جنونية وإنّما كلاسيكية، أشعرت روبي أنّها قفزت إلى أحد أفلام المافيا القديمة، كما كان هناك طاولات دائرية موزعة للضيوف، يدخنون حولها ويقامرون على العلن كما بدا لها

قفز قلبها عندما هتف ماتيو باسمها واسم سييل، فابتسمت له بتكلّف ريثما ينتهي من تفحّصها بنظراته المزعجة، ثمّ قالت بحماس مصطنع عندما أطال التَّحدِيق: "ميلاد سعيد!"

ابتسم ماتِيو ابتسامة حملت الكثير من النّوايا، ثمّ قال: "شكراً. سعيد أنّكِ تمكنت من المجيء." نظر إلى مارسيل وأضاف بنبرة مرحة لم تحمل مجالاً للرفض: "سأسرقها قليلاً"

أمسك يدها وشدّها بحزم، فحاولت

مقاومته بارتباك: "لقد وصلت للتو"

ابتسم بمكر: "ممتاز"

"و.. مارسيل–" نظرت إلى رفيقها بنظرات استنجاد

"لن يمانع بالطبع. هيا فلترقصي معي!"

سحبها لساحة الرّقص قسرًا، بينما عيناها ما تزالان تستنجدان بمارسيل الذي حاول ألّا يضحك على الملامح التي رسمتها على وجهها... ومع ذلك، لم يستطع أن يمنع شعور القلق وهو يشاهدها تغوص وسط الحضور الذين يعرفهم جيدًا، بين ذراعي ماتيو الذي جذبها إليه من خصرها، ثمّ بسط يدها على كتفه قبل أن يمسك بيدها الأخرى ويحركها لتتمايل معه ببطء

"كيف تجدين الحفل؟"

ردّت بعبوس طفيف: "وصلت لتوّي"

ضحك قليلاً: "صحيح اعذريني"

نظرت حولها لتلهي نفسها عنه، ثمّ قالت مجاملةً: "لديك قصر جميل"

قال بابتسامة مغوِية: "سآخذك في جولة فهو أكثر إبهاراً من الدّاخل، وخاصةً غرفتي"

ردّت بابتسامة متكلّفة: "أرفض الجولة، وخاصةً الجزء المتعلّق بغرفتك"

جعلها تدور برشاقة، ثمّ جذبها إليه بقوّة فأشاحت بوجهها جانباً بانزعاج واضح في ابتسامتها المشدودة، قبل أن تبتعد عنه قليلاً وتخلق مساحة

"يجب أن أعترف أنّك تبدين فاتنة في هدا الثوب. لا أستطيع أن أبعد عينيّ عنكِ"

ردت ببرود حذر: "واضح.."

ضحك ماتيو بصوتٍ عالٍ، مستمتعًا بجرأتها، ثمّ سأل: "هل تزعجك نظراتي؟"

"هل وجهي يقول عكس ذلك؟"

ابتسم بثقة: "وجهك يقول إنّك ترغبين في أن أستمرّ وأريك إلى أيّ مدًى أحببت إطلالتك الليلة"

فتحت فمها باشمئزاز: "يا إلهي أنت..."

قاطعها بعبث: "ساحر؟ وسيم؟ مثير؟"

أجابت بابتسامة باردة ملؤها الازدراء: "متحرّش، منحرف، متغطرس"

ضحك مجدداً وكأنّه يستفزّها، ثمّ قال: "أنا لا أروق لكِ حقّاً. هل هذا بسبب 00ك وما فعلناه به؟ كنّا نطبّق القانون فقط يا عزيزتي. ولعلمك، رغبت أن يعفيه أبي من العقوبة ويضمّه إلينا. كما أنّه لا يبدو غاضباً، صحيح؟"

حركها لترى مارسيل يتحدّث إلى رجل عجوز بدا فاحش الثّراء، ذا منصبٍ رفيع وحضور طاغٍ تفوق على كلّ الحاضرين

"ذلك أبي بالمناسبة"

نظرت بصدمة: "والدك؟"

ابتسم بفخر: "الزعيم الكبير بشحمه ولحمه" قام بلفّها وجذبها إليه مجدداً. شعرت بالدّوار للحظة، فضحك ضحكة قصيرة قبل أن يحدّق بها ويباغتها بسؤال: "هل سمعت بالشائعات التي تدور عنكِ؟"

سيطرت على رجفة قلبها، وردّت بلا مبالاة مزيفة: "أنّي قتلت جاريد إيڤان؟ نعم سمعت بها"

قال بجدّية مريبة: "وما ردّك على هذه الشائعات؟ لا تزال الحقيقة مبهمة ولا

أحد يعلم ما جرى حقًّا. أخبريني... سوف أحفظ السرّ"

رفعت ذقنها بغرور: "ما الذي تريد تصديقه؟"

ابتسم بلهفة: "أنّك قتلته"

هزّت كتفها بلا اكتراث: "حسناً، لقد قتلته لو كان هذا ما تريد سماعه وتصديقه"

"أنت رائعة وستعجبين أبي كثيراً." سحبها معه: "تعالي، سوف أقدمّك إليه"

"مهلاً—"

سحب ذراعها وعقدها بذراعه متجاهلاً احتجاجها: "لا تقلقي فهو أليف ولا يعضّ... عكسي"

ازدردت بتوتّر وحافظت على هدوئها

قدر المستطاع، تبادلت نظراتٍ سريعة مع مارسيل الذي كان يقف بثبات، وملامح يخفي خلفها ما يفكّر فيه، ومن ضمن تلك الأفكار يد ماتِيو التي تحتضن يدها بتملّك...

"عذراً على المقاطعة يا أبي، ولكن أودّ أن أعرّفك على روبي سميث"

نظرت إلى مورينو الذي تفحّص وجهها ودرسها بطريقةٍ جعلتها تتوتّر أكثر، ثمّ أومأ إيماءة طفيفة وكأنّه يسمح لها بعبور بوابة خفية، أو يعطيها علامة مقبول

"أنتِ روبي سميث إذاً... تشرفت بلقائك"

مدّ يده وأخذ بيدها ليقبلها برسمية وأدب، فابتسمت بنعومة وقالت: "الشرف لي"

سألها ببرود مهذّب: "كيف تجدين الحفل؟"

"إنّه رائع"

أومأ برأسه فقط، ثمّ التفت لابنه وقال بنبرة جادّة لا تحتمل النّقاش: "أحتاجك في شيء"

ودّع ماتيو روبي بقبلة على الخدّ وغمزة قبل أن يلحق بوالده، فزفرت أنفاسها بعد همٍّ ثقيل انزاح عنها، ثمّ التقطت كأس الشراب من يد مارسيل وتجرّعته دفعة واحدة وكأنّها تبتلع توترها معه

"هل تصدّق ما حدث للتو؟ لقد قتل زعيم المافيا يدي! لقد خفت ولكن شعرت... بالإطراء أيضًا. أظن أنّي أفكر بجنون الآن"

"هذا ليس جديداً"

رمقته بنظرة منزعجة قبل أن تقول بعد أخذ نفسٍ آخر: "ظننته سيكون مخيفاً، ولكن لا أعتقد أنّ أحداً سوف يتغلّب على والدك"

شعرت بتوتّر الجوّ عندما أشاح مارسيل بنظره للأمام، ولاحظت أنّه منزعج. أرادت قول شيء لكنّها فضّلت ألا تفعل ذلك في آخر لحظة، فلا المكان ولا الزّمان مناسبان حاليّاً، ثمّ صدح صوت الموسيقى في الأرجاء وأتت فرقة استعراضية لتقدّم عرضاً راقصاً وبهلوانيّاً على شرف ماتيو، فأخذت تراقب الراقصين وهي تتناول بعض المقبلات

"لا أعلم ما هو هذا الشيء ولكنه لذيذ جدّاً" التفتت إلى مارسيل لتراه صامتاً وغارقاً في مراقبة العرض، لكنّها تعلم أنّه يسمعها لذا مدّت يدها: "افتح فمك

وتذوقه"

أشاح بوجهه قليلاً وأجاب ببرود يخفي خلفه استياءه: "لا رغبة لي"

"إنّها لذيذة حقّاً"

"قلت لا رغبة لي"

انكسرت ابتسامتها وتلاشت تدريجيّاً. سحبت يدها ببطء متظاهرة بعدم الاكتراث؛ تحاول تجاهل ما حدث رغم الوخز الذي تشعر به في قلبها، وكأنه يحاول أن يخبرها بشيء... أو يحذّرها!

"ستكون من نصيبي إذاً وأنت الخاسر يا ماغسيل"

وضعتها في فمها ومضغتها، لكنّها لم تستطع ابتلاعها بسهولة بسببه. كان يراقبها بطرف عينه ويشعر بالاستياء هو الآخر، ولكنّ تلك المشاعر المتضادة تعصف به مجدداً... مشاعر كونه 005

والشخص الذي تريده أن يكونه من أجلها

سقطت عيناها على إحدى الضيفات بعد لحظات من التّأمّل. امرأة نحيلة ترتدي مثل ثوبها بالضبط، ولم تكن تمانع ذلك أو تهتمّ على عكس المرأة التي رمقتها بحنق، فنقلت روبي نظراتها حينها إلى رفيقها الذي كان يحدّق بهما وبمارسيل خاصةً. كان رجلاً يانعاً وطويلاً، بشعر ناعم قصير، يتموّج باللونين البنّي والأشقر، عينان خضراوان داكنتان جدّاً، قمحي البشرة، ذو ملامح رجولية حادّة

اقشعرّ جسدها ونقلت نظراتها منه عندما شعرت بلمسة يد ماتيو على خصرها، نظرت إليه بابتسامة متكلفة مجدداً وقالت: "ما الأمر؟"

"هل ترغبين بلعب البوكر معنا؟"

نظرت إلى حيث الطاولات وأجابت: "لا بأس ولكن... أنتم تقامرون بنقود حقيقية"

وضع ماتيو يده على كتف مارسيل وقال بابتسامة متحمسة: "سوف يشاركك سِيِل ماله بالطبع بما أنّه شريكك في الأمسية ومحظور من اللعب"

نظرت بينهما بحيرة: "ماذا تعني بمحظور؟"

"يُمنَع عباقرة الرياضيات من اللعب. لقد استحوذ على كل أموالنا بطرق ماكرة من قبل، وربّما تكون هذه فرصتنا للانتقام"

"أوه... هكذا إذاً"

"سأكون بالانتظار عند الطاولة رقم واحد، فلا تتأخّري"

ابتعد عنهما ماتيو متوجهاً إلى حيث الطاولات الخاصّة، ثمّ قطع مارسيل تركيزها قائلاً: "أخبريه أنّك لا ترغبين باللعب"

نظرت باستغراب: "لماذا؟"

"منذ متى وأنت تلعبين البوكر أو تقامرين؟"

"لقد علمني أبي عندما كنتُ صغيرة. كان يقامر في كثيرٍ من الأحيان ويدعوني إلى العشاء في مطعم فاخر. أودّ أن أجرب وألعب" أضافت بابتسامة ساخرة: "هل تخشى أنّي سأدفعك للإفلاس؟ إن كان كذلك فلا تقلق. لن أجازف بمبالغ كبيرة"

ردّ ببرود: "تُعرَف المقامرة بكونها ترفع المرء إلى القمة ثمّ تهوي به للحضيض، وهذا ما ستفعلينه بأموالي"

ضحكت بسخرية: "كم أرغب بشدة أن ألعب الآن وأخسر لأرى وجهك فقط" لمست ذراعه ومشت قائلةً: "سألعب قليلاً، ولو خرجت الأمور عن السيطرة فأوقفني وأعدك بالانسحاب"

توجها إلى الطاولة التي يترأسها ماتيو الذي تجلس بجانبه امرأة حسناء، تغازله وتمسك له سيجارته، كما كان هناك رجلان آخران أيضًا أحدهما يتغزّل بزوجته الجميلة، بينما الآخر ينتظر بدء اللعبة. جلست روبي بجوار مارسيل إلى الطاولة وعاينت اللاعبين، ثمّ نظرت إلى الطاولات حولها ورأت المرأة التي ترتدي مثل فستانها ترمقها بنظرات ممتعضة مجدداً

همست لمارسيل بسخرية: "تلك المرأة منزعجة بسبب الثوب حقًّا، والذي معها يراقبنا بغرابة"

لم يتكلّف عناء النظر نحوهما وهمس: "تجاهليهما"

قاطعهما ماتيو وهو ينفث الدخان: "لن تتهامسي معه يا روبي. سوف نعتبر ذلك غشّاً" ابتسم بتلاعب: "بعد التفكير... سييل، غير مقعدك رجاءً"

رفعت ذقنها: "لن أغش يا صاحب الميلاد"

"هذه لعبة جادة... سيجلس بعيداً عنك قليلاً"

***

فرقعت روبي أصابعها وزفرت نفساً عميقاً استعداداً للعبة المثيرة، متجاهلةً نظرات ماتيو وابتساماته الغزلية. وقف موزع الأوراق مكانه وأخذ يخلط الأوراق بين يديه بخفّة، يشرح بعض القواعد ويسرد المحظورات، ثمّ قام

بتوزيع الورق على المشاركين وتفقدت روبي أوراقها ليصبح وجهها شاحباً!

نظرت إلى مارسيل وخافت عندما رمقها بنظرة ثلجية وتحذيرية، ولكنها سرعان ما عاودت التركيز وبدأت تراقب اللعب واللاعبين الذين وضعوا رهانهم، واستمرّت الجولة بسلاسة للجميع عداها كما هو واضح حتى فاز ماتيو بالجولة الأولى:

"شكراً وأعتذر إليكم، خاصةً أنتِ يا عزيزتي روبي... هل تودين المتابعة؟"

أخذت نفساً عميقاً: "أجل. سأتابع"

ضحك ماتيو ونظر إلى مارسيل قائلاً: "هذا سيكون ممتعاً جدّاً يا سييل!"

ابتسمت روبي ابتسامة خفية وهمست: "بالطبع سيكون التلاعب بكم ممتعاً"

ابتدأت الجولة الثانية، وأخذ كلٌّ من

ماتيو واللاعبين الآخرين يراهنون بمبالغ كبيرة لتضطر روبي إلى مجاراتهم حتّى حان وقت كشف الأوراق. أظهرت الوجه الشاحب مجدداً قبل أن تزايد وتجعلهم يضحكون ثمّ تفاجئهم وتفوز بالجولة، فنقر ماتيو على الطاولة وهو يضحك بعدم تصديق، ثمّ طالب بجولة ثالثة لتفوز روبي وتصدمهم مجدداً، مما دفع مارسيل إلى الميل نحوها وأمرِها بالانسحاب بعد هذه الجولة، لأنّ الوضع سيكون خطيراً...

"أزيد أربعة آلاف"

"أقبل وأرفع الرّهان إلى سبعة"

"أقبل وأرفع إلى... عشرة" نظر ماتيو إلى روبي: "ماذا عنك يا عزيزتي؟"

ابتسمت وراهنت بكلّ أموالها لتجعلهم

يتوترون، فلا بدّ أن أوراقها رابحة ولا ندّ لها. لم يكشف الرّجلان أوراقهما وقررا الانسحاب، بينما تابع ماتيو وكشف أوراقه بابتسامة مشدودة:

"خمس أوراق متسلسلة"

قال أحدهم: "لقد تمكّن منها"

"يبدو أنّي تمكنت منكِ بالفعل يا روبي!"

هزّت رأسها بإحباط مزيف قبل أن تكشف أوراقها وتقول بوجه بريء: "لا أظنّ ذلك... أوراق ملكية"

اضمحلت ابتسامة ماتيو وشتم بلغته الأم قبل أن يلقي بالأوراق ويستند على المقعد جيداً، محملقاً بها وهي تجمع كلّ أموالهم بابتسامة منتصرة، وكأنّها كانت تتوقع هذا الفوز السّاحق

علّمتها شيئاً؟"

"لا"

نظر إلى روبي وقال بنظرات ملؤها الشك: "تلعبين كالمحترفين يا سميث"

رفعت يديها: "لقد علّمني أبي، وكان بارعاً. أخبرني أنّ العنصر الأهم في اللعبة هو التحايل وهذا ما فعلته"

***

رحلت مع مارسيل دون الالتفات إلى ماتيو المنزعج أو أيّ أحدٍ آخر، ثمّ انتظرت حتّى ابتعدا لتقول: "لا أصدّق أنّي فزت بـ 67 ألف يورو. لا بدّ أنّ أبي فخور بي!" همست له: "غششت على طريقته أيضاً"

توقف مارسيل ونظر حوله بسرعة، ثمّ مال إليها وهمس بجمود: "لا تذكري هذا أمام أحد وإلّا تسبّبتِ بمشكلة

كبيرة وحمام دم يترأسّه ذلك المختلّ ماتيو"

أجفلت بصدمة، ثمّ همست: "حاضر"

التفت دون قول كلمة أخرى، لكنّ روبي لاحظت أنّه مستاء، ولم تصمت هذه المرّة بل سألت: "هل أنت غاضب لأنّي شاركت باللعب؟"

أجاب بتحفّظ دون النظر إليها: "لا"

تركت الجدال وراقبت ساحة الرقص وبعض الضيوف الذين عاينوها بنظراتهم أيضاً، ثمّ نظرت إلى مارسيل الذي كان صامتاً بشكل موحش، يراقب الفراغ فقط حتّى انطلقت الألعاب النارية في السماء مع صوت الموسيقى [illegible]حبة وعرضٍ آخر قُدِّمَت فيه كعكة عملاقة بستة أدوار لماتيو الذي كان يلفّ ذراعه حول فتاة أخرى ويحتفل.

نفث على الشموع وشكر الجميع قبل أن يرقص بينهم بصخب كما لو كان في ملهىً ليلي، فابتسمت روبي لا شعوريّاً وهي ترى سعادته، حتى رغم الخسارة التي خسرها للتو

ثمّ هدأت الموسيقى مجدداً، فتمايلت على أنغامها الناعمة وخطرت ببالها فكرة قد تكسر الجليد بينهما، قد تغير مزاجه قليلًا وتدعه ينسى التفكير بالأمر الذي يشغل باله أيًّا كان

"لنرقص"

"لا أرغب بالرّقص"

"قليلاً فقط... هيّا"

ابتسمت بحماسة وسحبته فتبعها رغماً عنه، ثمّ رقصت معه بحذر وراقبت خطواتها في البداية حتّى وازنتها جيداً كي لا تطأ على قدمه وتفسد الرّقصة.

انسجمت مع الأغنية وكلماتها التي جعلت مشاعرها تفيض وتتوق لمن يحتويها بلطف. استرقت النظرات للأزواج المنسجمين حولهما، ثمّ نظرت إلى شريكها بشيءٍ من الأمل واللهفة، لكنّ شعور الوخز قد عاد مجددًا ليوجِع قلبها...

غرقت في بحر أفكارها وهي تنظر إليه، تباطأت خطواتها واستطاعت أن تنطق أخيراً بصوتٍ حمل خيبة الأمل: "لنتوقف.."

نظر إليها أخيراً: "ولكنّ الأغنية لم تنتهِ بعد"

توقفت روبي عن الحركة تماماً، ثمّ ... "لا يهمّ... فأنت لا ترغب بالرّقص معي، بل تكره ذلك"

سأل بنبرة هادئة: "وكيف توصلتِ لهذا

الاستنتاج؟"

أجابت بصوتٍ منخفض ونظراتها تحمل العتَب: "لم تنظر إليّ ولا مرة واحدة..."

"لا تفسري كما يحلو لكِ"

زاد ردّه من ألمها، فرفعت يدها لتنهي النقاش وتمنع أي شجار محتمل، ثمّ قالت: "لقد رأيت النادل يحمل مشروباً منعشاً وأشعر برغبة في شربه، لذا سأبحث عنه... المعذرة"

تركت روبي ساحة الرقص بخطوات ثقيلة، ثم التقطت المشروب الذي قصدته واتجهت إلى الداخل كي تبتعد عن الجموع والصخب. كان بهو القصر يحاً، تتوسطه ثريا كريستالية تتدلى من سقف مرتفع، ودرج عريض يمتدّ لثلاثة طوابق تحوي العديد من الغرف

والممرات، وكانت جدرانه تجمع بين الفخامة الكلاسيكية واللمسة العصرية، تزينها لوحات متنوعة وجميلة لم تفهم مغزاها كلها، لكنّها اقتربت من إحداها وقرأت اسم الرّسام... ڤان

بدا الاسم مألوفاً لها، لكنّها لم تستطع أن تتذكّر أنّها حضرت مزاداً للوحاته ذات مرّة مع مارسيل في متحف فرانسيسكو. تنهدت وهي محبطة، تفكّر بحياتها وبمارسيل الذي ينهش قلبها بصمته وعاداته، يربكها ويؤرقها حين يفترض به أن يمنحها الطمأنينة، حين يفترض أن يساعدها كي يحققا الهدف المراد من بقائهما معاً...

وبينما كانت شاردة الذهن، اقتربت منها سراة التي ترتدي مثل ثوبها الأصفر بخطوات متكبّرة، وقالت: "كنت أبحث عنك"

عقدت روبي حاجبيها في استغراب: "كيف أستطيع مساعدتك؟"

ردت بازدراء: "أفضّل الموت على أن أحظى بمساعدة من أمثالك! ما أريده هو أن تغيري فستانك حالاً"

"المعذرة؟"

"يمكنكِ أخذ ثوب من إحدى الخادمات، أو غادري الحفلة فقط"

"هل فقدتِ عقلك؟ ومن أنتِ لتملي الأوامر عليّ؟ لا أملك سبباً لتغييره، وإن كان الأمر يزعجك فقومي أنتِ بالتبديل"

انتشلت المرأة الكأس من يد روبي وسكبت المشروب على ثوبها، ثمّ قالت: لديك سبب الآن لتغيري الفستان أو تغادري الحفل يا ساقطة"

رفعت روبي حاجبيها بغضب: "بماذا

نعتّني لتوّك؟"

ضحكت بتكبّر: "سمعتني جيداً" لكزتها بإصبعها في كتفها: "اغربي عن هنا حالاً"

***

وفي الخارج، كان مارسيل يقف بجانب مورينو -والد ماتيو- بعيداً عن الضيوف والآذان المتطفلة، يتحدثان عن هدف في الحفلة...

"هل تمّ الأمر؟"

ردّ مارسيل ببرود وهو يتنقّل بعينيه بين الضيوف، يرصد كل حركة ونظرة مريبة: "لقد شرب السّم. سيبدأ مفعوله خلال يومٍ أو اثنين... لن يشكّ أحد"

أومأ مورينو بارتياح ورضًا، ثم قال: "سعيدٌ أنّك عدت للعمل يا 005، لكن ما قول والدك عن هذا؟ لا أريده أن

يغضب فنحن حلفاء كما تعلم، ليس بيننا مشكلات... بعد"

"لا شأن له"

فرّت ضحكة خافتة من مورينو، ثمّ نظرا إلى بعض الجموع الذين أسرعوا إلى القصر، وجاء ماتيو لينقل له الخبر الحصري وهو يضحك، فأطبق مارسيل على أسنانه بغضب دفين وعذر نفسه متجهاً إلى الداخل، ليرى روبي تتصارع مع المرأة وسط البهو وأمام الجميع الذين تجمهروا لرؤيتهما حتّى من الطوابق العليا. لم يوقفهما أحد أو يتدخل، بل بدؤوا يراهنون على الفائزة!

هتف ماتيو بضحكة: "أراهن على المرأة ذات الشعر الدّاكن!"

"أراهن على الشقراء"

شعر مارسيل بدمائه تغلي، لكنّه وقف مثل جبل جليديّ، يراقب روبي تتبادل الضربات والشتائم مع المرأة الأخرى...:

"هل تظنين أنّك قوية؟ كنت في مدرسة عامّة وطرحت أمثالك أرضاً!"

صرخت المرأة وهي تحاول التحرّر من قبضتها: "أبعدي يديك القذرتين عن شعري!"

"لكِ ذلك!" قالتها روبي باستهزاء قبل أن تشدّ شعرها بكلّ قوّتها حتّى نتفت جزءاً منه ورفعته في الهواء: "وصلة شعرٍ مستعارة أيضاً، دليلٌ آخر يثبت أنّك قطعة بلاستيكية مزيفة يا مختلّة!"

تحمّل المرأة الإهانة وهاجمت بحقد حتّى تدحرجتا أمام هتافات الجموع، ثمّ طفح الكيل بروبي

فوجّهت ضربة قوية بمرفقها على وجهها

"كسرت أنفها!"

هتف الحضور بتفاعل مع الموقف المثير. تراجعت المرأة فدفعتها روبي عنها ونهضت تعدّل فستانها وشعرها مع التقاط أنفاسها، بينما أتى رفيق المرأة ورفعها عن الأرض بكلّ هدوء. خلع سترته ووضعها عليها قبل رحيلهما، وحينها هتف الجميع لروبي فبلغ توترها أقصاه، وأخذت تبحث عن مارسيل بعينيها كطفلة ضائعة حتّى وجدته يقف بين الجموع، يحدّق بملامح ساكنة لم تستطع قراءتها

أشار الها بنظرة أن تلحق به وسبقها بالخروج، لتعقد ذراعيها وتسلك الطريق ذاته وسط الهتاف والتصفيق الحماسيّ، وكأنها قدمت عرضًا حيًّا لا

يُنسَى...

هتف ماتيو: "هذه أفضل هدية حظيت بها يا روبي وسوف أدعوك كلّ عام!"

قهقه الجميع بصوتٍ عالٍ، وتجاهلتهم روبي التي تابعت المشي خلف مارسيل وهي مستاءة. انتشلت معطفها وسبقته إلى القارب الذي أعادهما للضفّة، ولم تنطق بكلمة مثله حتّى عادا للفندق. كان الجوّ مشحوناً بالتّوتّر، وأرادت أن تهدأ أوّلاً، لكنّها لم تستطع؛ تشعر بحرارة غريبة في جسدها تدفعها نحو الانفجار!

قالت بنبرة مشدودة: "أنا غاضبة منك!"

التفت إليها قائلاً بالنبرة ذاتها: "وأنا أيضاً" أردف بنبرة تحذيرية: "ما حدث اليوم يجب ألا يتكرّر مجدداً. مفهوم؟"

زادها أسلوبه نفورًا، فرفعت صوتها:

"أنت لا تعرف ما حدث! تلك المرأة من بدأت العراك أوّلاً وتستحقّ ما فعلته بها"

اقترب منها وقال بوجه متجهم: "وهل تظنّين أنّكِ انتصرتِ؟ لقد خسرتِ منذ اللحظة التي قبلتِ بها العراك! كان هدفها استفزازك ونجحت بذلك وبجدارة"

عقدت ذراعيها في محاولة للتمالك واستمداد القوّة، ثمّ قالت: "لم تستفزّني وحسب، بل—"

قاطعها بنبرة جافّة: "لا يهمّني ما فعلتْه"

شعرت بجملته كخنجر يجرح قلبها، [illegible] ت بثقل وقالت وهي تدّعي اللامبالاة وشفتاها ترتعشان قليلاً: "لا يهمّك بالطّبع... لست غاضباً لأنّ

إحداهنّ قامت بإهانتي وضربي أوّلاً، بل غاضب لأنّي دافعت عن نفسي وخلقت الفوضى كما تقول!"

هزّ رأسه محاولاً تمالك أعصابه، ولكن لم يستطع لأوّل مرّة منذ مدّة، لذا ارتفعت نبرة صوته وهو يقول: "ما تزالين لا تدركين حجم ما فعلتِه يا روبي. لقد أخبرتكِ عدّة مرات أن تختاري معاركك بحكمة لكنّك اشتبكتِ معها عوضاً عن الانسحاب، وجذبتِ أنظار الجميع الذين وبالمناسبة ليسوا أناساً عاديين كالذين ترينهم في الشّارع! تصرّف أرعن لا يصدر إلا من—
"

عض على شفته السفلية وأشاح بوجهه ـ نفساً عميقاً ويجبر نفسه على الهدوء والعودة إلى طبيعته، لكنّ روبي فهمت، تراجعت إلى الخلف وهي

تخفض عينيها كالمذنبة بعد أن صفعها بكلماته، احتضنت جسدها ومسحت على ذراعها ثمّ انسحبت بسرعة، وكأنها تهرب من شعور يكاد يسحقها تحت وزنه...

وبعد أن عكّر ذلك الشعور مزاجها وأثقل التفكير كاهلها، استيقظت في صباح اليوم التالي ونظرت إلى وسادة مارسيل. لم تتفاجأ عندما لم تجده بجانبها فهو يستيقظ قبلها دائماً، لكن بدا لها أنّه لم يقترب من الفراش ليلة البارحة أبدًا، وهذا جعل ملامحها تذبل أكث

نظرت إلى عربة الإفطار المغطّاة، ثمّ للشرفة التي يجلس فيها ويعمل على حاسوبه. تنهدت تنهيدة طويلة وخدمت نفسها بصمت، وحينها طرق أحدهم باب الجناح بعنفٍ فجأة!

همّت بالاقتراب وفتحه لكنّ صوته أتاها من الخلف قائلاً ببرود: "لا تفتحيه، سوف يقتحمونه على أيّ حال... رأيتهم قادمين"

استلّ مارسيل سلاحه فتراجعت واختبأت خلفه فوراً، ثمّ فتح عامل الفندق الباب على مضض، ليدخل ثلاثة رجال أولاً قبل رئيسهم... رفيق المرأة في البارحة!

5: ياقوت

ازدردت روبي بتوتّر ولمست ذراع مارسيل لتستمدّ منه الأمان. ارتعشت أنفاسها واضطربت ضربات قلبها عندما عبر الرّجل الباب ودخل إلى الجناح بخطًا واثقة وكأنّ المكان ملكه، ثمّ قال بنبرة هادئة حملت التّحذير: "أنا لا أحمل سلاحاً يا 005، لذا هلّا خفضت سلاحك؟"

"ما فعلته للتّو قلّة تهذيب. ما الذي تريده؟"

رفع الرجل يده لصدره مزيفاً الاعتذار: "[illegible]در، طرقت الباب ولم تفتح لي. أنا [illegible]ما للتحدث... مع المرأة خلفك"

حبست روبي أنفاسها لوهلة قبل أن تتشجع وتتقدّم لتقف بجوار مارسيل، ثمّ حاولت أن تجعل صوتها ثابتاً: "ما

الذي تريده؟"

"أنا هنا لردّ اعتبار رفيقتي. اتّضح أنّك كسرتِ أنفها وسنًّا كذلك"

هتفت روبي بتوتّر: "هي من بدأت!"

أمال رأسه متمعناً النظر بها: "وما دليلك؟ هل لديك شاهد؟"

حاولت أن تبدو جادّة لكنّ صوتها كان واهناً وهي تجيب: "ليس.. لدي شاهد"

"حُسِم الأمر إذاً. يجب أن تدفعي ثمن ما فعلته"

قالت بانفعال: "ما الذي تريده؟ لا نك أن تأتي وتهدّدنا هكذا! هذا درو وهو ابن الدّون فيرناندو ميندیز"

لم يرفّ للرجل جفن، ردّ بهدوء قاتل: "أعلم من يكون يا آنسة، ولا أهتمّ. آذيتِ رفيقتي ويجب أن تدفعي... أنف

بأنف وسنّ بسنّ"

انكمش وجهها باشمئزاز: "هل أنت جادّ؟"

"إن لم ترغبِي بدفع الثمن، فربما 005 يمكنه ذلك من أجلك... بهدف"

اتسعت عيناها في صدمة، بينما قال مارسيل بلا مبالاة: "ومن هو هدفك؟"

ابتسم الرّجل ابتسامة صفراء: "شخصٌ لا يمكنك أن تقتله الآن كما يبدو"

ردّ مارسيل بلا تردّد وهو يعي من يتحدّث عنه: "لا تكن واثقاً بذلك"

قفت روبي بينهما بحزم: "لا! لا يمكنك أن تطلب هذا منه، و لن أسمح لك أنْ تستغلّه هكذا، هو لن يقتل من أجل أحد"

الرّجل: "إذاً...؟"

التقطت أنفاسها ونظرت إلى مارسيل باحثةً عن أيّ تعابير تخفّف هول الموقف، لكنّه كان جامداً، يحملق بالرّجل أمامه فقط، وكأنّها غير مرئية بالنسبة إليه. شعرت بالذنب يعتصرها أكثر من السّابق، أدركت أنّها اقترفت خطأً، والآن يريدون مارسيل أن يدفع الثمن عوضاً عنها، يستغلّون الأمر برمّته ليضعوا مخالبهم عليه... ولن تسمح بذلك مهما حدث، يجب أن تصحّح ما فعلته بطريقة ما

التفتت إلى الرّجل وسألت بتردّد: "هل.. ستكسر أنفي وسنّي حقّاً؟"

ردّ بتهكّم قاسٍ: "سينقضي الأمر بسرعة ولن يؤلمك كثيراً"

تدخّل مارسيل قائلاً بنظرات حادّة: "اختر هدفاً وحسب"

"لا!" وقفت أمامه ولمست عنقه، ثمّ همست متوسّلةً: "لن أسمح لهم باستغلالك بسببي، لذا لا تتحدث معه"

أنزل يدها وهمس بصوت يحمل الضيق: "أوقفي هذا"

تعجبت روبي من أسلوبه الجافّ، وقبل أن تدرك ما يحدث قال الرّجل: "هناك طريقة أخرى لو كنتِ مهتمّة"

التفتت إليه: "وما هي؟"

"أنا مدعوٌّ لافتتاح ملهىً ليلي ضخم غداً في ميامي وأحتاج إلى مرافِقة، وبما أنّ رفيقتي لا تستطيع فيمكنكِ أن تحلّي مكانها... إمّا هذا أو أكسرك أو الهدف. اختاري"

شعرت باهتزاز الأرض تحت قدميها فجأة، وكأنّ عالمها على وشك الانهيار، لكنّها تمسكت بقوتها ووقفت بثبات، ثمّ

سألت بصوتٍ حازم: "رفيقة فقط؟ لا شيء آخر؟"

ابتسم باستخفاف: "لا شيء آخر"

ازدردت، ثمّ قالت بوجه جادّ: "حسناً... سأفعلها"

فرد ذراعه باتّجاه الباب: "من بعدك"

سألت باستنكار: "هل سنذهب الآن؟"

"تستغرق الرّحلة ساعات طويلة. بالكاد لدينا وقت."

زفرت نفساً ثقيلاً بعد أن تحرّك الرّجال. التقطت جواز السّفر بسرعة ثمّ لمست وجنة مارسيل بحنان وخوف، وقالت: "احزم أمتعتي وسأقابلك هناك غداً بعد ما أنتهي. أنا السبب في ما يحدث، ولكن كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، سأتصرّف وأحلّ الأمر، لذا لا تقلق عليّ" طوّقت ذراعيها حوله في عناق

قويّ، لكنّها بدت كما لو كانت تعانق تمثالاً حجريّاً يأبى الحركة، وهمست: "لا تسمح لأحد أن يستغلّك لأنّي لن أسمح بذلك أيضاً، لن تعود إلى قتل الأهداف مجدداً. لا تسمح لهم أن يفسدوا حياتنا الجديدة... أنت لست 005"

***

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى وجدت روبي نفسها على متن طائرة خاصّة مجهّزة بكلّ الخدمات اللازمة، ويجلس الرّجل الغريب على المقعد مقابلها، يخوضان معركة صامتة بالنظرات فقط حتى أقلعت الطائرة

قال بتهكم: "كنت أتساءل متى ستنتهي حرب النظرات التي لا أعلم سببها.."

زفرت بهدوء ثمّ قالت ببرود مصطنع: "إنها لأثبت لك أني لست خائفة أو ضعيفة" ضيقت عينيها قليلاً: "والآن... هلْ ستخبرني باسمك أم سيكون سرًّا؟"

"دييغو ريڤيرا... هل سمعتِ بي من قبل؟"

"هل يجب أن أسمع؟"

"لا" أجاب ببساطة، لكنّ نبرته أوحت بوجود المزيد!

عقدت ذراعيها لتزداد شجاعة: "هل يمكننا أن نتّفق على بعض الأمور؟ فلا يزال موضوع المرافقة هذا مبهماً نوعاً ما"

"تفضّلي بالحديث.."

"سأكون مرافقة فقط. لن تلمسني أو تتغزّل بي أمام الجميع... ((لا شيء

آخر)) كما قلتَ سابقاً"

ابتسم بسخرية: "لستِ في وضعٍ يسمح لك بسرد الشروط"

ارتعش قلبها، ولكنّها أبت أن تظهر الضّعف: "سيقتلك رفيقي لو لمستني أو ألحقت بي الأذى"

"حقّاً؟ لماذا سلّمكِ لي الآن إذاً؟"

"لم يفعل. أنا من أتيت طواعيةً. تعلّمت في عالمكم أنّه يجب أن ندفع ثمن أفعالنا، وأنتَ ترفض تصديقي وتريده أن يقتل من أجلك." تابعت: "لن أسمح له ولن أسمح لك ولأمثالك أن تستغلّوه بهذه الطريقة وبسببي، لذا ليس لدي خيار آخر سوى أن أفعل ما تريد"

راقبها وهو يشعر بالتسلية: "جسارتك مثيرة للإعجاب، وتغريني لإيذائكِ ورؤية ما قد يفعله رفيقك. أشعر بالملل

وأرغب ببعض الإثارة" رفع كتفيه مزيفاً الكسل: "ولكن ربّما في وقتٍ آخر... هناك حجرة في الخلف وبها فراش. نامي فأنتِ تبدين مرهقة"

"أنا بخير"

"سوف يكون جدولنا حافلاً، فأقترح أن تنامي يا...؟"

ردّت دون تردّد: "روبي"

"أجل... روبي سميث"

قالت بتكبر: "لست مرهقة ولكنّي سأذهب على أيّ حال، فلا أريد الجلوس معك كلّ هذا الوقت"

اتجهت إلى حيث الحجرة وسحبت الستار كي لا يراها أحد. لازمتها طوال الوقت، أكلت وشربت، ولم تستطع أن تنام إلّا بعد ساعات، وبعد أن خفتت الأضواء وهدأت الأصوات، ولم تشعر

بهبوط الطائرة وتوقفها على الإطلاق، لكنها استيقظت بفزع عندما لمستها المضيفة لتعلمها بوصولهم...

هبطت من المدرج بصحبة دييغو الذي سأل: "هل زرتِ ميامي من قبل؟"

"لا"

"لو كنتِ من هواة الصّيف والشاطئ فسوف تعجبك"

تجاهلت ما قاله وصعدت إلى السيارة، ثمّ أخذت تتأمّل المدينة وشوارعها، وكذلك الشّعب وهي تشعر بشيء من الفضول، واستمرّت الرّحلة حتّى وصلوا إلى ڤيلا كبيرة وباهرة، ذات تصميم عصري يعكس روح ميامي، تحيطها أشجار النخيل الطويلة، وتطلّ على الشاطئ والبحر الأزرق الصافي...

"هل تعيش هنا؟"

"أجل. هل أعجبك المكان؟"

هزّت كتفها بلا مبالاة مصطنعة: "لا بأس به"

"لا بدّ أنّ الزجاج يعجبك أكثر"

عقدت ذراعيها وتباهت بغرور: "صحيح، منزل رفيقي قد يكون أصغر من هذا ولكنّه فريدٌ من نوعه ولا يوجد مثله في كلّ العالم"

أومأ بفهم، ثمّ أشار لها بالدخول للڤيلا التي كانت نظيفة ومرتبّة، ذات ألوان هادئة وتحف قليلة، بلا لوحات على الجدار بل رسومات جرافيتية، ونباتات للزينة تتوزع في زوايا متناسقة

وقفت أمام نبتة صغيرة وهي تنظر إليه بعينين متسعتين: "هل هذا نبات القنّب؟"

ردّ دييغو بهدوء وكأنّ الإجابة بدَهية

وطبيعية: "أجل"

شهقت شهقة قصيرة: "هل يُسمح لك بزراعته هنا؟"

"لا. تحظر فلوريدا زراعة القنّب الهندي لذا أزرعه في مكان آخر، وهذه التي ترينها للزينة فقط واستنشاقها بشكلٍ عادي، سوف تذبل خلال بضعة أيام"

لوّحت يدها متراجعَةً للخلف كما لو كانت تبتعد عن حيوان مفترس: "مهلاً مهلاً مهلاً مهلاً... هل أنتَ تاجر مخدّرات؟"

ضحك بخفّة، ثمّ أجاب بكلّ ثقة: "لا، بل تاجر حشيش، وأفضل نوعٍ أيضاً." رمشت عدّة مرّات وهي مصدومة، ثمّ هزّت رأسها وهي تقلّب أفكاراً عديدة، فأضاف: "يبدو أنّ لديكِ أسئلة كثيرة لذا وفِّريها بعد وجبة الطعام فأنا جائع.

سأغيّر ملابسي وأحضّر شطيرة فهل تريدين واحدة؟"

"أليس لديك خادمة؟"

"لقد انتهت ساعات عملها، لذا لا يوجد سوانا... غرفتك جاهزة وهي نهاية ذلك الممرّ على اليسار"

التفت دييغو وصعد عبر الدّرج للطابق العلوي حيث غرفته كما بدا لروبي، والتي اتّجهت بدورها إلى الغرفة التي جهّزوها لها، لتجد ملابس مريحة على مقاسها وما قد تحتاج إليه من أدوات عناية شخصية أيضاً

"هذا مخيف ومريب" تمتمت لنفسها، ثمّ لمست سوارها المماثل لسوار مارسيل وحاولت أن تبثّ الاطمئنان إلى روحها

ارتدت الملابس، ثم خرجت بخطواتٍ

متردّدة حتّى رأت دييغو في المطبخ، يجهّز مكوّنات شطيرته. لقد بدا مسالماً وطبيعيّاً، يرتدي بنطالاً رياضيّاً من القطن وقميصاً داخليّاً أبيض اللون بلا أكمام، يرسم جذعه ويبرز عضلات ذراعيه والوشم الذي على كتفه... شخصية سوبر ماريو مع الأميرة خوخة!

همت بسؤاله عن الوشم والتعليق عليه، ولكنها كبحت فضولها واختارت الصمت والهدوء حتى تأكل وجبتها وتسدّ جوعها، ثمّ تنسحب إلى الغرفة مجددًا

"سأعدّ شطيرة ديك رومي مع الجبن والخضراوات. هل هناك شيءٌ لا تريدينه من المكونات؟"

نظرت إلى الطاولة، ثمّ أجابت: "لا أمانع أيّ شيء لا يحتوي على الصويا"

"حساسية؟"

"أجل"

أومأ دون قول شيء وأخذ يحضّر الشطيرتين بينما روبي تراقبه حتى تذكّرت أسئلتها المهمة وباشرت بسؤاله...:

"أخبرني، بما أنّك تاجر حشيش فهل لديك أعداء يا ترى كما في الأفلام؟"

"بالطّبع لدي أعداء"

سألت بتوتّر: "وهل سيؤذيني أولئك الأعداء؟"

ضحك بخفة: "خائفة؟"

"بل قلقة! لا أرغب بتوريط نفسي في دوّامة أخرى. يكفيني ما حصل معي حتّى الآن. لقد رأيت الموت عدة مرات"

رفع حاجباً وسأل بابتسامة فضولية: "حقّاً؟"

"أجل، لقد مررت بالانفجارات والنيران والغرق والرّعب والمافيا! آه لقد كانت الفترة السّابقة صعبة جدّاً" عادت للتحفّظ فجأة وقالت: "ليس من المفترض أن أخبرك بكلّ هذا، لذا لا تسأل من فضلك"

دفع طبق شطيرتها نحوها بهدوء قبل أن يفتح الثلاجة ويعرض عليها زجاجة عصير، ثمّ بدأ بتناول شطيرته وهو يحدّق بالشاطئ عبر النوافذ الزجاجية، ولم تشأ روبي أن تفتح فمها سوى للأكل حتّى لا تجلب لنفسها مصيبة جديدة

"ماذا كانت ردّة فعلك عندما اكتشفت حقيقة 005، وأنّه ابن فيرناندو

ميندیز؟"

عقدت حاجبيها بشكلٍ طفيف لكونه بادر بسؤالٍ كهذا، ثمّ أجابت بعفوية: "تفاجأت بالطّبع، واستغرقتُ وقتاً لأهضم الحقيقة... لماذا تسأل؟"

رفع كتفه: "لا شيء، مجرد فضول... ولدي سؤال آخر يتعلّق بجواز سفرك. إنّه مكسيكي وأنتِ لست كذلك"

"أجل. قصة طويلة" ضيّقت عينيها: "ولن أخوض معك في التفاصيل"

هزّ رأسه مستسلماً: "كما تشائين"

أنهت شطيرتها ونصف زجاجة العصير قبل أن تعذر نفسها لغرفتها، وتستلقي على الفراش لتتفقد هاتفها الذي أعادت شحنه وترى ما إن كانت هناك رسائل من مارسيل، ولكنها لم تتلقَّ أي إشعار منه بعد، لذا بادرت بإرسال رسالة

تخبره فيها أنها قد وصلت إلى ميامي، وختمت رسالتها بكلمة: ((أحبّك))

حدقت بهاتفها لمدة طويلة بعد إرسال الرّسالة، حتّى انتابها شعور حارق في صدرها ومعدتها تبعه شعور بالغثيان، فتنهدت: "كنت أعلم أنّ هذا سيحدث بعد الطيران المرهق والطعام..."

خدمت نفسها بكوبِ حليب بارد قبل العودة لغرفتها والاستلقاء مجدداً، في انتظار رسالة من مارسيل الذي لا تستطيع ألا ترهق عقلها وقلبها بالتّفكير بتصرّفاته الأخيرة، حتى غلبها التعب وغطت في نوم عميق حَلَمَت فيه أنّها في جلسة تدليك خاصّة، تحظى بكلّ الدلال والراحة، تحت عناية مدلكة ماهرة تبسمت لها قبل أن يصدر منها صوت لقلقة جعلها تستغرب وتفتح عينيها لترى منقاراً أمام وجهها!

صرخت بأعلى صوتها، وهاج الطّائر فهاجت معه وأخذت تضرب ما حولها وهي مغمضة العينين، تدور في الغرفة حتّى أتى دييغو وخلفه الخادمة ليشاهدا ما يحصل

أمسك كتفيها وأوقفها قائلاً: "اهدئي وافتحي عينيك" فتحتهما بتعجّب وتأمّلت وجهه قليلاً قبل أن تنظر للمخلوق، فأردف بهدوء: "إنّها مجرد بجعة، دخلت من النافذة بحثًا عن الطعام"

رمشت ببلادة، ثمّ هتفت: "لقد أخافتني حدّ الموت! كيف لها أن تدخل إلى غرفتي؟ هل تربي قطيعاً من البجع أيضاً يا هذا؟"

ردّ دييغو مشيراً إلى نافذتها: "لقد تركتِ نافذة الشرفة مفتوحة وهكذا دخلت"

نظرت إلى النافذة ثمّ إلى البجعة التي قادتها الخادمة خارجاً. مسحت على شعرها، ووضعت يديها على خصرها لتحافظ على ما تبقّى من كرامتها: "حسناً كان هذا... لا أرغب بالحديث!"

قالت ذلك وأسرعت إلى دورة المياه، ليتبادل دييغو النظرات مع خادمته التي سألت: "من هذه؟"

"امرأة مجنونة على ما يبدو"

***

جلست روبي مع دييغو إلى طاولة في الهواء الطلق، خارج شرفة منزله. تأمّلت رمال الشاطئ ذات اللون البني الفاتح والبحر الأزرق بأمواجه الهائجة، ورمقت طيور البجع البعيدة بانزعاج قبل أن تشيح ببصرها عنها للخادمة التي أحضرت أطباق الغداء، ووضعتها

على الطاولة بمساعدة الطاهي الخاصّ

تناولت طعامها في صمت، وكان لذيذاً وعلى ذائقتها، لكنّ عقلها ما يزال متنبّهًا لطيور البجع التي تحاول الاقتراب من طاولتهما، حتى قذف دييغو بقطع خبز صغيرة نحوها

"يبدو أنّك معتاد على البجع وهجوم الحيوانات المفاجئ"

"أجل..."

تأمّلته قليلاً: "أنت تبدو... مسالماً. لم أتوقّع ذلك. كنت مخيفاً نوعاً ما في الحفلة"

"لا تصدّقي ما ترينه بعينيك فقط"

ابتلعت اللقمة بصعوبة قبل أن ترتشف الماء، فيما نهض هو بعد أن التقَطَ حبة فاكهة، وولَج إلى الداخل لتبقى وحدها، تراقب البجع وتقوم بتصويرها، وحينها

أتى ردّ مارسيل على رسالتها وبكلمة واحدة فقط...: ((حسناً))

حملقت بشاشة الهاتف للحظات حتى تنهدت ووضعته جانبًا، وبعد مرور ساعتين تقريباً سمعت ضوضاء في بهو الڤيلا فخرجت من غرفتها ورأت فريقاً كاملاً قد أتى لتجهيزها. كان هناك عدّة فساتين وأحذية، مساحيق تجميل، حقائب ومجوهرات جعلتها تفتح فمها وهي متعجبة، ثمّ أتت نسوة وسحبنها ليبدأن بتحضيرها، وحينها قالت: "مهلاً مهلاً.. أين الرّجل؟ دييغو"

أجابت الخادمة: "يركب الأمواج"

"ماذا؟"

لم يتركوا لها مجالاً لتسأل عن شيء آخر وباشروا بتحضيرها، وكان الفريق قد نصب صالوناً متنقلاً في غضون

دقائق قليلة فقط. هناك من يعمل على شعرها وآخرون على العناية وتقليم أظافر يديها وقدميها، ورجل يمسك بوجهها ويضع المساحيق عليه

همست بسعادة: "يا له من شعور رائع، وكأنّي في رواية... أتمنى أن أصبح ثرية بشدّة"

وقعت عيناها بعد لحظات على دييغو وهو يدخل مجففاً شعره ومعه لوح التزلج على الماء. وضعه جانباً قبل أن يلقي نظرة ويسألهم عن بدلته، ثمّ صعد إلى غرفته بينما هم لا يزالون يحولون روبي إلى نسخة جديدة بعنوان... أناقة وثراء!

"لا لا لا، لن ألبس هذا الفستان. إنّه قصير جدّاً ويبدو كثوب سباحة"

"حسناً، ماذا عن هذا؟"

فتحت فمها وتذمرت: "فاضح جدّاً!"

تنهد المصمّم بتململ: "عزيزتي، هل نسيتِ أنّك ستذهبين إلى ملهًى ليلي؟"

رفعت ذقنها بغرور وتحدٍّ: "سأذهب إليه لا للعمل به... وألا يمكن للمرأة أن تكون محتشمة قليلاً؟"

اختاروا فستاناً آخر، وكان الجزء العلوي منه ضيقاً ويرسم جذعها، مرصّعًا بفصوصٍ كريستالية، مكشوف الأكمام وياقته على شكل حرف V. الجزء السفلي منه أبيض اللون، كأنّه تنورة، كلّها ريش ناعم يتحرّك معها عندما تمشي أو تتمايل

شهقت بانبهار عندما فتح المصمّم علبة مخملية سوداء وأخرج عقدًا ثمينًا ذا أحجار حمراء داكنة مثل أحمر شفاهها، يتماشى مع مظهرها الكامل ويضفي

هالة جذّابة

"أحجار ياقوت... مثل اسمي"

"يبدو رائعًا على عنقك لذا حافظي عليه" صفّق المصمم: "أنتِ جاهزة الآن"

"دعيني أرَ"

التفتت إلى دييغو الذي مرّر عينيه عليها بهدوء، ثمّ أومأ موافقاً: "تبدين جميلة يا روبي"

لم تكن نظراته تحمل الانبهار ولا جملته تحمل الغزل، بل كانت أقرب لاعتراف فقط، لكنّها كانت كفيلة بجعل قلبها يتراقص بخجل، فقالت: "شكراً"

***

توقّفت السيارة عند مدخل الملهى الليلي ذي التصميم المبهرج واللافت.

نظرت روبي إلى طابور النّاس الذين ينتظرون فرصة للدخول، وكيف يتفحّصونها بأعينهم، كما نظرت إلى العاملين في خدمة صفّ السيارات ووقفت لوهلة وهي تحدّق بهم، تتذكّر كيف كانت مكانهم يوماً ما. كانوا يتأملونها مثلما اعتادت تأمّل الأثرياء من قبل، فابتسمت بعفوية ولوّحت لهم تلويحة سريعة قبل أن تدخل وهي تشعر بعدم راحة لهذا التغيير الكبير

انبهرت عندما شاهدت المكان من الداخل. خطفت عقلها الأضواء المتحركة والراقصة، والتصميم الذي يشرق في الظلام والضوء الخافت، ساحة الرّقص الواسعة التي كانت أرضيتها تضيء بألوان متنوعة، نافورة متلألئة يضعونها للزينة وحولها حرّاس أمن كي لا يقترب أحدٌ منها، حجرات صغيرة زجاجية مكشوفة للجلوس

تتوزع في الطابق الأرضي والأوّل الذي لم ترَ ما فيه بعد، ومسرح كبير تُقام فيه العروض الحية، لكن لم يكن هناك عرضٌ يقام حاليّاً

وقفت بجوار دييغو الذي ألقى التحية على بعض الرجال، وكذلك المالك الذي يدعى رونالدو، واكتفت بالإيماءات والابتسامات لكلّ من يراها، لا أكثر ولا أقل

"أحضرت امرأة جميلة معك... مرحباً يا آنسة" قال رجل في منتصف العمر قبل أن يقبّل يدها ويطيل تقبيلها حتّى أوقفه دييغو بابتسامة متكلّفة:

"أظنّ أنّ هذا كافٍ"

خطف يدها وتحرّك إلى طاولتهما في الطّابق العلوي، حيث بإمكانهما رؤية ساحة الرّقص والمسرح كذلك. جلست

بجانبه وتمّ خدمتهما كما ينبغي، لكنّ روبي امتنعت عن شرب الكحوليات الليلة كي تبقى متيقظة ومتنبهة لكلّ شيء يحدث حولها، ثمّ وصلت مجموعة من رفاق دييغو لينضمّوا إلى الطاولة ذاتها، فنهض حينها وأشار لها أن تغيّر مكانها كي يجلس هو بين الرجال وهي في الطّرف جانبه

ضحكت رغماً عنها فمال إليها عاقداً حاجبيه: "ما الأمر؟"

"لا شيء. أنت تتصرّف كرجل نبيل وكأنّي رفيقتك الفعلية"

"ليس الأمر متعلقاً بكونك رفيقتي الفعلية أم لا. يجب على الرّجل أن لا يتجاهل المرأة التي معه عندما تتعرض لمواقف مماثلة"

زيّفت ابتسامة صغيرة وهي تشعر

بعدم الارتياح، وكأنّ كلامه نقر على وتر حساس، ثمّ استأذنت لتأخذ جولة حول المكان علّها تنسى هذا الشعور الموحش، لكنّها لم تستطع؛ تتشابك أفكارها وتتعارك بعضها مع بعض كما لو كانت في حرب، حتى اصطدم كتفها بأحدهم وتجمدت الأفكار

فتحت فمها بدهشة مثله، هتفا باسمي بعضهما بعضًا في الوقت ذاته قبل أن يضحكا ويختما اللحظة بعناق أخويّ

"يا إلهي! لا أصدّق أنّك هنا يا أندرياس"

تفحّص ما ترتديه بانبهار ثمّ قال: "أنا أيضًا! لم أميّزك بهذه الملابس. تبدين رائعة"

ابتسمت ابتسامة عريضة: "شكراً" ثمّ تابعت: "لم أرك منذ مدة طويلة، ما

الذي تفعله هنا؟"

"أنا هنا مع إيزابيل، فالمالك صديق مقرب لها. ماذا عنكِ؟ أين 005؟" هزّ رأسه: "سحقاً، أعني بيدرو أو مارسيل أو أيًّا كان اسمه"

فركت عنقها بنعومة وتوتّر: "أنا لست هنا معه"

"إنّها معي"

تبدلت ملامح أندرياس بشكل واضح، خاصة بعد أن وضع دييغو يده خلف ظهرها وكأنه يعلن ملكيته لها ورسم ابتسامة استفزّته أكثر، مما جعل روبي تشعر بالريبة والتوتر في آنٍ واحد؛ فالنظرات بينهما كانت كالشرر المتطاير، وأي كلمة قد تشعل فتيل حرب قديمة، لن تنتهي إلا بموت أحدهما!

كسرت روبي الصمت بسؤالها المتردد:

"هل.. تعرفان بعضكما بعضًا؟"

أجاب دييغو بابتسامة متكلّفة ونبرة جعلت الموقف أكثر غموضًا: "يمكنكِ قول ذلك"

نظرت روبي إلى أندرياس الذي لم يكن بحاجة إلى الرد ليوضح أن القصة بينهما أعمق مما تتخيل، وليست ودية على الإطلاق؛ فلغة جسده ونظراته القاتمة نحو دييغو كافية للقيام بذلك! ثمّ أعلن الأخير الانسحاب متظاهراً بعدم الاكتراث لهذا اللقاء، وترك المكان بعد إخبار روبي أنّه سينتظرها عند طاولتهما

اقترب أندرياس خطوة منها وعيناه تشتعلان بغضب: "ما الذّي تفعلينه معه؟"

أجابت بارتباك: "قصّة معقدة، ويجب أن أرافقه"

قال بنبرة تحذيرية: "غادري المكان ولا تعودي إليه"

"لا أستطيع، فأنا أدين له نوعاً ما ومارسيل متورط بالأمر وقصة معقدة سأخبركَ بها لاحقاً، ولكن أخبرني... هل تعرفه حقّاً؟"

"لا يهمّ، ما يهمّ هو أنّي لا أريدك بقربه"

"لا أستطيع" أضافت بنبرة جادّة: "ولست طفلة صغيرة يا أندرياس، يمكنني الاعتناء بنفسي"

أومأ ببرود: "حسناً. أراكِ لاحقاً"

تنهدت روبي باستياء لرحيله هكذا، ثمّ عادت إلى دييغو لتسأله عمّا حدث لكنّه لم يجبها بإجابات كافية ووافية، لذا جلست ترتشف القليل من مشروبها

وتستمع لثرثرة من حولها حتّى شعرت بالغربة في وسط عالمٍ لا تنتمي إليه...

تجاوزتها الأحاديث والضحكات، وكأنها لا تملك صوتًا أو رأيًا أو حتى الحقّ في التعليق. لم يزعجها ذلك كثيرًا؛ فهي تعلم أنها هنا لتكون دمية عرض بجوار دييغو لا أكثر، ولكنها لم تستطع ألا تشعر بكبريائها المجروح، لم تستطع ألا تفكر وتتساءل عن سبب وجودها هنا... لماذا؟ ومن أجل من؟ بسبب الحبّ ورجل لا يبدو أنّه يكترث لأمرها، رجل لم يرسل رسالة أو يتصل ليتفقدها

هل هذا عقابه لها يا ترى؟ هل ما اقترفته ذنب عظيم لهذه الدرجة؟ هل هو قلق أم غاضب؟ هل يجب عليها أن تسامحه وتعذره مجددًا لأنّه مختلف؟ أن تداوي جروحها وتدوس على قلبها

مجددًا عوضًا عن اتخاذ موقف صارم ضدّه؟ هل هذه الحياة التي كانت تطمح أن تعيشها معه؟ هل ستكون هكذا على الدوام؟ هل... اقترفت خطأً بعودتها إليه يا ترى؟

أفكارٌ كثيرة دارت في رأس روبي حتّى شعرت بثقل أنفاسها وغثيان مريب دفعها للنهوض والإسراع إلى دورة المياه، حيث التقطت أنفاسها المضطربة فوق المرحاض في إحدى الحجرات ظنًّا منها أنّها قد تتقيأ في أي لحظة، ولكنّها لم تفعل، لذا استمرت بأخذ شهيق وإطلاق زفير حتى هدأت وغادرت الحجرة لتغسل يديها وتتأمّل سوارها الذي أصرّت على لبسه مع الساعة الثمينة

"أرى أنّه ألبسك جيداً على الأقلّ"

تنهدت تنهيدة قصيرة عندما ميزت

صاحبة الصوت، ثمّ ردّت ببرود: "ما الذي تريدينه؟ أنا على عجالة وليس لدّي وقت لكِ"

قامت إيزابيل بإغلاق باب حجرات المياه بالقفل، مما جعل روبي تشد على حقيبتها وتستعد لمواجهة ما هو آتٍ أيًّا كان، ودون إظهار الخوف!

"ما الذي تفعلينه؟"

ردّت إيزابيل بازدراء: "بل ما الذي تفعلينه أنتِ؟ لا أصدّق أنّك ما تزالين تحومين حول مارسيل بعد الفضيحة التي تسبّبتِ بها، وما تفعلينه الآن. كيف تجرأت حتّى على افتعال مشكلة أمام آل مايورانو كالأطفال؟"

حافظت روبي على ملامح الوجه السّاكن رغم كلماتها، وقالت: "لا أظنّ أنّه من شأنك"

تابعت إيزابيل بنبرة أكثر حدّة، محاولةً تحطيم حاجزها المنيع: "ليس من شأني، ولكنّك تسببتِ بفضيحة لمارسيل أيضاً! هل تظنين أنّ أخبار ما حدث لن تنتشر؟ سوف تتمنين عكس ذلك

مارسيل ليس 005 وحسب بل بيدرو كورتيز، وسبّبتِ له الإحراج أمام الكلّ، والآن تأتين إلى افتتاح ضخم وأنتِ ترافقين دييغو ريڤيرا أمام العلن! هل أنت حمقاء أم تتعمّدين إثارة المشكلات؟ أتعرفين من هو دييغو حتّى؟"

لم تجبها روبي وتمسكت بالقناع قدر المستطاع، لكنّ إيزابيل راقبتها جيداً، لاحظت الثغرة والمحاولة المستميتة للصّمود، وضغطت أكثر...:

"إنّه ابن بيرتو ريڤيرا، الرّجل الذي

أرسل جاريد ليقتل زوجة الدّون فيرناندو وابنه، أي مارسيل! هل تدركين ما يحدث؟ تواعدين ابن الدّون والآن تظهرين مع ابن العدوّ... ما الرسالة التي تحاولين إيصالها؟ ماذا سوف تفعلين عندما يصل الخبر إلى المكسيك؟ ألم تكفِك فضيحة إيطاليا؟ هل تسعين لفضيحة أخرى وتتوقين لجلب الانتباه إليك لهذه الدرجة المنحطّة؟"

اقتربت خطوة أخرى وهي ترمقها باستحقار: "أنتِ لا تنتمين لهذا العالم، وستبقين دخيلة دائماً. لا أعلم كيف بإمكان مارسيل أن ينظر إليك بعد الذي حدث. لا تناسبينه إطلاقاً ولا تسببين له سوى المتاعب. يجب أن تدركي من هو، موقعه ومنصبه، لديه وزن في هذا العالم، سمعة بناها من الصّفر وتضخمت مع كشف هويّته الحقيقية،

لذا يجب أن تتصرفي وفقاً لذلك، لا أن تهدمي كلّ ما بناه!"

كانت روبي تقبض يدها على حقيبتها طوال المحادثة التي حطمت الجدار الخفي ووصلت إلى قلبها مباشرةً، لكن كان هناك جزء ظلّ صامداً، وأرادت أن تحافظ عليه قدر المستطاع كي تختبئ خلفه...

قالت بنبرة صوت منخفضة لكن مشحونة: "يجب أن تركزي مع حبيبك أندرياس وتسحبي أنفك من حياتنا"

ضحكت إيزابيل ضحكة خافتة متكبّرة: "أندرياس ليس رفيقي، بل مجّرد رجل أعبث معه في الوقت الحالي"

"جيد، فهو يستحقّ امرأة أفضل منكِ بمراحل"

ابتسمت ابتسامة ثلجية قبل أن

تتجاوزها بخطواتٍ مسرعة لتخرج من دورة المياه وتهرب بعيداً عنها. كانت قدماها تتحركان دون وجهة، وأخذت تدور وتدور حتّى وجدت نفسها تخرج من الملهى الليلي، تلتقط أنفاسها بثقل مجددًا كما لو كانت عالقة داخل صدرها

شعرت بأعين من في الطابور يراقبونها، لذا ابتعدت ووقفت خلف عاملي صفّ السيارات الثلاثة لتختبئ وتهدأ، فإذا بالفتاة بينهم تقترب منها بتردد وقلق لتسأل: "هل أنتِ بخير يا آنسة؟ هل تحتاجين إلى شيء؟"

زفرت روبي زفرة ثقيلة وهي تلمس جبهتها: "لا، شكراً. أريد الجلوس واستنشاق الهواء النّظيف فقط"

أشار الشاب الأسمر بينهم: "تفضّلي على هذا الكرسي هنا يا آنسة"

شكرته قبل الجلوس، فقام الشّاب الأشقر بجانب الفتاة بمناولتها زجاجة ماء، لتأخذها بامتنان وترتشف منها علّها تطفئ النّار التي تشتعل في قلبها وتسكّن آلامه، ثمّ أخذت تتأمّل الثلاثي الذين حملت وجوههم مزيجاً من الطموح والتواضع وهي تتخيل نفسها بينهم، حتّى استغربوا من أمرها

"ما أسماؤكم؟"

بدأت الفتاة معرّفةً بنفسها: "أنا بري وهذا أخي بارون" أشارت للشّاب الأسمر: "وهذا زميلنا جاك"

أومأت روبي، ثمّ سألت بنبرة مسترخية قليلاً: "كيف تجدون العمل في خدمة صفّ السيارات؟"

ضحك بارون مجيبًا: "الرّاتب جيد جدّاً. قد أتمكّن من شراء سيارة مستعملة

قريباً"

جاك بسخرية: "أجده مملّاً نوعاً ما ولكن الراتب جيد بالفعل"

بري بحماسة: "أحبّه! فهنا يتسنّى لي قيادة سيارات فارهة ورؤية شبان ورجالٍ وسيمين أيضًا"

سرحت روبي للحظة، ثمّ قالت: "قيادة السيارات الفارهة كانت أكثر ما يمتعني عندما كنت أعمل مثلكم"

علّقت بري بسخرية خفيفة: "تمزحين... هل كنت تعملين في خدمة ركن المركبات حقّاً؟"

"أجل. كنت آخذ المفاتيح والمعلومات، وأركنها خلف أحد النوادي الليلية مثلكم تماماً"

تبادلوا النظرات مع بعضهم وهم غيرُ مقتنعين، ثمّ سأل بارون وهو يفرك

ذقنه: "هل ترين ما ترتدينه يا آنسة؟"

بري بتساؤل: "لو اعتدت العمل مثلنا، فكيف وصلتِ لهذه المرحلة؟" صفقت بسرعة وكأنّها توصلت للاستنتاج: "اعترفي! أنتِ مع رجلٍ ثري، صحيح؟"

"يمكنك قول ذلك"

"لقد حُسِم الأمر. سأتأنّق غداً وأغوي رجلاً ثريّاً ليقع في حبّي" أطبقت شفتيها بإحراج، ثمّ قالت: "آسفة لم أقصد الإهانة"

ردت روبي بنبرة ناعمة: "لا عليكِ، ولم أغوِ أحدهم بالمناسبة... نصيحتي لكِ هي أن تختاري بعناية حتّى لا تندمي في المستقبل"

بارون وهو يرمق أخته بضيق: "وكأنّي سأسمح لها بارتكاب أفعالٍ كهذه!

توقفي عن التفوه بالترهات أمام الغرباء"

نهضت روبي بهدوء وابتسمت لتكسر مشاحنتهما اللطيفة: "سررت بلقائكم، ولكن يجب عليّ العودة إلى الداخل. أتمنى لكم ليلة سعيدة ومريحة"

لوّحوا لها بعفوية قبل أن تعاود الدّخول إلى الملهى، حيث كان منسّق الموسيقى يعرض أغنية هادئة وأقلّ صخباً، فجالت بعينيها بين النّاس الذين يتمايلون ويضحكون حتّى تجمّدت عندما رأت مارسيل في الجهة الأخرى من ساحة الرّقص...

6: قلب مجروح

شعرت بأنّ الحياة تعود إليها، شعرت بالدّفء وبالحبّ يتفجّران خلالها، لكن كلّ ذلك تغير في لحظة واحدةٍ فقط؛ حين اتضحت لها الرؤية وشاهدت امرأة غريبة معه. كانت ترتدي فستانًا أحمر برّاقًا، تضحك وتلمس كتفه بغنج وتملّك، ثمّ عقدت يديها خلف عنقه وتمايلت بجسدها مع الموسيقى متابعةً الحديث...

تراكمت المشاعر داخل قلب روبي، لم تفهم ما تراه ولكنّ المشهد آلمها؛ فلماذا قد يكون مارسيل هنا مع هذه المرأة؟ من هي؟ لماذا يرقص معها، ينظر لعينيها مباشرةً، يبتسم ابتسامة ساخرة ويتحدث إليها؟ لماذا يبدو مسترخياً معها؟ ولماذا لا يلبس السوار؟ لماذا تشعر أنها لو رأت السوار فسوف

تتشبث بالأمل المتبقي بينهما؟

لماذا لماذا ولماذا وماذا والكثير من الأسئلة التي جعلتها تشعر بقلبها يتمزّق وينزف إثر الإبر الحادة التي تَخِزه، وأنّها وسط البحر المظلم، تختنق وتغرق للأسفل مجددًا...

***

وبينما عاد النّاس للرقص بصخب، أخذ أندرياس يبحث عن إيزابيل التي اختفت من جانبه فجأة، وعندما سأل عنها وجد أنّها ذهبت خلف المسرح لتستعدّ لأداء عرض كداڤينا!

"ما الذي تظنّين أنّك فاعلة؟"

أجابت بلا مبالاة لنبرته الغاضبة وهي تضع أحمر شفاهها الوردي الصارخ: "ماذا يبدو لك؟ سوف أؤدي عرضاً على شرف رونالدو، فقد طلب منّي هذا

المعروف ووافقت"

مسح أندرياس على وجهه ليتمالك غضبه، ثمّ قال بنبرة محذّرة: "غيّري ملابسك، ولا يوجد عرض"

التفتت وعقدت ذراعيها بتكبّر: "لا"

ابتسم بنظرات حادّة وكرّر ببطء: "إيزابيل... ستغيّرين ملابسك وستأتين معي. الآن."

"بل سأخرج وأؤدّي عرضي، وليس من شأنك. يمكنك الرحيل بمفردك لو أردت"

اقترب منها أكثر ولمس ذقنها، لكن ليس بعنف ثمّ قال: "ألم تسمعيِ ما قلته للتو يا حبّي؟"

حاولت ألّا تتوتّر، فقالت وهي ترمقه بحدّة: "لا يحقّ لك أن تملي الأوامر عليّ"

ضحك ضحكة خفيفة، ثمّ قال بصوتٍ هامس وساحر: "هل هذا تحدٍّ؟" مسح على وجنتها بطرف أصابعه، قبل أن يتابع بنظراتٍ أرعبتها: "إن لم ترغبِي برؤية صديقك ميتاً وغارقاً بدمائه وسط المسرح، وهذا المكان مسوًّى بالأرض فغيّري ملابسك ولنخرج" أضاف بانزعاج: "وامسحي أحمر الشّفاه هذا قبل أن أُجنّ!"

ظهرت المنسّقة وسألتها ما إن كانت جاهزة أم لا، ليرفع أندرياس حاجبًا مترقبًا إجابتها التي ستحدد مصير هذه الليلة. ليس لديها شكّ أنّه سينفذ ما هددها به، لذا قلّبت ناظريها وألغت العرض ليبتسم ابتسامة نصر جذابة أغاظتها كثيراً...

***

وعلى سطح الملهى الليلي، بعيدًا عن الأضواء، الضحكات والموسيقى الصاخبة التي تهتزّ لها الجدران، كانت روبي تجلس في زاوية بعيدة، تسند ظهرها إلى الحائط البارد، تستمع لهمسات الرياح وأبواق السيارات البعيدة، تحتضن الهدوء والعزلة على غير عادتها؛ لم تحب الهدوء يومًا، فقد كان يذكرها بمدى وحدتها في هذا العالم، بالفراغ الذي تحاول دائمًا ملأه بالضحك والثرثرة مع الآخرين، وبالأناس الذين تخلوا عنها وتركوها خلفهم...

ولكنها رحبت بالهدوء الليلة، رحّبت بالصمت وسمحت له أن يبتلعها ويحجبها عن العالم، مثل ملاذ مؤقت ولكن مسموم! حيلة يائسة تؤجّل بها الانهيار ومواجهة الألم، المخاوف، الحقيقة، الماضي والمستقبل

"كنت أبحث عنكِ..."

نقلت نظراتها من الأفق إلى دييغو الذي لاحظ وجهها العابس وعينيها المثقلتين بحزن دفين وهموم كثيرة، ثمّ قالت: "لن أعود معك إلى الداخل، فليس لديّ رغبة في متابعة هذه الليلة" أضافت ببرود: "وأعلم من تكون"

ابتسم ابتسامة سريعة وساخرة، ثمّ سأل: "هل أخبرك أندرياس بهويّتي؟"

"لا يهمّ..." حملقت به قليلاً: "لقد علمتَ بهويّة مارسيل منذ البداية، أليس كذلك؟"

"بلى"

"لماذا فعلت كل ذلك إذاً؟ ما نواياك بالضّبط؟ فأنا لا أفهم ما يجري"

زفر نفسًا عميقًا بهدوء، ثمّ اعترف بلا

مبالاة: "كان كلّ شيءٍ مخططاً، عدا فستان الرفيقة التي أحضرتها للحفلة، لم يكن مدبّرًا له ولكنّه كان حافزاً مناسباً لتفتعل مشكلة معكِ، ولم تخطّط أن يُكسَر أنفها وسنّها لو كنتِ تتساءلين"

حملقت به محاولةً إيجاد تفسير منطقي لما يحدث، ثمّ قالت: "لماذا...؟"

شردت عيناه للحظة: "هل أخبرك أندرياس بتفاصيل ما حدث مع الدّون؟"

"لا... وما علاقة هذا بسؤالي؟"

تأمّل المدينة لبرهة طويلة قبل أن يقول: "أنا أكره الدّون فيرناندو أكثر من أيّ شيء، فقد سلبني أغلى ما أملك"

هزّت رأسها باستياء: "والدك قد أرسل

سفاحاً ليقتل زوجته وابنه"

"صحيح، وعندما اكتشف أنّ والدي كان الفاعل قرّر أن يحاكمنا ويقتصّ منّا. زوجة مقابل زوجة وابن مقابل ابن، ولأنّه لا يقتل النّساء ولأنّ والدتي بريئة، فقد قرّر قتل والدي، وتقدّم أخي الأكبر ذو الخمسة عشر ربيعاً مقابل الابن، لأنّي كنت ما أزال في الرّابعة من عمري حينها. لا أفقه شيئاً.

قتلهما واحتجز والدتي بعيداً عنّي. لم أستطع مقابلتها أبداً بل محادثتها عبر الهاتف فقط، دون أن أعلم مكانها أو تفصح لي عن ذلك، كما أخبرني أن أترك المكسيك عندما أبلغ الثامنة عشرة وألّا أعود أبداً وإلّا فسيقتلني"

شرد ذهنه مجددًا، ولم تشأ روبي أن تقاطع حبال أفكاره، بل انتظرته أن يفرغ ما في قلبه فقط...

"تركت المكسيك وعشت هنا، وفجأة علمنا أنّ بيدرو حي ولم يمت، ممّا يعني أنّ أخي رحل بدون مقابل، وهذا زاد حقدي على الدّون أكثر لدرجة أنّي أردت قتل حبيبك في الحفلة وأمام الجميع!"

شدّت على يدها لا إراديّاً قبل أن تسترخي وتسأل بهدوء: "وما الذي منعك من ذلك؟"

وضع يده في جيب بنطاله مجيبًا: "لست ندّاً لآل كورتيز وحدي، ولكنّي كنت أشعر بالملل لذا أردت افتعال مشكلة قد تجعلني أقتله دفاعاً عن نفسي، وكان عرضي له مقابل ما فعلتِه أنتِ هو أن يقتل والده"

قالت باستنكار: "أردته أن يقتل والده؟"

"صحيح، ولكن لن يستطيع الآن"

سألت بعد لحظة صمت قصيرة: "وهل كان الملل دافعك الوحيد حقّاً؟"

"الرغبة بالانتقام أيضاً. لا تتخيلين كم أريد ذلك، ولكنّ والدتي المحتجزة هي العائق الذي يمنعني وعائلتي من شنّ حرب على آل كورتيز، لذا انضمّ بعضنا إلى كاستيلا بيرو لتكون الغطاء، فهي تكنّ ضغينة ضدّه" زفر بسخرية: "ولكن تمّ اغتيالها. لا أحد يعلم من فعلها لكنّي متيقّن أنّ فيرناندو خلف ذلك"

صمتت روبي متذكرةً الحديث الذي دار بينها وبين مارسيل عن هذا الموضوع في وقتٍ سابق، ولم تشأ أن تفصح بأيّ كلمة لدييغو، فيبدو أنّ قلّة فقط من يعلمون أنّ مارسيل فعلها، أو بالأحرى 005

شعرت بالقلق لوهلة، لمجرّد التفكير بما سيحدث لو انتشرت هذه الحقيقة خارج آل كورتيز... هل ستندلع حرب يا ترى؟

"أنا آسفة لخسارتك" تابعت بنبرة محايدة وحذرة كي لا تغضبه: "واعذرني حين أقول إنّ والدك من بدأ هذه الحرب، فقد أرسل وحشاً فجّر المنزل بعد قتل زوجة الدّون... هل فكّرت بمشاعره عندما لم يستطيعوا جمع أشلاء زوجته وابنه الرضيع الذي ظنّ أنّه مات معها؟ أو بمشاعر أهالي الخدم والحرّاس الذين كانوا هناك؟"

مسحت على ذراعها بإشفاق، ثمّ أكملت: "أنا لا أبيح ما فعله بك وبعائلتك، فأنا لا أحبّذ القتل، ولكن ما حدث له ليس بهيّن ولن أستطيع فهمه ولا أرغب أن أكون مكانه حتّى. لم يكن

يجب على والدك أن يقدم على فعلته، فلا يوجد شيءٌ يستحقّ سلب أرواح بريئة بكلّ وحشية هكذا! قتلهما ولّد رغبة الانتقام بين الجميع، ولن يجلب لكم ذلك سوى المزيد من الألم والحزن "اهتزّ صوتها قليلاً: "وبالنّسبة لمارسيل، فإن كنت تظنّ أنّ أخاك مات بدون مقابل فأنت مخطئ، لأنّ بيدرو مات مع والدته ولم يحظَ بحياة قد تسمّيها حياة. لا تتخيل الرّعب الذي عايشه تحت يد جاريد إيڤان، ولا مقدار الألم الذي تحمّله حتّى أصبح شيئاً يهابه ويريده الجميع... ولا أظنّ أنّ ذلك سيتغير"

مسحت الدّموع التي ترقرقت بعينيها فجأة بسرعة، ثمّ تنهدت تنهيدة طويلة، فقال دييغو بنبرة هادئة: "اعتبري المرافقة انتهت. هو في الداخل لو أردتِ الرّحيل معه"

"أرغب بالعودة إلى منزلك أولاً وإحضار ملابسي وجوازي"

"هيّا بنا إذًا"

نهضت روبي بثقل وكأنّها تجرّ صخوراً معها. تبعت دييغو عبر الصخب الجنوني والأضواء التي انعكست على الحاضرين حتّى اجتمعا بمارسيل الذي تفحّصها بدقّة وشعر بوجود خطب ما؛ إذ كانت صامتة، تنظر للفراغ وكأنّها تشاهد شيئاً غير مرئيّ، كتفاها منخفضان بحزن كما لو كانت عصفورة مكسورة الجناحين، ولم تنظر نحوه ولا مرّة واحدة!

نقل نظراته إلى دييغو، وحاول أن يعلم ما إن كان له شأنٌ بحالتها هذه، فأخبره عن رغبة روبي بالعودة لمنزله أوّلاً، واتّفقا بكلماتٍ لم تستطع سماعها

بسبب الموسيقى ولكنّها رأته يتبعهما بسيّارته لاحقاً حتّى وصلوا للڤيلا

دخلت للغرفة وبدّلت ثيابها، ثمّ حملت الفستان وبقية المتعلّقات إلى صالة المعيشة حيث دييغو الذي ألقى سترته على الأريكة وهو مرهق:

"يمكنكِ الاحتفاظ بهذا كلّه فأنا لا أحتاج إليه"

"ليس لديّ متسع، ويبدو أنّك تكلّفت ثروة أيضاً" أردفت بتهكّم: "يمكنك إهداؤه لرفيقتك السابقة"

ردّ بسخرية: "لا أذكر اسمها حتّى" أردف: "أنا جادّ، يمكنك الاحتفاظ بكلّ شيء كاعتذار منّي على الإزعاج الذي حصل... أصرّ على ذلك"

نظرت إلى الفستان والحذاء للحظات، ثمّ قالت: "لا أستطيع أن آخذهما...

ولكن إن كنت مصرّاً فأرغب بأخذ عقد الياقوت. أظنني تعلّقت به"

"تفضلي"

شكرته بابتسامة صغيرة، ثمّ اقتربت منه ومدّت يدها لتصافحه قائلةً بنبرة محايدة: "شكراً على حسن الاستضافة"

ردّ المصافحة قائلاً: "سرّني لقاؤك يا روبي سميث"

"أتمنى لو أستطيع قول المثل"

ابتسم ابتسامة جانبية: "لا بأس"

"حسناً... وداعاً"

غادرت بعد استراق نظرة أخيرة إليه، ثمّ صعدت إلى سيارة مارسيل وأحكمت حزام أمانها بهدوء دون قول شيء أو حتى النظر إليه وكأنها تهرب

من وجوده حولها، فبدأ عقله يقلّب عدّة أفكار وتساؤلات زادت عندما وصلا إلى الفندق الذي لم تكترث له ولا للجناح الفاخر الذي استأجره من أجلها، بل أخذت تجهّز الأريكة استعدادًا للنّوم

كان السؤال على طرف لسانه ولكنه لم يستطع أن ينطق به؛ فليس من عادته أن يبادر بالسؤال بل يجب أن يحلل ويتوصل إلى الإجابة من تلقاء نفسه، يجب أن يكون على علم بما يحدث... ولكنّ روبي كانت وما تزال اللغز المحيّر الذي لا يستطيع حلّه بالكامل بعد!

لماذا هي مستاءة؟ لماذا تلتزم الصمت؟ لماذا لا تنظر إليه؟ هل علمت بالحقيقة؟ إن كان كذلك فلماذا لا تواجهه؟ هل هي غاضبة لأنه لم يراسلها أو لأنه انفعل في آخر محادثة

بينهما؟ هل آذاها دييغو يا ترى؟ ماذا يجدر به أن يفعل الآن؟ كيف يتصرف؟

"لا أرغب بالسفر لأي مكان آخر... أرغب بالعودة للسّاحل"

حدّق بها مليّاً، محاولاً قراءتها مجددًا، يريدها أن تنظر إليه علّه ينجح بذلك ولكنّها لم تفعل، فقال بنبرة هادئة: "سنرحل غداً إذاً.. احظي بقسط من النوم"

7: شجار

مضت عدة أيام منذ عودة روبي ومارسيل إلى المنزل الزجاجي، عدة أيّام تخللها الصمت وتغيّرات كبيرة من طرفها. باتت تتجاهل وجوده قدر المستطاع، تنام على الأريكة، تكثر الخروج، تتناول طعامها وحدها، تقرأ رواية وتشاهد التلفاز بدون دعوته، تحارب رغبتها وقلبها المشفق عندما تراوده الكوابيس ولا توقظه منها

ِكان هو يحاول التكيف على الوضع الجديد الذي لم يستطع استساغته البتّة. بات مشدود الأعصاب حولها، لكنّه لم يرد أن يكون الخاسر والمبادر، لذا تحمّل وقبل تحدّي الصمت... كلاهما يستقبل التراكمات المتنوعة التي تبني جداراً سميكاً بينهما، وهذا الجدار سوف يدمّر كلّ شيء لو لم

يتصرّف أحدهما!

***

وقفت روبي أمام بوابة مطعم هيغنز اليوناني للحظات وهي متوترة ومتردّدة. زفرت نفساً عميقاً، ثمّ دخلت وألقت التحية على البعض الذين يعرفونها بابتسامة هشّة لتغطّي على توترها. انتظرت حتى خرج من المطبخ وهو يجفّف يديه. حاولت أن تبدو طبيعية، لكنّها تبعثرت عندما نظر إليها أخيراً وسأل: "كيف كانت سفرتك؟"

أجابت بعفوية، متجنبة عينيه: "لقد كانت جيدة"

عقد ذراعيه وسأل بتهكّم يليق به: "هل تورّطت في شجار يا ترى؟"

تنهدت بإحباط: "كنت آمل ألّا ينتشر الخبر لهذه الدرجة، وألّا تكون قد

سمعت به"

"الإيطاليون ثرثارون، وخاصةً ذلك الولد ماتِيو... كان هناك فيديو أيضاً"

صفعت جبهتها باستسلام: "آه يا إلهي.."

رفع كتفه لا مبالياً: "كنت أعلم أنّك شرسة لذا لم أتفاجأ... على كل حال، ما الذي تريدينه منّي؟ أسرعي فلديّ عمل"

زفرت وتشجعت قائلةً: "أرجوكَ أخبرني أنّ لديك وظيفة لي"

ردّ ببرود: "ليس لدي وظيفة لك، ولمَ تحتاجينها أصلاً؟" حدّق بها قليلاً: "هل انفصلت عن سِيِيل؟"

فتحت فمها وأغلقته باحثةً عن كلمات مناسبة، ثمّ فتحته مجدداً وقالت: "لا، ولكنّ الأمر معقد وأحتاج إلى عمل...

أرجوك"

رأى موجة الحزن في عينيها، تخفي خلفها الكثير من الهموم والأسرار التي لن يسأل عنها أو يتدخّل في ما لا يعنيه

"ما خبراتك يا سميث؟"

انطلقت تسرد ما تجيده بسرعة قبل أن يغير قراره: "لقد عملت كنادلة من قبل، وأنظّف، أركن السيارات، ولديّ ذائقة ممتازة لذا يمكنني العمل في "مَشرَب أيضاً وتحضير المشروبات"

عقد ذراعيه ورمقها بعينين ضيقتين: "لو وظّفتك فسوف تعدينني ألّا تخبري سييل بالمكوّنات السرية لطبخاتي، ولا أيّ واحدة، وإلّا...؟"

ازدردت بصعوبة وهمست: "ستقتلني؟"

"سأقتلك ثمّ أقتله أيضاً"

رفعت يدها وكأنّها تؤدي قسماً: "لن أبوح بشيء. أعدك!"

قال بنبرة صارمة: "حسناً، يمكنك البدء غداً، مناوبة الصبّاح. سأجرّبك وأرى إمكانيّاتك، وإن أخطأتِ فسوف أطردك، فنحن لسنا صديقين، وهذا عمل جدّي"

أومأت: "حاضر! لن أخيّب ظنّك"

"سنرى يا سميث"

***

استقلّت روبي الحافلة إلى أقرب محطّة ومشت على طول الشاطئ حتّى رأت سيارة شركة التنظيف التي يتعاقد معها مارسيل، ليأتوا بين كلّ حين وآخر للقيام بتنظيفٍ شامل من الدّاخل والخارج. قابلت أنفها رائحة

الصّابون الذي يستعملونه عندما دخلت. ألقت التحية عليهم، بينما مارسيل يملي بعض التّعليمات على العاملين الذين يتسلّقون في الخارج ويمسحون الزجاج

"مرحباً يا لوي، كيف حالك؟"

"مشغول يا آنسة كما ترين"

"والمنزل يلمع كالمعتاد"

ردّ بضحكة: "يجب أن يلمع، وإلاّ فسيتعاقد السيّد ويليامز مع شركة أخرى ونخسر عميلاً مميزًا!"

اكتفت بابتسامة عفوية صغيرة، ثمّ التفتت للمطبخ وحينها اقترب لوي مجدداً وقال: "آه صحيح، كدت أن أنسى. كنّا على وشك إخراج القمامة، وكان هذا السّوار موجوداً"

أطالت التحديق بالسّوار المماثل للذي

تلبسه حتّى شعرت بوخزات في قلبها مجددًا، كما لو كان يُثقَب بمسامير حادّة، ثمّ قالت بصوت واهن: "كان... في سلّة المهملات؟"

"أجل. سألنا السّيد عنه وقال إنّه قمامة، ولكنّي أسألك لأتحقق قبل أن نرميه"

وخز وخز وخز وخز وخز وخز... لا يتوقّف! هذا ما شعر به قلب روبي التي رسمت ابتسامة أخفت خلفها حقيقة ما تشعر به من ألم وخيبة أمل. انتظرت مغادرة شركة التنظيف وظهور مارسيل وهي تقبض على السوار بقوة، وحينها قالت بنبرة هادئة دون أن تنظر إليه: "المنزل نظيف جدّاً.."

تفاجأ للحظة؛ إذ إنها تتحدث معه أخيراً. لم يفهم المغزى من جملتها ولكنّه جاراها لتطول المحادثة: "أجل"

"لقد نظفوا الأريكة التي أنام عليها أيضًا، لونها الأبيض الناصع يغريني لسكب هذا العصير"

اشتدت أعصاب مارسيل وهو يراقبها تسكب العصير على أريكته والسجاد، ثمّ قال بنبرة تحذيرية: "ما الذي تفعلينه؟"

ردّت ببرود: "ستبدو الشوكولا جيدة"

نهضت لإحضار لوح الشوكولا، فهتف بغضب: "ما خطبك؟"

ضحكة قصيرة ومتشنجة منها، ثمّ نظرت إليه أخيراً وصفقت ببطء وسخرية. حاولت السيطرة على قناعها، لكنّها لم تستطع السيطرة على صوتها المرتعش كثيراً:

"استغرقت أيّاماً لتسألني هذا السؤال... أيّامًا لم تقترب فيها منّي

لتسأل وترى ما خطبي!"

ردّ بصوتٍ مشحون ملقياً باللوم عليها: "أنتِ من كان يتجاهلني!"

"حتّى تسأل ما خطبي، لكنّك أغبى من أن تفهم!"

سأل بوجه غاضب، لكنّ نبرته حملت الاستنقاص: "حسناً ما الأمر؟ لماذا تجنّبتِني؟ هل الحفلة السبب؟ الشجار؟ الرسائل السخيفة؟ دييغو؟"

عضت على شفتها المرتعشة لتتمالك نفسها، وكان هناك لحظة جعلته يشكّ [illegible] قد علمت الحقيقة، لكنّه توخّى الحذر وانتظر...

"كلّ شيء يا مارسيل..." هزّت رأسها، ثم تابعت بغصّة: "لم أعد أعلم ما يجري حولي ولكنّي مستاءة ومتعبة"

عقد ذراعيه وقال بجفاء: "قولي ما

لديكِ يا روبي ولننتهِ من الأمر بسرعة"

أشارت إليه بوجه مرهق: "هذا الأسلوب الذي يجعلني مستاءة... الأسلوب الذي لم يتغير منذ عودتي!" تقهقر صوتها: "ما الذي فعلته لك؟ لماذا تعاملني هكذا؟ أعترف أنّك محقّ وما كان يجب أن أفتعل شجاراً في حفلة ماتيو ولكن هل هذا يبرّر ما تفعله بي؟ هل أُحرجت منّي لدرجة ألا تسأل عمّا حدث أو تظهر الاكتراث ولو قليلاً؟ ألا تهتمّ لأمري؟"

صمتَ لبرهةٍ طويلة شعرت فيها بالقهر أكثر، لكنّها أبت أن تضعف وتنهار أمامه، فتقدمت خطوة واثقة نحوه ووقفت بثبات:

"سأقصّ عليك التفاصيل التي لم تكترث لسماعها أو السؤال عنها... لقد نعتتني تلك المرأة بالساقطة، سكبت

المشروب على ثوبي وأخبرتني أن أبدّله، صفعتني أولاً فرددت الضربة وشبّ بيننا الشجار الذي وبالمناسبة كان مدبراً. خطّة رسمها دييغو الذي لم تخبرني بهويته"

ردّ بنبرة هادئة استفزّتها: "لم تكن معلومة مهمّة"

هتفت بحدّة ويدها ترتعش: "لست أنت من يحدّد ذلك بل أنا! لو كنت أخبرتني منذ البداية لكنّا تجنبنا الكثير من المشكلات ولكنّك لم تفعل! لقد ظهَرْتُ معه أمام الملأ، والآن أنا ا ا ـاقطة التي تعبث مع العائلتين! هل أنت سعيد؟ لقد سببتُ لك المزيد من الإحراج ولكن أنتَ من قادني إليه! ذهبت وألقيتُ نفسي في الخطر كي أحميك منه ومن استغلاله و—"

اقترب حتّى امتثل أمام وجهها

مباشرةً وقاطعها قائلاً: "لا أحتاج لحمايتك، لستُ ضعيفاً ويمكنني الاعتناء بنفسي!"

دمعت عيناها، لكنها أبت أن تدع الدموع تنهمر: "أخبرني لماذا إذاً؟ هل..." اختنقت بغصّتها للحظة ثمّ قالت: "هل هذه خطتك لتتخلص منّي تدريجيّاً؟ أن تهملني وتتركني لأسبب لك الإحراج عمداً حتّى تنفصل عنّي؟ هل كانت الفترة السابقة تمثيلية وجزءًا من خطّتك؟"

"ما هذا الهراء الذي تتحدثين عنه؟"

رفعت صوتها قائلةً: "أخبرني إذاً و برّر نفسك لي، أخبرني أنّي أكثر من مجرّد أداة تستغلها لتنام مرتاحاً وكي لا تكون وحيدًا!"

أجفل مارسيل بعد كلامها الأخير

وبقي يحملق بها بتساؤل وشكوك، فتنهدت روبي تنهيدة عميقة ثمّ قالت: "أنا أعلم أنّي أجلب لك الراحة عندما أنام بجوارك. أعلم أنّك تنام بعمق وترخي كلّ دفاعاتك، وأعلم أنّ الكوابيس تراودك، ترى جاريد وتهلوس به وأحياناً تتحدث معه... نعتّني بالكوالا لأني أنام كثيراً بينما تجهل أني أتظاهر بالنّوم طوال الليل لأحرص على ألّا يراودك كابوسٌ آخر يعكّر صفو نومك، لا أنام إلّا بعد أن أتيقن من أنّك بخير!"

اهتزّ صوته الغاضب وهو يقول: "أنتِ تتوهمين وتفسرين الأمور وفق هواكِ كالمعتاد. قلتُ إنّي لستُ ضعيفاً ولا أحتاج إلى حمايتك!"

"أنا لا أحميك لأنّك ضعيف وبحاجة للحماية، بل أحميك لأنّي أكترث لأمرك

وأحبك، ولكنّك لا تهتم بالمشاعر التي أحملها أبداً...

كنت أعلم أنّي سأستغرق وقتاً طويلاً لأغيّرك في هذه العلاقة وأنّ عطاءك سيتأخّر، ولكنّك لا تنفكّ تؤذيني في وسط سعيي إليك، وليس بسبب الأسرار والأسلوب الجافّ وحسب بل هناك الكثير من الأمور أيضاً"

"مثل ماذا؟ منحتكِ كلّ شيء طلبته!"

"بالضبط!" التقطت أنفاسها المضطربة وهدأت قليلًا: "أعطيتني ما أريد دون رغبة منك. أنا من يبادر بكلّ شيء! أنا من يتخذ الخطوة الأولى وأنت تجاريني وتعطيني ما أريد فقط، ولكن هل هذا ما تريده؟ أجبني لأنّي حقّاً لم أعد أفهم. تحدّث حتّى أفهمك وأعذرك، أو يمكنك أن تكتب لي وتشرح كلّ

شيء! لن أمانع" لوّحت بيديها بانفعال: "أخبرني لماذا لا ترقص معي أمام الملأ، لا تطيل النّظر إليّ وإلى عينيّ عندما أتحدّث، وإن فعلتَ فأنت تعود للتحفّظ سريعاً وكأنّك اقترفت خطأً، ولكنّك بدوت مرتاحاً جدّاً مع ذات الفستان الأحمر في الملهى الليلي! تتصرف بغرابة داخل الجدران وخارجها. تجعلني أشعر أنّي مجرد امرأة عابرة تنوي التخلص منها قريباً، أنّي لا أزال الهدف وأنت القاتل... تجعلني أشكّك بقراري بالعودة إليك، وأحياناً بالنّدم لأنّي قبلت تذكرة طيران من بيتروڤا"

أرخى عضلات قبضته المشدودة قليلاً، لكنّ أصابعه ارتعشت رغماً عنه. كانت عيناه تركّزان عليها، تشتعلان بالغضب والقسوة، تشتعلان بمشاعر 005 الذي يعميه ويتحكّم به!

قال بنبرة هادئة وقاتلة: "أنتِ من اختار العودة... ولو كان هذا ما تشعرين به فرّبما يجدر بكِ الرحيل والعودة إلى أحضان بيتروڤا. سيرحّب بعودتك بالتأكيد"

نظرت إليه وهي محطّمة، فقد كانت كلماته كالنّار التي تأكل الرّوح وتترك خلفها الرّماد! رمشت لتسقط دمعة صغيرة من عينها، ثمّ سكنت ملامحها فجأة وكأنّها تعلن الاستسلام لليأس:

"سيرحّب بعودتي، لكن هذا ليس موضوعنا" مسحت على وجهها ثمّ قالت: "لقد اتخذت هذه المحادثة منحنيات عديدة، لذا أقترح أن نبتعد عن بعضنا لبضعة أيّام كي نفكّر بمستقبل هذه العلاقة" تراجعت خطوة للخلف، ومنحت نفسها لحظة لتستجمع فيها القليل من قوّتها، ثمّ قالت بصوتٍ

مكسور: "لقد اخترت العودة إليك لهدف تعرفه جيداً، وكان من المفترض أن نسعى معاً من أجل هذا الهدف، لكن إن كنت تشعر أنّك لا ترغب بالاستمرار، لا ترغب بوجودي فقلها بلسانك لا بأفعالك... فلا يوجد ما هو أقسى من كوني أحبّ وأعطي، أضَحّي وأسامح وأنا لست مرغوبة من قبل الرجل الذي أحب، لذا استغلّ هذه الأيّام وفكّر يا مارسيل، ثمّ أعلمني بقرارك"

ذهبت إلى خزانة الملابس وحزمت حقيبتها، ثمّ غادرت دون قول كلمة أخرى، وظلّ مارسيل مكانه، يحدق بالباب المغلق وصوت خطواتها يتردد في رأسه حتى شعر أنّها تدوس على قلبه، حتى شعر أنّ الهواء يغادر رئتيه ببطء مثل الكلمات التي لم يستطع صياغتها والبوح بها بسبب مشاعره المضطربة...

***

اتجهت روبي بعد جلسة بوح حساسة مع سكارليت إلى مطعم هيغنز مجدداً. وجدته يجلس إلى طاولة خاصّة بمفرده، يقلّب صفحات إحدى المجلّات بينما يتولّى مساعده الأعمال في المطبخ. رفع عينيه إليها ودرسها جيداً قبل أن يقلب صفحته التالية ويقول بصوت جافّ: "لا، ليس لدي غرفة لكِ"

تنهدت بإحباط: "لم يكن هذا ما جئت لأسألك عنه يا هيغنز فارحمني قليلاً"

"لماذا تحملين حقيبة إذاً؟"

"أنا أبحث عن شقّة في الأرجاء، ولم أكذب عليك بأمر الانفصال، كلّ ما في الأمر أننا في فترة انفصالٍ مؤقتة"

"لا تناقشي حياتك العاطفية معي فلست مهتمّاً يا سميث. ما الذي

تريدينه؟"

"أريد أن أعرف كم سيكون راتبي عندما أثبت لك نفسي غداً. أرغب بالبحث عن مسكن يناسب الميزانية"

حدّق بها بوجه خالٍ من المشاعر، ثمّ قلب الصفحة وقال بصوتٍ عمليّ: "40 يورو في الساعة، وهذا دون العمل الإضافي والبقشيش الذي يتقاسمه الموظّفون بينهم نهاية اليوم، أو عندما يكون هناك مناسبات خاصّة ومكافآت وما إلى ذلك"

فتحت فمها بدهشة: "هل أنت جاد يا ليفنز؟ هل تحقق أرباحاً ضخمة لهذه الدرجة، أم أنّك كريم جدّاً وربما ثري؟"

رمقها ببرود: "لماذا الانبهار؟ أنا لستُ طبّاخاً عادِيّاً يا سميث"

قالت بضحكة: "صحيح، أنت أفضل

طاهٍ في العالم!"

"لا تتملّقي وحسب بل أثبتي نفسكِ غداً لتحصلي على الوظيفة"

ابتسمت بحيوية: "حاضر، سأراك غداً"

لوّحت له قبل أن ترحل، فحدّق بها قليلاً قبل أن يهزّ كتفه ويتمتم معاوداً قراءة المجلة: "الشّباب ومشكلاتهم..."

***

وفي فندق إمباير في لندن، صعدت إيزابيل إلى جناحها بخطوات غاضبة لتجد أندرياس يسترخي على الأريكة ٥٠٠ ساقيه، على وجهه ابتسامة تعكس الثقة والتحدي، وتؤكّد لها أنّه كان ينتظر قدومها...

"مرحباً يا حبّي"

انفعلت في وجهه قائلةً: "لقد ألغى كلّ

الزبائن مواعيدهم معي!"

"ماذا أخبرتك من قبل؟ لو أردتكِ فلن يكون هناك صفّ ليقترب منكِ. لن تجلسي بين الرّجال الغرباء بعد الآن، وكي لا أكون قاسياً فسأدعك تؤدين عروضك الغنائية حتى إشعار آخر ولكن بملابس أكثر احتشاماً"

رمقته بحدّة وهي ثائرة: "هل تدرك حجم الخسائر التي سبّبتها، والإهانة التي جلبتها لي؟"

ردّ بهدوء استفزّها: "خسائر؟ نعم أدرك، ولكنّ مالك الفندق كان متعاونًا ... وأمّا الإهانة؟ فأنا لا أراها" نهض مقترباً منها، ثمّ لمس وجهها فصفعت يده بقوّة ليضحك باستمتاع: "أحبّ وجهك الغاضب يا إيزابيل!"

"لا يمكنك أن تفعل هذا، وأنت تعرّض

نفسك لخطر الكثيرين، منهم رجالُ أعمال خطيرون—"

لوّح بيده وكأنّه يتحدّث عن أمور تافهة: "وعصابات ومجانين إلخ إلخ، أعرف يا حبّي! وهم يعرفون الآن أنّك معي. شكراً على قلقك"

قالت بامتعاض: "لست قلقة عليك! ولماذا لا تزال هنا أصلاً؟ أليس لديك ابنٌ وعمل في المكسيك؟"

ابتسم مجيبًا: "أستطيع مهاتفته كلّ يوم وكذلك الدّون لو احتاجني، ولو حدث وعدت فلن يتغيّر شيءٌ هنا يا بي"

ردّت ببرود: "أنا لست حبّك"

اقترب منها أكثر حتى شعر بأنفاسها الغاضبة: "سترغبين بذلك... يا حبّي"

زفرت بضيق قبل أن تدفعه وتذهب

لتغيّر ملابسها، وحينها هتف بسخرية: "سأطلب العشاء"

"لا أريد!"

"ستريدين وستأكلين"

ضحك عندما سمعها تتأفّف، ثمّ تنهد تنهيدة طويلة وتمتم: "آي آي.. ستقودني هذه المرأة للجنون"

8: أُم

ابتسمت روبي بخفّة وهي تدوّن ملاحظات أحد الزبائن على الجهاز اللوحي، تتنقل بين الطاولات بحيوية ونشاط، تخدم وترشّح، وتقدم النصائح أيضاً باحترافية كما لو أنّها تعمل لدى مطعم هيغنز منذ سنوات. كانت عفوية وذكية في الوقت ذاته، فتحظى باستلطاف الكثيرين، تحسن التّصرّف مع المتعجرفين وتستجيب للصامتين بابتسامة خافتة تشعرهم بالرّاحة. تتحرك وكأنّها تتبع إيقاعاً معيناً، وجهها متورّد وبشرتها مشرقة مثل ابتسامتها الصادقة

وبعد يومٍ طويل، مدّدت ساقيها وجسدها قليلاً قبل أن تجتمع بهيغنز الذي راقبها طوال الفترة السابقة كالصّقر...

قال بنبرة رسمية: "أنتِ هنا منذ أسبوعين وتبلين بلاءً غير متوقع. أحسنتِ"

ردت بحماسة اختلطت بغرور: "أخبرتك أنّي لن أخيّب ظنّك. أنا معتادة على هذا العمل وأعلم كيف أديره، كما أنّي سوّقت للمطعم أيضاً"

حدّق بها قليلاً ثمّ قال: "جيد. واصلي العمل الدؤوب... ولكن لا ترهقي نفسك"

أومأت بسرعة ثمّ سألت: "بمناسبة العمل، سمعتُ أنّ رين لن يأتي الليلة سرضه. هل أستطيع أن أحلّ مكانه وأخدم في المَشرَب؟"

"كنتُ سأحدّث أحدهم، ولكن هل ترغبين بذلك؟"

لمعت عيناها: "بالطبع، يمكنني

المساعدة والاستفادة من المال"

هزّ رأسه بخفّة: "حسناً. خذي استراحة وعودي بعد ساعة"

نهضت فجأة وهي تخبره أنّها تستطيع المواصلة والبدء على الفور، لكنّها شعرت بالدوار فجلست على المقعد مجدداً وهي تمسك رأسها:

"يا إلهي لقد نهضت بسرعة ورأسي يدور..."

قال بنبرة منزعجة: "خذي استراحة يا سميث وعودي لاحقاً، اشربي الكثير من المياه وكلي شيئاً"

رمشت باستغراب، ثمّ أومأت قائلةً: "حاضر"

خرجت بعد خلع ملابس العمل وجلست على رمال الشّاطئ بالقرب من المطعم، ومعها شطيرة لذيذة حصلت عليها من

المطبخ. تناولتها وهي تنظر للغيوم الرمادية التي تغطّي السماء، ثمّ تنهدّت عندما مرّ مارسيل بخاطرها... مارسيل الذي لم تسمع خبراً عنه ولم تره منذ آخر شجار حصل بينهما، ولم يقم بإرسال رسالة أو أيّ شيء بعد، ممّا جعلها تستبق الأسوأ، ثمّ خطر على بالها جاريد وتذكّرت المحادثة التي دارت بينهما في الطائرة مجددًا حتى قاطعتها قطة جائعة اقتربت منها، فقامت بإطعامها قطعة من الشطيرة وراقبتها للحظة طويلة جلبت الحزن والهمّ

.حبريني أيتها القطة... ماذا قد تفعلين لو علمت أنّ والدتك يلينا أورلوف، وأنّ لديك أخًا ينتمي لعائلة خطيرة في روسيا؟ هل ستذهبين لمقابلته، أم ستقمعين فضولك ورغبتك بعائلة تسكنين إليها ومنزل يؤويكِ لا

يؤذيكِ؟"

ماءت القطة مقتربة منها أكثر فقامت بإلقاء قطعة أخرى لها، ثمّ تنهدت تنهيدة طويلة وقالت: "سأعتبر أنّك أجبتني بـ لا، فأنا أيضًا لا أودّ ملاحقة هذا الجزء من حياتي، فقد يتبخر ويختفي، أو يرفضني، وقد يؤويني ثمّ يتخلى عنّي مثلما فعل الكثيرون... ربّما سأكون الطرف الذي يُترَك في الخلف للأبد، ربّما هذا قدري في هذه الحياة" ضحكت ضحكة حزينة وخافتة: "أتمنى لو أنّي أتّعظ وأتوقف عن ملاحقة القدر الذي ليس لي، والناس الذين لا يرغبون بي..."

***

مضت السّاعات... وبدأت السماء ترشّ الأرض بمطر خفيف، ولكنّه كان علامة تحذير، فقاموا بنقل الزبائن في

الطاولات الخارجية للداخل وخدمتهم، وكانت روبي ودودًا مع كلّ زبائنها، ولم تحتكّ كثيراً بأولئك الذين يبدون يائسين جدّاً

قال شاب وهو يرفع كأسه: "لم أجرّب خليطًا كهذا من قبل، هل كنت تعملين هنا سابقاً؟"

ابتسمت بعفوية فيما تمسح أحد الكؤوس: "بدأتُ للتّو"

"لقد أحسنوا الاختيار إذاً... مرحبًا، أنا تريستان" مدّ يده لمصافحتها

صافحته بأدب، دون إظهار أيّ اهتمام: روبي"

"لون عينيك مميز جدّاً"

ردّت متجنبةً النظر إليه: "شكراً.."

"متى تنتهين من عملك؟"

"لماذا تسأل؟"

أمال رأسه وقال بغرور: "أودّ أن آخذك في جولة بسيارتي الرياضية"

ابتسمت بتكلّف: "لا، شكرًا"

زفر ضحكة قصيرة: "هيا... سوف نستمتع بوقتنا معاً"

تمتمت بصوتٍ منخفض: "قطعًا لا، فرائحة عطرك تشعرني بالغثيان"

"هيا يا روبي... لا تلعبي دور صعبة المنال فهو لا يناسبك"

"لا ألعب أيّ لعبة، أنا هنا للعمل"

مال بجذعه نحو الطاولة أكثر، ثمّ قال وهو ينظر إليها بنظرات خبيثة: "سأدفع لك ضعفي ما تجنينه هنا"

حدّقت به بحدة قبل أن تقول بصوتٍ حازم: "لست مهتمّة" أمسك معصمها

فجأة، لترتعد وتحاول سحبه دون أن تلفت الأنظار وتقع في مشكلة: "اترك يدي من فضلك، لا تسبّب لي المشكلات"

لاحظت زميلتها كريستين الموقف، فاقتربت وسألت بنبرة تحذيرية: "هل هناك مشكلة يا سيّد؟"

ترك المدعّو تريستان معصم روبي ونهض باستهزاء قائلاً: "لا، ولو كان هناك فلن تكون من شأنك!"

ألقى بالمال بعد أن مرّر يده على شعره الذهبي. راقبته روبي حتّى رحل . حلت القشعريرة إلى أقصاها، فأسرعت إلى دورة المياه وانحنت أمام المرحاض؛ لتتخلّص من رائحته التي شعرت أنّها ابتلعتها وهبطت إلى معدتها كالسّم!

"رجلٌ نتن ورائحته مثل الجوارب المستعملة..."

دخلت كريستين لتتفقدها: "هل أنتِ بخير؟"

"آه نعم أنا..." انحنت مجدداً عندما باغتها الغثيان، ثمّ مسحت فمها بالمحارم وهي محرجة، وقالت بصوت متعب: "أنا آسفة"

"لا بأس. جئت لأتفقّدك فقط. هل حاول التحرش بكِ؟"

هزّت رأسها: "أجل"

مالت مجدداً ظنًّا منها أنّها سوف تتقيأ، ولكنّها سعلت محاولةً السيطرة على نفسها، لتسأل كريستين: "ماذا أكلتِ اليوم؟"

"شطيرة وبضع رشفات من الشراب، ولكن يبدو أنّها غادرت جسدي الآن"

"لا بد أنّ لديك معدةً تضطرب بسرعة"

"ربّما.."

التقطت روبي أنفاسها، ثمّ غسلت فمها ووجهها قبل أن تخرج مع زميلتها وتعاود العمل، وما زالت رائحة تريستان تفوح بالمكان حتّى بعد أن رشّت معطّر الجوّ، وكأنّ رائحته التصقت بأنفها بغراء قويّ غير قابل للإزالة. تحمّلت ذلك حتّى صرفهم هيغنز مبكراً بسبب المطر الغزير وأغلقوا المطعم. وقفت تحت سقفه في الخارج لتحمي نفسها من البلل منتظر توقّفه أو حتّى يصبح خفيفًا على الأقلّ، وحينها لمحت سيارة وبداخلها تريستان الذي ينظر باتجاهها!

"سحقاً، ما الذي يفعله هنا؟"

خرج هيغنز من المطعم وأغلق الباب، ثمّ التفت إلى روبي الشاردة الذهن وسأل: "لماذا لم ترحلي بعد؟"

أجابت بارتباك: "أنتظر أن يخفّ المطر. لم أحضر مظلّتي معي"

فتح الباب مجدداً وسحب مظلّة من الدّاخل: "هاكِ هذه. أعيديها للمطعم غداً"

نظرت باتّجاه سيارة تريستان التي تحرّكت مبتعدةً عن المطعم ويدها في الهواء، حتّى تبع هيغنز أنظارها وسأل: "ما الأمر؟"

حدت المظلة وأجابت: "لا تشغل بالك. أراكَ غداً"

لوّحت بابتسامة صغيرة متوترة قبل أن تتحرّك وهي تنظر حولها بحذر، وعندما أوشكت على خفض حذرها، عاود

تريستان الظهور مجدداً وتبعها بسيّارته فانعطفت ودخلت إلى إحدى البقّالات التي تعمل على مدار اليوم، ثمّ راقبته من خلف الرّفوف

"سحقاً! إنّه يتعقّبني.."

شتمت بامتعاض، ثمّ التقطت هاتفها وتجمّدت للحظة؛ لا تعلم من تهاتف، لن تظهر الشرطة ما لم يحدث اختراق واضح للقانون، لن تحرج نفسها مع هيغنز ولن تزعج سكارليت، لذا لا يوجد سوى مارسيل

أغمضت عينيها، ثمّ حزمت قرارها واتّصلت بهاتفه الشخصي أوّلاً لتسمع صوت الخادم الآلي. جرّبت الاتّصال بهاتف المنزل وهي تتوقّع النتيجة المخيبة للآمال مسبقاً، ثمّ نظرت إلى تريستان مجدداً وانتظرت حتى زفرت بارتياح وعاد إليها الأمل عندما توقّفت

فتحت الأضواء كلّها ووقفت أمام المرآة، ثمّ هزّت رأسها مستنكرة: "لا بدّ أنّها دهون، مستحيل أن أكون... حبلى!"

جلست على الفراش بعد أن فقدت القدرة على الوقوف. أرادت أن تخرج على الفور لتبتاع الاختبار المنزلي، ولكنّها خافت من الخروج في هذا الوقت وحدها. حاولت النّوم وانتظار الصّباح، لكنّها لم تتذوق طعمه؛ إذ أصابها الأرق من كثرة التفكير ولم تنم سوى ساعاتٍ متفرّقة

اتجهت إلى أقرب صيدلية وطلبت افضل نوع من الاختبارات المنزلية للحمل. لاحظ من حولها توتّرها لكنّها لم تكترث وأسرعت لدورات المياه الخاصّة لتجرّبه فوراً، وكانت دقائق الانتظار تلك هي أطول وأرعب دقائق

سيارة شرطة، وترجل منها الشرطي ليبتاع شيئًا

شتم تريستان من تحت أنفاسه عندما تحدثت مع الشرطي وغادر موقعه، فأسرعت بالهرب حتّى وصلت لمبناها وإلى شقّتها الجديدة بسلام. أحكمت إقفال الباب وتحققت من النوافذ رغم أنّها تسكن في طابقٍ عالٍ، ولكنّ الحذر واجب. استحمّت لتغسل عنها تعب اليوم وتريح عضلاتها المشدودة، ورغم ذلك، نامت غير مرتاحة البتة، تتقلب باستمرار على الفراش، وتحاول مطاردة النوم الذي يهرب بعيداً عنها

وفجأة، سمعت أصواتاً غريبة، فاستيقظت لتجد تريستان يقف عند طرف الفراش، ملامحه مرعبة وسط الظلام الخافت. خفق قلبها بسرعة وصرخت صرخة قصيرة قبل أن

تجلس وتدرك أنّه كان مجرّد كابوس! تثاقلت أنفاسها واختنقت بذكرى رائحة عطره، فأسرعت لدورة المياه وانحنت أمام المرحاض، لكن لم يحدث شيء، لذا عادت إلى الفراش بتعب وهي تضع يداً على قلبها، تتساءل ما خطبها اليوم

تذكّرت كلام كريستين عن معدتها المضطربة وفكّرت بصوتٍ عالٍ: "لم تضطرب معدتي هكذا من قبل" شهقت بفزع: "هل يعقل أنّي أعاني من التهاب المعدة؟ أو الكبد الوبائي؟"

زفرت بإرهاق قبل أن تبحث في هاتفها عن أعراض كلّ تلك الأمراض، حتّى تتوصّل إلى تشخيص معقول

"غثيان؟ نعم.. إمساك؟ لا! انتفاخ في البطن؟" نظرت إلى بطنها قليلاً ثمّ تابعت القراءة: "هناك انتفاخ بسيط، ولكنّي لا أعاني من هذه الأعراض

الأخرى"

غيرت السؤال وهي تشتم محرّك البحث الذي سيخبرها أنّها مصابة بالسرطان في أيّ لحظة

"يقولون هنا إنّ التهاب المعدة والأمعاء الفيروسي السببان الأكثر شيوعاً للغثيان، ويمكن أن يحدث الغثيان نتيجة لحالات طبيعية مثل...."

نظرت للفراغ ثمّ للتقويم المعلّق على الحائط لبرهة طويلة. مرت العديد من الأفكار أمام عينيها، لكنّها طردتها باستنكار وسخرية قبل أن تعاود النّظر إلى الشاشة وترى رابط الموضوع التّالي الذي يذكر الحمل، وهذه كانت الإشارة التي جعلتها تشهق بفزع، وكأنّها سمعت صوت رعد مرعب في يوم عاصف!

في حياتها... إلى أن ظهرت النتيجة الإيجابية التي أكّدت شكوكها

جلست وهي متخدّرة الأطراف، عاجزة عن التّصديق. انهمرت الدموع نتيجة المشاعر التي تصادمت داخلها كالأمواج العنيفة، ما بين خوف وأمل، ثمّ همست أفكارها بصوتٍ مختنق: "أنا حُبلى.. بدون زواج. مارسيل.." ردّدت بارتباك: "يا إلهي يا إلهي... ما الذي فعلته؟"

غادرت المكان وجسدها ما يزال يرتعش. استقلّت سيارة أجرة وهي تحتضن حقيبتها وكأنّها السّند، ثمّ قصدت أقرب عيادة وسألت عن أيّ طبيبة نساء وولادة متاحة

"سوف أدخلك إلى د. أميليا ستيفينز ولكن أمامك ثلاث أمّهات، هل هذا مناسب؟"

أجابت بصوتٍ متوتر: "أيّ شيء مناسب. شكراً لك."

طلبت منها موظفة الاستقبال أن تستريح في قسم الانتظار، حيث جلست بين النّساء الحوامل وبطونهنّ المكوّرة، أزواجهنّ الداعمين وأطفال صغار يبدون متحمسين. كانت تحدّق بهم جميعاً وهي صامتة، تخفي توترها وخوفها، ولكنّها لم تستطع أن تتماسك أكثر أمام الطبيبة

"كيف أساعدك يا آنسة سميث؟"

تحدثت بسرعة: "أجريتُ اختباراً منزلياً وكان إيجابيّاً وأريد التّحقق من ذلك، ولديّ أسئلة!"

تبسمت الطبيبة بنعومة: "حسناً، اهدئي أولاً... شهيق وزفير"

أخذت روبي شهيقاً وأطلقت زفيراً

مثلما طلبت منها، ثمّ استلقت على الفراش بجانب جهاز الطبيبة التي قالت: "ستشعرين ببرودة المادّة، حسناً؟"

"حسناً"

مرّرت الطبيبة الكاشف بينما روبي تراقب الشّاشة بترقّب، تنتظرها أن تتحدّث وتقول شيئاً

"مبارك، أنتِ حبلى بالفعل. انظري هنا... هذا هو الجنين. طفلك"

انهمرت دموعها لا إراديّاً بسبب خوفها، ثمّ همست بصوتٍ مرتعش: "كم.. عمره؟"

أجابت الطبيبة مشيرةً إلى الشاشة: "وفقاً للمعلومات التي زوّدتنا بها، وما أراه الآن فأنتِ... في الأسبوع السادس"

"د. ستيفينز! أنا لم أعلم أنّي حبلى. كنت أشرب وشربت القليل البارحة! فهل الطفل بخير؟ هل سيؤثر هذا به؟ هل هو مشوّه أو ما شابه؟"

"معاقرة الكحول في الأسابيع الأولى كانت لتسبّب لك الإجهاض، ولكنّك بخير وكذلك الطفل. سأطلب بعض التحاليل منكِ لنتحقق من سلامتك وسلامته بالكامل، اتفقنا؟"

سردت الطبيبة تعليماتها أكثر، وكانت روبي تسجل على هاتفها النقاط المهمّة وتسأل عن كلّ ما تريد معرفته، ثمّ قامت بأخذ عينة من دمها وأخبروها أنّهم سيتواصلون معها خلال أربع أو ثلاث ساعات، فهاتفت هيغنز وأعلمته بتأخّرها في العيادة وأنّ الأمر ليس خطيراً

انتظرت في حديقة المشفى حتّى

هاتفوها وزارت الطبيبة التي طمأنتها عن صحّتها وصحة الطفل، ولا تصدق روبي أنّها أصبحت أمًّا! شعور جديد، لكن مرعب لأنّه لم يكن متوقعاً وكما خططت له وتخيلته، وكان أكثر ما يشغل تفكيرها هو الأب الذي لا تعلم كيف تواجهه بهذا الخبر، وكيف سيتقبّله...

***

أسرعت إلى المطعم واعتذرت من هيغنز الذي درسها قليلاً قبل أن تباشر العمل، ولكنّها لم تكن بحيويّتها المعتادة كالسّابق، تشرد بذهنها عدّة مرّات حتّى بات من حولها يتساءلون، لذا أخذت نفساً عميقاً ورسمت ابتسامة على وجهها كي لا تخسر عملها، ثمّ سمعت صوت زميلها في الاستقبال وهو يقول عبر اللاسلكي الخاص:

"روبي؟ لدينا زبون. طاولة خارجية."

"حسناً... هناك واحدة شاغرة. سآتي وأصطحبه"

توجّهت إلى منضدة الاستقبال ورأت مارسيل. كاد فكّها أن يسقط لصدمتها، فسيطرت على أعصابها ولكن ليس بسرعة كافية تخدعه بها. مرّر عينيه عليها وكأنّه يتفقّدها، ثمّ سأل بهدوء مدعياً الجهل: "هل تعملين هنا؟"

أجابت بتحفظ: "أجل" انتظرت قليلاً ليبادر ويسألها عن حالها، ثمّ قالت برسمية عندما تأخّر: "اتبعني، سوف رشدك إلى طاولتك"

"حسنًا"

انطلقت أوّلاً وراقبت خطواتها بحذر، تشعر بوجوده خلفها وتحاول ألا تتوتّر، ثمّ قالت عندما جلس: "ما هو طلبك؟"

"أرغب برؤية القائمة"

استغربت قليلاً؛ تعلم أنّه يحفظها، ولكنّها أعطته الجهاز اللوحي وأخبرته أن يأخذ وقته، ثمّ انسحبت لتملأ مشروبات بعض الزّبائن، وتجلب التّحلية لآخرين. كانت تشعر بنظراته تلاحقها، لم تعلم ما إن كان يقوم بتحليل حركاتها أم ماذا، ولكنّها استمرّت بالتظاهر بالهدوء حتى بعد أن عادت إليه

"هل تودّ أن تطلب الآن؟"

"أجل، أودّ دجاج سوڤلاكي مع أرز، سلطة اليونانية"

نقرت على الجهاز اللوحي باحترافية، ثمّ سألت بنبرة متزنة: "والمشروب؟"

ردّ بهدوء: "ماء فقط مع—"

قاطعته دون إدراك: "ليمون ونعناع"

صمتت فجأة عندما أدركت ما فعلته.توقّف الزمن للحظة، حدّقا في بعضهما وأوشكا على خوض محادثة صامتة وعميقة، لكنّها تنحنحت بخفّة لتكسر الصّمت: "هل هذا كلّ شيء؟"

أجاب محدقاً بها: "أجل..."

***

"طلب الطّاولة رقم 4 جاهز"

"قادمة!"

حملت الأطباق لاحقاً وذهبت لتضعها على طاولة مارسيل الذي كان يودّ قول يءٍ ولكنّه لم يستطع؛ فلم تقف روبي وقتاً طويلاً عند طاولته، وأشغلت نفسها بكلّ شيء آخر عداه

تناول طعامه في هدوء، مسترقاً النظرات إليها وهي تعمل، تبتسم أو تضحك برقّة مع أحد الزّبائن، يشتاق

إلى ذلك عندما كان يملكه دون أن يدرك قيمته. كانت رسمية الحوار بينهما موحشة وليس بالنسبة إليه فقط، بل لكليهما، فصعبٌ جدّاً بل مؤلمٌ أن تصبح رسمياً فجأة ومع شخص خضت معه الكثير...

عادت بعد أن التقت نظراتهما، وفهمت أنّه يستدعيها. دفع الفاتورة وهمّ بالرّحيل دون قول شيء مجدداً، ليطفو غضبها للسطح وتقول مزيفةً اللامبالاة، لكن نبرتها حملت الحقد الصامت: "أعتذر على الإزعاج ليلة البارحة، اتصلتُ عن طريق الخطأ. هل رأيت الصال يا ترى؟"

أجاب بكلمة واحدة ومباشرة: "رأيته"

قالت بنظرة ازدراء: "ولم تفكّر بمعاودته؟"

نظر لعينيها مليّاً وكأنّه يبحث عن شيء، ثمّ أجاب: "فكّرت، ولكنّي لم أفعل"

ابتسمت بتكلّف: "فهمت، لمَ قد تكلّف نفسك العناء؟"

"لا تحلّلي كما يحلو لكِ"

تحدّته بنظراتها الجادّة: "هل لديك شيءٌ لتقوله إذاً؟"

تشابكت نظراتهما وكأنّهما في مواجهة لإثبات القوّة، ثمّ أجاب بجمود: "لا"

أومأت ببرود: "لقد اتصلتُ بك البارحة [illegible]د، فقد كان هناك زبون يتعقّبني حتّى بعد أن غادرت العمل. علقت في البقّالة ولم أعلم من أهاتف لذا اتصلتُ بك... وجيد أنّك لم تجب، لأنّه لو تكرّر الموقف مجدداً فسأتذكّر ألّا أتّصل بك أبدًا"

حملت أطباقه الفارغة وتجاهلته متجهة للمطبخ، ولم تخرج حتّى تحققت من رحيله وعاد إليها هدوؤها... ساعدت بتنظيف الطاولات والأرضيّة قبل أن يجمعهم هيغنز جميعاً ويتحدّث إليهم بصوتٍ عكس شخصيته الصارمة:

"سيحلّ يوم الحبّ بعد غد، ممّا يعني أنّ المطعم سيكون ممتلئًا في الصباح والمساء. أغلبكم قد أخذ إجازة ذلك اليوم. سنعمل بنقص وسيكون الأمر مرهقاً ولكني لن أحرم أحداً من إجازته المستحقة ولن أهلك الآخرين بالعمل، ـا سأدفع الضّعفين للموجودين كعامل محفّز"

تهامس الموظفون في ما بينهم، ولمعت عينا روبي بحماسة وترحيب للمزيد من المال

"سيأتي فريق غداً وسوف يقوم بتجهيز المطعم وتزيينه وما إلى ذلك ليكون أنسب وأرقى ليوم الحبّ والمواعيد وإلخ إلخ... سأرسل قائمة في المحادثة الجماعية الخاصّة بنا وبها توزيعكم" أردف بتهكّم: "وإذا انفصل أحدكم عن شريكه أو شريكته فليسجّل اسمه وينشغل بالعمل عوضاً عن التفكير"

تفرّقوا بعد أن انتهى من كلامه، ثمّ نادى روبي التي تركت ما بيديها وعادت إليه لتسأل: "ما الأمر؟"

"[illegible] ون مزاداً آخر هذا العام في متحف فرانسيسكو، واختاروني كمتعهد الطعام مجدداً، فهل ترغبين في أن أدرج اسمك؟ نحن بحاجة إلى نُدُل، وهناك مشرب مفتوح في الهواء الطّلق أيضاً"

تذكّرت أمسية المجرمين وصمتت لتفكّر، ثمّ قالت: "هل يمكنك أن تدرج اسمي في المشْرَب؟"

عدّل جلسته ونظر إليها مستنكراً: "تريدين العمل هناك؟"

رفعت كتفيها بعد أن اختارت الخيار الذي لم يتطلّب حركة كثيرة وبكعبٍ رسميّ سيؤلمها لعدّة أيّام، ثم قالت: "هذا ملعبي"

"هل أنتِ واثقة من أنّك تودّين العمل هناك؟"

عقدت حاجبيها مستغربةً: "بالطبع... ماذا لديك شكوك في ذلك؟"

حدّقا في بعضهما قليلاً قبل أن يشير بعينيه إلى بطنها ويعاود النّظر إليها، لتتسع مقلتاها وتنظر حولها بسرعة وكأنّها تخشى أن تسمعها الجدران

أيضاً

همست: "هل الأمر واضح؟"

"الوجه المشرق بسبب العرق، الوجنتان المائلتان للّون الورديّ، والوجه المتقزّز الذي تحاولين إخفاءه كلّما دخلتِ إلى المطبخ واختلطت الروائح على أنفك" أردف: "أنجبت زوجتي ثلاثة أبناء لذا لديّ خلفية عن ذلك"

تنهدت بإحباط: "أرجوك لا تخبر أحداً، خاصةً مارسيل"

رمقها بنظرة لا مبالية: "ليس خبرًا يخصني لأعلنه"

'يمكنني العمل دون تذوّق شيء، فأنا أحفظ الكميات عن ظهر قلب. لا يمكنني أن أخدم كنادلة طوال الأمسية بالكعب العالي والزّي الرسمي الذي قد يكشف أمري"

وطقم الأطباق الخاصّة باليوم، والشوكولا التي يوزّعونها على الزّبائن قبل رحيلهم لتكون ذكرى لطيفة. لقد اعتنى هيفنز بكلّ شيءٍ جيداً من أجل سمعته وسمعة المطعم الذي يهتمّ له أكثر من أيّ شيء آخر، وحرص على توفير جوٍّ ملائم لجميع الزبائن حتى يحظوا بتجربة لا تُنسَى...

"لا أصدّق أنّك أحضرتني لتناول الإفطار هنا، المكان رائع والطّعام لذيذ جدّاً يا عزيزي"

"هذه أوّل وجهة، ثمّ سآخذك باليخت ذ ـ ـة"

"حقّاً؟ إلى أين سنذهب؟"

قبّل يدها قائلاً: "مفاجأة.."

التفتت روبي إلى ثنائي آخر، شابّة جميلة ذات بشرة سوداء وقوامٍ صحي

زفر بتململ: "حسناً، سأدرج اسمكِ مع أحدهم"

فركت يديها في توتّر، ثمّ سألت بصوتٍ خافت: "هل ستفصلني في المستقبل بسبب حملي؟"

رمقها ببرود: "حتّى يتسنّى لك مقاضاتي وتصبحي ثرية؟ لا... والآن اذهبي لمنزلك"

ابتسمت بامتنان: "شكراً جزيلاً يا هيغنز"

***

ب المطعم ومشت إلى مبناها وهي حذرة. تلقي نظرات خلفها وحولها تحسباً لظهور تريستان مجدداً أو أيّ شخصٍ آخر مشبوه. تنهدت تنهيدة مثقلة بعد أن بدّلت ثيابها وتسللت إلى فراشها الدافئ، ثمّ لمست بطنها

الصغيرة وهي غارقة بالتفكير، تحاول أن تجد الضفة وتبدأ بالتّقبّل والاعتراف بحقيقة ما يجري

همست لنفسها بحذر: "لدي طفل ينمو داخلي، طفلٌ حقيقي سوف يناديني ماما... لا أصدّق ذلك" ترقرقت عيناها بالدموع وابتسمت قبل أن تمسحها برفق وتنظر للسماء عبر نافذتها: "سأعتني بكَ جيداً سواءً كنت صبيّاً أو فتاة، و... يجب أن أخبر والدك بطريقة ما"

سكتت للحظة طويلة، ثمّ بدأت تغنّي [illegible] النوم لطفلها حتّى تلاشى صوتها، ونامت وهي تسند يدها على بطنها بعطف وحنان...

9: وردة

الحبّ شعور قوي، له أنواعٌ وأشكال كثيرة، ويُعبّر كلّ شخصٍ عنه بطريقته؛ فهناك من لم يقل كلمة أحبّك ولكنّها كانت واضحة في أفعاله، وهناك من يملك الشجاعة ليقولها ويظهرها أيضاً، من يحبّ وتخونه التعابير والكلمات لعظم ما يشعر به، ومن يخاف الارتباط والوقوع في الحبّ كي لا يواجه مشاعره.. وأخيراً، من تجاوز درجة الحبّ حتّى لم يعد مجرّد شعور بالنسبة إليه، بل أصبح احتياجًا لا يستطيع العيش من دونه...

***

وقفت روبي -التّي وقع اسمها في مناوبة الإفطار والغداء-، تتأمّل زينة المطعم، البالونات الحمراء، المحارم

وممشوق بهرها كثيراً، وزوجها المفتول العضلات الذي يبدو وكأنّه مدرّب كمال أجسام.كانا يبتسمان لبعضهما ويتحدثان عن خطط اليوم ومن سيفاجئ الآخر، يضحكان وكأنّهما في عالم خاصّ، مما جعل روبي تبتسم برقّة قبل أن تتحرّك وتخدم إحدى الطاولات. عائلة مكوّنةٌ من أب، أم، وطفل صغير قامت بإعطائه بالوناً أحمر اللّون على شكل قلب

أدلى الزوج بطلباتهم جميعاً، ثمّ نظر إلى زوجته المشغولة بهاتفها وسأل بحذر: "عزيزتي؟ هل تريدين إضافة شيء؟"

ردّت ببرود دون أن ترفع عينيها عن هاتفها: "لا. أحضروا الطعام بسرعة فقط"

أومأت روبي بعفوية رغم استنكارها

لأسلوبها، ثمّ تمتمت بعيداً عنهم: "لا يوجد شيء مثالي في هذا العالم"

عادت بطعامهم بعد أن اعتنت بزبائن آخرين وودعتهم، ولا تزال الزّوجة تكتب على هاتفها حتّى تنهد زوجها بإحباط قائلاً: "هل يمكنك أن تؤجلي العمل قليلاً؟ نحن في إجازة ويجب أن ننسى أمره ونقضي وقتاً ممتعاً معاً كعائلة"

ردّت بنظرات حادّة وصوتٍ منخفض: "أنت من أجبرني على أخذ إجازة من العمل. قلت لك إنّي لا أرغب بذلك ولكنك أصرَرت"

قالت روبي بأدبٍ وهي متردّدة: "عذراً، أين أضع عصير الليمون؟"

"إنّه لي. هاتيه!" قالت المرأة بازدراء، قبل أن تنتشله من يدها في حركة

سريعة وغير متوازنة تسبّبت بسكبه على ملابسها، فشهقت بغضب، ثمّ صرخت في وجه روبي: "هل أنتِ حمقاء؟!"

أجفلت روبي وردّت بارتباك: "أنا آسفة ولكن—"

"ولكن ماذا أيّتُها الحمقاء؟ هل تعلمين كم ثمن هذه الملابس؟"

حاول الزوج التدخل قائلاً: "عزيزتي، اهدئي!"

"اخرس فأنا أتحدّث!"

الجميع حولهم، وأخذوا يراقبون ويتهامسون لدرجةٍ أشعرت روبي بالإحراج كثيراً

"عزيزتي، اهدئي أرجوكِ فالنّاس يراقبوننا"

"لقد سكبت الشراب عليّ فكيف لي أن أهدأ؟"

قالت روبي بنبرة مهذبة ومرتعشة قليلاً: "لقد انتشلتِ الكأس من يدي بعنف فانسكب. لدينا دورة مياه ويمكننا مساعدتك"

لم تتوقف الزوجة عن الهجوم مجدداً وبكلمات أقسى: "وتجرئين على التّبرير؟ أنت من سكبه لأنّك عمياء وغبية! كيف لك ألّا تتذكري أنّ عصير الليمون لي؟ هل تخدمين وأنتِ لا تملكين دماغاً لتفكّري؟ يجب أن [illegible]ي ورقة ملاحظات على جبهتك لتتذكّري وتغطّي ندبتك البشعة جيداً" بكى طفلها فجأة بسبب صراخ والدته التي أضافت: "لن نأكل هنا، ولن ندفع للطعام ولخدمة سيّئة. هيّا بنا!"

نهض الزّوج المحرج وحمل طفله،

وحينها هتف أحد الزّبائن: "رأيتكِ تنتشلين الكأس منها يا سيّدة فلا تكذبي وتنفجري في وجه الفتاة المسكينة!"

"وهل طلب أحدهم منك حشر أنفك؟"

أتى هيغنز حينها وأمر روبي أن تذهب للمطبخ، فأومأت دون قول شيء وانسحبت بهدوء لتختبئ في زاوية بعيدة، ثمّ وقف أمام الطاولة وسأل بملامح مهذّبة ودون ابتسامة: "ما المشكلة يا سيدة؟"

رفعت حاجباً وسألت باستعلاء: من أنت؟"

"أنا المالك"

قالت بامتعاض: "اختر موظّفيك جيداً"

"ماذا فعلت نادلتنا يا ترى؟"

"لقد سكبت الشّراب على ملابسي وقالت إنّي انتشلت الكأس منها!"

زفر زوجها مستسلماً وقال باستياء: "كنتِ السّبب، كفاكِ شجاراً ولنذهب فقط!"

صرخت في وجهه: "هل تظنّ أنّي أكذب وأختلق الأمر؟"

ربّت الأب على ظهر ابنه الذي لا يزال يبكي وتمتم ببعض الكلمات وهو مستاء، فقال هيغنز: "أنتِ تدينين باعتذارٍ لنادلتنا يا سيّدة"

"لا أدين بأيّ شيء لتلك الحمقاء"

الآنسة سميث نادلة محترفة ولم تخطئ منذ بدأت العمل لديّ. إنّها امرأة محترمة ولها الحقّ في أن تقاضيكِ الآن، وهناك كاميرات تستطيع تأكيد الحقيقة ... لو أردتِ ذلك"

ازدردت وهي منزعجة، ثمّ قالت: "هذا المطعم سيئ ولن آتي إليه مجدداً"

ردّ هيغنز بابتسامة باردة: "لن تستطيعي لأنّي لن أستقبلكِ مجدداً... يومٌ سعيد" أشار بيده: "تفضّلي بالخروج من هناك"

تعالت الهمسات الساخرة حولها، فتركت المكان وهي غاضبة ومحرجة في الوقت ذاته، ثم التفت هيغنز نحو الضيوف والتمس العذر منهم قبل أن يعود للدّاخل، وإلى روبي التي كانت تنتظر عودته بصمت وإحباط:

ن انا مطرودة؟"

"لا."

خفضت بصرها للأرض: "لم أسكب الشراب عليها... أقسم لك"

لين نبرته الصارمة قليلاً: "علمتُ ذلك،

والآن بدّلي قسمك مع رين وتابعي العمل"

***

تنفست روبي الصعداء بعد انتهاء ورديّتها التي لم تخلُ من طاقة الحبّ المتفجّرة، والتي جعلتها تشعر أنّها الشخص الوحيد المكتئب بين البالونات الحمراء، الورود، وأحاديث العشّاق السعيدين. غادرت المطعم هاربة من أجوائه الحميمية، وقصدت الشاطئ لتحصل على الهواء المنعش دون إزعاج، لكنّها صادفت زوجين، يجلسان ومحاطين بالشّموع، يضحكان ويتحدّثان، لتتنهّد تنهيدة طويلة وتجلس خلف ما يحجبهما عنها

"هل تريدين شراء وردة يا آنسة؟"

تنهدت مجدداً وهي تلمس رأسها، غير

مصدقة لما يحدث، ثمّ نظرت إلى الصبي ذي الملامح البريئة وأشفقت عليه قائلةً: "حسناً، أعطني واحدة"

"واحدة فقط؟"

أشارت حولها: "أنا وحدي كما ترى"

"ليس لديك موعد إذاً" رفع كتفيه: "على الأقلّ، أنتِ أفضل حالاً من الفتاة الحمقاء التي رأيتها قبل قليل في الجهة الأخرى، أظنّ أنّ رفيقها انفصل عنها. لقد اشترت الورد لتقطف بتلاته وتنثرها على الرّمال"

رفعت حاجباً بانزعاج: "لا تسخر من ـم الآخرين يا ولد، فأنت لم تكبر بعد وتخض تجربة حبّ جادّة وقوية"

ردّ بغرور وسخرية: "لن أبكي لو وقعت في الحبّ فالبكاء للفتيات"

"غير صحيح، والآن أعطني وردة

واحدة وارحل... هاك نقودك"

وضع النقود في جيبه، ثمّ قال: "أقترح أن تخرجي في موعد مع نفسك، أو تنامي. النّوم جيد ويجعلكِ تتخطين اليوم يا خالة"

هتفت باستنكار: "خالة؟ لست كبيرة لهذا الحدّ! لا أزال في عشرينياتي"

هرول الصّبي مبتعداً وهو يضحك قبل أن يتسنى لها قول شيء آخر، ثمّ تأمّلت الوردة الحمراء واستنشقت عبيرها وهي تشعر بغيمة الحزن فوقها، حتّى تذكّرت طفلها وتبدّد حزنها قليلاً، ست وهي تلمس بطنها: "هذه الوردة لي ولك. ما رأيك؟ أو ما رأيكِ؟ لا أعلم ما إن كنت صبيّاً أو فتاة لذا سنبقي صيغة المذكر حتى إشعارٍ آخر. على أي حال، ما رأيك أن نخرج في موعد معاً؟ سآكل طعاماً صحيّاً ولن

أشرب الصودا، وأشعر برغبة شديدة في تناول الكرز و... رؤية أبيك"

***

وفي جناح إيزابيل الفاخر في فندق إمباير، كانت تجلس على الأريكة وهي تعقد ذراعيها وترمق أندرياس الذي استولى على المطبخ بعد أن تسبّب بإلغاء كافّة عروضها دون سابق إنذار، ليقضي اليوم معها فقط...

"مهما كان الشيء الذي تطبخه فلن آكله، كما أنّ الرّائحة القويّة تفوح في الأرجاء!"

ر رأسه نحوها بابتسامة جانبية: "أنا أطبخ لك وجبة مكسيكية لذيذة جدّاً، ويمكننا حلّ مشكلة الرّائحة بأيّ معطّر جوّ أو شركة تنظيف لو أردتِ"

"كيف هدّدت المالك وأجبرته على

إلغاء عروضي؟ هل وضعت مسدّساً على رأسه يا ترى؟"

ضحك برقّة وهو يركّز في طبخه: "آي آي لا، لقد تحدّثتُ إليه بشكلٍ ودّي فقط"

قالت ببرود: "عرّف كلمة ودّ في قاموسك، فهو لا يردّ على مكالماتي أيضاً. أخبرني في أيّ نهرٍ دفنته؟"

"لم أدفنه في أيّ مكان، والآن قومي بتحضير الطّاولة لكلينا من فضلك يا حبّي"

هتفت بحدّة: "توقّف عن مناداتِي بحبّك!"

نهضت بتكبّر وفتحت خزانة المطبخ لتجلب طبقين وتحضّر الطّاولة على مضض. ثمّ أتى أندرياس بالطّبخة التي أعدّها إلى جانب الخبز والأرز المعدّ

على الطريقة المكسيكية

ابتسم قائلاً بنبرة واثقة: "اجلسي"

"قلت إنّي لن آكل. ألا تفهم؟"

"أحبّ هذه الفقرة، عندما نتشاجر وأنتصر في النهاية"

عقدت ذراعيها ورمقته قائلةً: "هل تظنّ نفسك مضحكاً؟"

"أنا مضحك! لدي حسٌّ فكاهيّ فريدٌ من نوعه... والآن اجلسي حتّى تأكلي معي وأعطيكِ هديّتك وإلّا فلن تري مسرحك مجدداً أبداً"

ـ ناظريها وجلست، ثمّ خدمها كالأميرة ووضع طبقاً أمامها لتزفر ببرود وتبدأ بتناول الأرز، بينما هو يراقبها بابتسامة صغيرة:

"ستأكلين اللحم مع الخبز بيدك

وليس بالملعقة"

ردّت باشمئزاز: "لا أريد ذلك"

قال بنظرات تحدٍّ: "سترغبين وستأكلينه كما أخبرتك"

"لن آكله إذاً"

"آي آي يا حبّي، كم أنتِ ممتعة عندما تجادلينني"

"هل هذا ما يجعلك باقياً إذاً؟ لأنّه لو كان كذلك فسوف أتوقّف عن كوني ممتعة"

ابتسمت بتكلّف قبل أن تأكل اللحم مع بر، ليضحك أندرياس: "هذا مستوًى جديد، وأنا متحمّس جدّاً"

تلقّى رسالة على هاتفه، فمسح يديه ونهض بعد أن أخبرها أنّ هديّتها قد وصلت، وكانت إيزابيل تتوقع

مجوهرات ثمينة، عطورًا نادرة وغالية الثمن، منزلًا على أحد الشواطئ، وربّما سيارة فارهة، لكنّ أندرياس عاد ومعه قفص كبير به عصفوران!

هتف بابتسامة عريضة: "مفاجأة!"

حملقت بالعصفورين باستغراب ، وكان كلاهما أخضر اللّون عدا العنق الذي يتدرج لونه من الأصفر إلى البرتقالي الداكن، ولكنّ طرف الذيل كان أرجوانيّاً لأحدهما وأزرقَ للآخر

لم تستطع أن تخفي اشمئزازها وهي تقول: "ما هذا؟"

هدان يا حبّي زوجا ببّغاء فيشر" وضع القفص فوق الطّاولة: "تأمّلي ظرافتهما"

فتح القفص ليخرج واحداً فانتفضت ايزابيل من مكانها ونهضت في لمحة

بصر مبتعدةً عنه، ليجفل متعجبّاً قبل أن يبتسم بمرح، بينما هي تحاول أن تتمسّك بالوجه الصّارم

أشارت بإصبعها: "أعده إلى قفصه وأخرجه من هنا!"

"هيا يا حبّي، لا يعقل أنّك خائفة من طير؟ تعالي والمسيه"

هتفت وهي غاضبة: "أحذّرك من الاقتراب!"

ولكنّ أندرياس لم يستمع، بل أطلق الطير الذي طار باتجاهها لتصرخ وتغمض عينيها محاولةً الهرب، وحينها مسكها واحتضنها لتضرب صدره وتفرغ غضبها عليه

"اهدئي وانظري... إنّه بعيد"

نظرت إيزابيل إلى حيث الطّير الذي حطّ على منضدة المطبخ، ثمّ أرادت

الابتعاد ولكنّ أندرياس زاد تطويقه عليها بشكلٍ لطيف ودافئ:

"لا يستطيع هذا النّوع الطّيران بشكل جيّد رغم أنّه يهوى ذلك، لذا يجب أن نعطيهما حصّتهما دون فتح النّوافذ. يمكنهما أن يأكلا الكثير من الأطعمة المتنوّعة غير البذور، ويحبّان الاستحمام لذا يجب أن تعتني بهما جيداً، وهل تعلمين أنّ هذا النّوع يحبّ الأنشطة الحركية؟ لهذا اخترت القفص الكبير وجهزته لهما حتّى لا يصبحا عصبيين مثل إحداهنّ"

"لم أعتني بهما. خذهما بعيداً واخرجوا جميعاً من جناحي!"

ضحك بسخرية: "جناحك؟ مع الطيور! آه هذا مضحك جدّاً"

دفعته عنها: "أنا جادّة"

تبسم قائلاً: "وأنا أيضاً. هذه هديّتك وستعتنين بها، سوف أساعدك فلا تقلقي" تجاوزها وأمسك الطير بلطف، لتبتعد عنه مسافة كبيرة وهي حذرة حتّى وضعه في القفص بعد مداعبته قليلاً: "صاحب الذّيل الأزرق سيكون اسمه أندرياس، والآخر باسمكِ يا حبّي"

"أخرجهما من هنا فوراً وإلّا!"

ابتسم مرحِّباً بالتحدّي: "وإلّا...؟"

زفرت أنفاسها بغضب، ثم قالت بنظرات حادّة: "هذا يكفي... لقد سئمت من هذا ـع وسئمتُ منك!"

"لكنّي لم أسأم بعد، ولم تنتهِ هذه الليلة أيضاً يا حبّي"

تأفّفت إيزابيل والتفتت مسرعةً إلى غرفتها، وضحك أندرياس عندما سمعها

تُحكم إقفال الباب بالمفتاح، وكأنّها وسيلة ناجحة لإبعاده، ثمّ تنهّد تنهيدة طويلة وهو مبتسم، التفتَ إلى القفص وفتحه ليلتقط علبة مخملية حمراء صغيرة كانت مخبّأة هناك، وبها خاتم زواج...

***

وفي تلك الأثناء، كان مارسيل يحضّر ملابسه وبعض المتعلّقات ليسافر ويقتل هدفاً آخر قد أُضِيف إلى قائمته، ثمّ توقّف عندما لمح روبي تقترب من المنزل، وأخفى كلّ شيء بسرعة قبل " كي لا تشكّ بشيء!

وقفت أمام الباب وقرعت الجرس عوضاً عن فتحه بنسخة المفتاح التي معها، ثمّ انتظرت قليلاً بينما اضطرب هو وتشوّش؛ يقلّب الاحتمالات في رأسه ولا يشعر برغبة في فتح الباب.

لقد بعثرته مجدداً ولا تنفكّ تفعل ذلك بمجرّد ظهورها حوله

فتحه بعد أن أحكم وضع القناع الهادئ. لاحظ اضطرابها ومحاولاتها لإيجاد كلمات مناسبة، لذا لم يقل شيئاً وانتظرها حتّى تحدثت باتّزان: "أعلم أنّي جئت في وقت مفاجئ، وكنت مترددة في القدوم من عدمه، لكنّ اليوم مميز للكثيرين ولديّ اقتراح... لنخرج معاً ونتناول العشاء في مكان ما أو حتى في المنزل قبل أن نتحدّث ونتفاهم بهدوء لنحدّد خطوتنا القادمة. يمكننا التحدث عن أيّ شيء وكلّ يء يخصّنا، بما في ذلك 005 وجاريد، عائلتك لو أردت وأيّ شيء آخر"

زفرت بارتباك طفيف، ثمّ قالت: "لقد حزمتُ ثوباً بسيطاً معي. سأتأنّق

وأنتظرك في حديقة سان مايكل العامّة، في المقعد الثالث الذي أجلس عليه عادةً، و..." وضعت الوردة في يده وتابعت: "يمكنكَ أن تعطيني هذه عندما تقابلني وسأتظاهر أنّي متفاجئة"

نظرت إليه بعينين حزينتين، ورأى طيفاً من نظرات الحبّ واللهفة التي تنظر بها إليه عادةً... أراد أن يتمسك بذلك الطيف ولكنه شعر أنه مقيّد!

قالت بصوتٍ أكثر نعومة، تبدي فيه اهتمامها: "إن أتيت فهذا يعني أنّك تهتمّ وترغب بإصلاح ما بيننا، والتوصّل إلى قرار يخصّ علاقتنا مهما كان، لذا سأنتظرك في ذلك المكان خلال ساعتين. هذا كلّ ما لدي".

التفتت على الفور ورحلت بخطواتٍ سريعة وكأنّها تهرب مما فعلته للتّو،

بينما جلس مارسيل إلى طاولة الطّعام ومعه الوردة، يحدّق بها تارةً وبحقيبته تارةً أخرى وهو حائر ولا يعلم ماذا يفعل، وكم يكره أن يكون جاهلاً في شيء... يحترق بين النارين مجددًا

***

عادت روبي إلى شقّتها بعد أن استغلّت وقت العودة في التهدئة من روعها. صدّت كلّ الأفكار السلبية التي تجعلها تتنبأ بما سيحدث بعد ساعتين واستبدلت بها أخرى إيجابية، ولكنّها لم تستطع أن تمنع تلك التي تباغتها فجأة ورغماً عنها، ولم تجد حلًّا سوى تجاهل والانغماس في ما تفعله

سرّحت شعرها بعد تجفيفه ووضعت مساحيق تجميل ناعمة، كما أخفت ندبة جبينها تماماً وهي تستمع لصدى كلام تلك الزّبونة المتسلّطة الذي

جرحها، وأخيراً ارتدت الثوب الذي كان يبرز بطنها بشكلٍ ظريف، وهمست محدّثة طفلها: "سأخبئك تحت المعطف قليلاً، ولكنّي سأخبره، فأنت تريده أن يعلم أيضاً صحيح؟ أنت تستحقّ أن يكون لك أب وهو يستحق أن يعلم... مهما كانت ردّة فعله"

غادرت الشّقة واستقلّت سيارة أجرة إلى الحديقة عوضاً عن ركوب الحافلة. جلست على المقعد المعتاد وانتظرت بابتسامة صغيرة على وجهها وهي تتأمّل النّاس وخاصّةً الأطفال. تتخيّل طفلها أو طفلتها وهي تلعب مثلهم أو ـل وتلتصق بها أو بمارسيل. تخيّلته وهو يلعب مع طفله ويدفعه في الأرجوحة، بينما تجلس وتراقبهما بابتسامة سعيدة. تخيلته نائماً على سجّادة نزهتهم في الهواء الطّلق، ويأتي صغيره ليزعجه ويحتضن

"على كلّ حال، أردت أن أخبرك بقراري... أنا أنهي علاقتي بك"

الرّيح لتبعثرها وتأخذها بعيداً، ولكنّ الرّياح لم تستطع حمل قلبها المجروح، ولا روحها الممزّقة

أغمضت عينيها اللتين تحرقانها لوقتٍ طويل قبل أن تتصل به، تعطيه فرصة أخيرة، وتعطي نفسها فرصةً أخيرة كذلك لتكون مثيرة للشّفقة! اتّصلت بهاتف المنزل، حتّى تمّ تحويلها للخادم الآلي الذي طلب منها تركَ رسالة بعد سماع الصّافرة...

"مرحباً" صمتت قليلاً ، ثمّ تابعت بصوتٍ هادئ: "لم تأت إلى الحديقة، ويجب أن أعترف أنّي توقّعت ظهورك هذه المرّة، أو تبريراً لتأخرّك على الأقلّ.

لست غاضبة منك بل خاب أملي بك للمرّة التي سأحرص أن تكون الأخيرة... فقد فهمت الرّسالة التي تحاول إيصالها يا مارسيل" تنهدت:

وجهه، أو يقبّله ريثما هي تلتقط لهما صوراً. تتخيّل ثلاثتهم معاً، عائلتها الخاصّة وإحدى أمنياتها في الحياة...

ولكن يبدو أنّها أمنية مستحيلة ولن تتحقّق؛ فقد نظرت للسّاعة على هاتفها ورأتْ أنّها تشير للثامنة تماماً، أي إنّ الساعتين قد انتهتا، ولم يظهر مارسيل بعد. ورغم كونها تعرف إلى أيّ مدًى هو دقيقٌ في مواعيده، فقد عذرته وقرّرت الانتظار قليلاً بعد متحججةً بالزّحام، حوادث طرقٍ بسيطة، عطلٌ مفاجئ بسيّارته وحتّى احتمالية أنّه يحضّر لهديّة أو حجز في مطعم مع مفاجأة، ـ سيخبرها أن تأتي للمنزل حيث سيطبخ لها

أعذار وأعذار... وآمال تندثر مع كلّ دقيقة تمرّ حتّى استسلمت وأطلقت الأفكار مع آمالها الخائبة في مهبّ

10: نهاية الرّحلة

في أحد موانئ لندن المظلمة، حيث امتزجت رائحة ملح البحر مع رائحة الزيت والشّر. وقف تشرشل بيلز، يدخّن سيجارته ببطء واسترخاء وهو يتأمّل السّفن الراسية وحاويات الشّحن المتنوّعة التي حمل بعضها سرًّا مظلماً...!

أطلق سحابة دخانية، ثمّ سأل بصوتٍ منخفض لكن حازم في الوقت ذاته: "هل هناك أيّ مشكلات يا هوك؟"

ابتسم هوك صاحب وشم الأفعى المحفور على عنقه بنشوة مجيبًا: 'بالطّبع لا يا رئيس. لقد حصلنا على الأعمار المطلوبة"

"ماذا عن الشّحنة التي سبقت ذلك؟ هل هناك من بقي؟"

"لا يا سيّدي، والزبائن سعيدون للغاية ويطالبون بالمزيد"

أومأ تشرشل: "ممتاز"

عقد هوك ذراعيه وتأمّل الأفق: "عليّ الاعتراف بأنّي اشتقت لهذا العمل معك. هل تركت المنظّمة بشكل نهائي؟"

"لقد انحلّت بعد المشكلات الأخيرة، وعلى المرء أن يسعى وراء لقمة عيشه، كما أنّي أجيد هذا العمل كثيراً، ولكنّه لن يكون العمل الوحيد" نفث سحابة أخرى، ثمّ قال بغموض: "لديّ مشروع سرّي كنت أعمل عليه منذ وأنتظر اكتماله"

'يبدو ذلك مثيراً"

ابتسم ابتسامة شاحبة، ثمّ داس على سيجارته المسمومة وقال: "أعلمني بكلّ المستجدات كالمعتاد"

صعد تشرشل إلى سيّارته التي يقودها حارسه تشيب، واسترق نظرة أخيرة إلى حاويات الشّحن التي يتمّ تحميلها للباخرة في مشهد تتراقص حوله الشياطين الخفية، فرحةً بالجريمة العظيمة، تغطّي الأصوات المكتومة التي صدرت من داخل الحاويات محاولةً شقّ طريقها إلى الخارج بيأس...

***

عاد مارسيل إلى المكان الذي اتّخذه كمخبأ بعد أن انتهى من مهمّة اغتيال كانت أسهل ممّا توقّع. اغتسل وتخلّص من كلّ متعلّقاته الخاصة بالمهمة قبل أن يترك المدينة، ويسرع إلى المطار حتّى يعود للسّاحل وإلى منزله الذي بات لا يطيق العيش فيه بدون روبي...

تمنّى لو أنّه يعود هذه المرّة ليرى

الحلوى وأغراضها المبعثرة في كلّ مكان، تمنّى لو يعود ويراها تجلس في بقعتها الخاصّة التي جهزتها لقراءة الكتب حتى ساعات متأخّرة من الليل، أو تغنّي وترقص في الأرجاء وتحيي المنزل بروحها المرحة، ولكنّه لاحظ تغييراً سبّب رعشة مفاجئة له؛ رأى نسخة مفتاحها بجانب الهاتف على المنضدة، وكان يُظهِر أنّ هناك اتصالاً فائتاً ورسالة مسجّلة. فتحها واستمع إلى صوتها الذي لم يكن متزناً، يحمل الكثير من المشاعر التي لا يستطيع أن يحدّدها ويميزها كلّها

تجمّد شيء ما في قلبه، بينما ظلّ جسده متجمّداً مكانه، يحاول استيعاب ما سمعه للتّو، ثمّ تحرّك بخطوات ثقيلة كما لو كانت قدماه تحت الماء وتفقد خزانة المطبخ باحثاً عن رقائق البطاطا والشوكولا التي تخصّها، ثمّ انتقل إلى

غرفة النوم المرتّبة، وفتح أوّل درج من المنضدة بجانب الفراش ليجده خالياً. لا وجود للحلوى الصغيرة التي تخبئها، ولا مستحضر الوجه الذي تضعه قبل النوم، حتى الخزانة فقدت ألوان ملابسها اللطيفة وعادت للألوان الداكنة القاسية، وكأنّ الظلام يغزوها مجدداً

لم ترحل روبي فقط بل مسحت كلّ أثر لها وكأنّها لم تكن موجودة قط. المنزل نظيف، ولكن نظيف منها. عاد ليعكس فراغ ووحدة مالكه الذي وقف يستمع لموج البحر الهائج حتّى شعر أنّه يوبّخه ويلومه على كلّ شيء، أو ربّما بغضب أن يتابع البحث حتّى أ جد دليلاً واحداً على الأقلّ، يثبت له أنّ روبي لم ترحل حقّاً وأنّها تركت شيئاً خلفها... وفعلت!

لكنّه لم يكن كما توقّع، فقد وجد زوجي

السوار اللذين اشترتهما لهما، يرقدان في سلة المهملات، في رسالة واضحة وأخيرة، تؤكّد فيها أنّ هذه العلاقة قد انتهت...

***

وصلت روبي مع الحافلة الخاصّة بالمطعم إلى متحف فرانسيسكو، وباشروا التّحضيرات مع الفريق في الحديقة حيث سيُعقَدُ المزاد. كان هناك مسرح صغيرٌ هذه المرّة، بالإضافة إلى طاولات للجلوس عوضاً عن الوقوف. ارتدوا الزّي الموحّد، واختارت مقاساً أكبر من مقاسها المعتاد لتخفي حملها، ساعدت زميلها رين بحمل حزم الشّراب وتجهيز المشرَب الذي نصبوه في الخلف، حيث تستطيع أن تراقب الضّيوف وترى المسرح مقابلها أيضاً

التفتت عندما شعرت بحركة خلفها،

لترى زميلها يحضر كرسيّاً ويضعه بقربها قائلاً: "لقد قال هيغنز أن أحضر هذا لكِ. سأحضر واحداً لي أيضاً وأعود!"

لمست الكرسيّ بابتسامة ممتنة للاهتمام النّادر الذي يظهره هيغنز لها، ثمّ قاطع تفكيرها صوت رجل مشمئز ميّزته على الفور للكره الذي تكنّه له... خافيير، المسؤول عن المتحف ومساعد فرانسيسكو

التفتت ترمقه بنظراتها الباردة مثلما يفعل، ثمّ ابتسمت ابتسامة استفزّته وقالت: "لم نفتح بعد، لذا انتظر قليلاً من فضلك"

نقر على الطاولة وهو ينظر لها باستعلاء: "سمعت بما حدث في حفلة مايورانو، وأحذّرك من ارتكاب أيّ حماقة هنا الليلة. مفهوم؟"

تفقدت الثلاجة متجاهلةً ما قاله، ثمّ شتمته بهمس عندما رحل، وبعد لحظات، ظهر هيغنز في جولة تفقّدية لطاقمه وسأل ما إن كان كلّ شيءٍ على ما يرام، لتومئ روبي وتقول: "نعم، نحن جاهزان"

"جيّد. سأكون في المطبخ المتنقل"

***

بدأ الضيوف بالتّوافد على أنغام موسيقى الفرقة الناعمة والمرَحِّبة، وعادت لروبي ذكريات الأمسية الأولى لها مع مارسيل، والرقصة الوحيدة التي بطلبها وحدّق فيها بعينيها، رقصة التي كانت مجرّد جزء من خطته ضدّ جاريد، فهزّت رأسها وطردت الأفكار متأمّلةً الضّيوف وهم يتّخذون مقاعدهم، ويتبادلون

الأحاديث القصيرة في ما بينهم

رين وهو يفرقع أصابعه: "النُّدل قادمون، فهيّا نبدأ"

أومأت روبي وملأت كؤوس الضيافة الواحد تلو الآخر. انطلق زملاؤها لخدمة الضّيوف، واستمرّوا بالعودة حتّى تأكّدوا من خدمة الجميع، وكان هناك من يأتي للمشرب من أجل طلب معيّن، فتقوم بتحضيره وتقديمه بابتسامة مهذّبة

اقترب شابٌّ مع رفقته وقال بصوتٍ مرتفع ومتحمّس: "أعطيني أفضَل مشروب لديكِ ولكن احرصي أن يكون خاليًا من الكحول، فأود أن أبقى متيقظًا لمزاد العازبات!"

قامت بتحضير المزيج الخاص الذي اخترعته، ثمّ قدّمته للضّيف الذي

ارتشف رشفة منه قبل أن يعبّر عن إعجابه حتّى ابتسمت بفخر وقالت: "إنّه خليط خاصّ أعدّه من الفواكه الاستوائية والصودا مع نكهات أخرى"

"وماذا تسمّينه؟"

فكّرت قليلاً، ثمّ أجابت بعفوية: "روح الصيف"

"اسمٌ رائع"

طلب أحد رفاقه المشروب ذاته فأعدّته وخدمت البقية حتّى رحلوا جميعاً عائدين لأماكنهم، وحينها سأل رين بفضول واهتمام: "هل أنتِ بخير يا بي؟"

أجابت بابتسامة واهنة: "أجل، لماذا تسأل؟"

رفع كتفيه: "تبدين هادئة وأقلّ حيوية الليلة. هل حدث شيء؟"

زيّفت ابتسامة متحمسة لتغطّي الحقيقة، وقالت بنبرة مرحة: "شكراً على سؤالك، ولكن أنا بخير! أخزّن طاقتي لا أكثر"

أومأ مصدقاً: "فهمت فهمت..." لفت انتباهه أحدهم، ثمّ أشار: "أليس هذا رفيقك السّابق؟"

لمست بطنها لا إراديّاً وتملّكها شعور ثقيل، ثمّ نزعت يدها وزفرت نفساً عميقاً قبل أن تتبع نظرات رين وترى مارسيل، يقف بعيداً ويحدّق باتّجاههما بصمت، فأشاحت بوجهها ببرود وأجابت بلا مبالاة: "بلى"

***

بدأ المزاد بعد كلمة ترحيب من فرانسيسكو بتمثال لأحد الأساطير الإغريقية. تنافس عليه المهتمّون

بالتّاريخ، واستمرّت المنافسة عندما عرضوا عقدًا قديمًا يعود لإحدى الملكات في القرون الوسطى، ولم تستطع روبي أن تراه سوى على الشّاشة التي نصبوها لصغر حجمه، ثمّ راقبت مارسيل الذي تجلس بجانبه امرأة آسيوية ذات شعرٍ حريريّ أسود كثيف، تهمس بكلماتها في أذنه عوضاً عن التّحدّث بشكلٍ طبيعي، وكان هو يجيبها دون أن ينظر إليها، مركزاً نظراته نحو المسرح، ولا يبدو أنّه يكترث لوجودها أصلاً

أشاحت ببصرها عندما اقترب خافيير ـسرس، وقال: "ما أزال أجهل لماذا ظفك هيغنز وأعطاكِ مسؤولية كبيرة كهذه... أشكّ بقدراتك"

شدّت على قبضتها، ثمّ ابتسمت متمالكةً أعصابها: "كيف أخدمك؟"

رمقها باستعلاء: "اصنعي لي مزيجاً تعرفينه ومن الأفضل أن يكون جيداً وإلا فسألقي بكِ خارجاً رغماً عن أنفه"

همّ زميلها رين بالتدخل لولا أن منعته وهمست بوجه مسالم: "لا تهتمّ، لا نريد التسبب بمشكلة لهيغنز"

أومأ على مضض والتفت لعمله، بينما روبي تحضّر الشّراب في صمت حرص خافيير على كسره للوصول إليها، لكنّ محاولاته لم تُكلّل بالنّجاح، فقد صدّته تماماً وأظهرت أنّها لا تكترث له. كبحت الغضب والرغبة في ضربه داخلها من أجل هيغنز، كي لا تتسبّب بفضيحة ـرى قد تؤذيه. لن تعيد الكرّة مجدداً، وهذا أقل ما تستطيع فعله لتردّ معروفه...

***

انتهى المزاد بعد عرض قطعة أخيرة بيعت بمئات الملايين، وكانت لوحة للرّسام المبدع الذي لا يعلم عنه أحد شيئاً سوى اسمه الفنّي ((ڤان))، وعندما حانت فترة الاستراحة، سحب فرانسيسكو مارسيل جانباً ليحادثه في أمر مهمّ، حيث قال: "هناك شاغر من المفترض أن يكون لماتِيو مايورانو، لكنّه لم يأتِ لذا أريدك أن تحلّ مكانه في مزاد العزّاب"

رمقه بنظرة حجرية: "لا، ولست مهتمّاً"

لم يستسلم فرانسيسكو وقال بنبرة [illegible]دة: "سألغي ضرائبك لعشر سنوات قادمة"

"لديّ المال الكافي"

أضاف بإلحاح: "خمس عشرة"

"مدى الحياة"

زفر فرانسيسكو: "مثل أبيك بالضبط... حسناً. مدى الحياة وليبقَ ذلك سرًّا بيننا"

تركه مارسيل وسار باتّجاه طاولته، ثمّ انجذبت عيناه لا إراديّاً إلى روبي التي تعدّ المشروبات، فغيّر وجهته بشكلٍ طبيعي وذهب إليها

ازدرد بخفّة، ثمّ اختار نبرة متّزنة وقال: "كأس ماء من فضلك"

ردّت بصوتٍ هادئ دون الالتفات إليه: "يمون ونعناع يا سيّد؟"

"أجل.."

جلس على المقعد العالي بعد أن وضعت الماء أمامه، ثمّ أخذت تملأ الكؤوس بمفردها ريثما يعود زميلها

رين من دورة المياه. عيناه تراقبان تفاصيل كلّ حركة من تحرّكاتها؛ النظرة التي تعلو عينيها عندما تركّز، اللمسات التي تضعها على كلّ كأس، تنقلاتها الانسيابيّة وسرعتها الحذرة، وأخيراً خصلات الشعر التي أعادتها خلف أذنها بنعومة جعلته يتذكّر ملمسه بين أصابعه

سألت النّادل: "هل تحتاجون إلى المزيد؟"

"لا أظنّ ذلك في الوقت الحالي، ولكنّي سأعلمك بأيّ مستجدات"

بقيت وحدها مع مارسيل الذي رب الماء ببطء شديد، ينتظر محادثة لن يحصل عليها؛ فلم تكن تنظر إليه حتّى بل للمسرح والضّيوف فقط، وكأنّه غير موجود، إلى أن وضع الكأس على الطاولة، ثمّ قال: "أخذتِ

كلّ أغراضك من المنزل"

نظرت إليه بلا مبالاة: "هذا طبيعي، فلقد انفصلنا. آمل أنّي لم أنسَ شيئاً"

حدّق بعينيها للحظة: "لا..."

أومأت متبادلةً النّظرات معه: "جيّد"

تجاهل برودة الرّد المباشر وسأل: "هل تخطّطين للاستقرار هنا؟"

"في الوقت الرّاهن، لديّ عمل وشقّة مريحة"

"وهل يجب أن أتوقّف عن التّحدث إليكِ؟"

صمت بلا مشاعر: "متى كنت تتحدّث؟"

حدّق بها بجدّية: "لم يكن هذا سؤالي... هل يجب أن نتوقّف عن الحديث؟"

اضْطربت ضربات قلبها، لكنّها أجابت بثبات: "أجل، وسيكون من الأفضل أن نتصرّف وكأنّنا لم نعرف بعضنا بعضاً يوماً"

التفتت لتشغل نفسها بأيّ شيء، وحينها خفض مارسيل عينيه لكأسه الفارغ قبل أن ينهض بهدوء، لتتنهد روبي وهي تشعر بثقل الهواء حولها...

***

" هل سيقيمون مزاداً للأعزاب حقّاً؟" سألت رين بفضول

"أجل. نساء للرجال ورجالٌ للنساء"

من هم المرشّحون؟ أعني ما هي معايير الاختيار، أم أنّهم فريقٌ خاصّ؟"

هزّ رأسه: "لا أعلم، ربما بعض الشخصيات الذين لديهم عضوية خاصّة أو شيءٌ من هذا القبيل"

اعتلى فرانسيسكو المسرح مجدداً ومعه خمس نساء جميلات، لكلّ منهنّ سمة تميزها عن الأخرى، وسوف يتسنّى لأعلى مزايد أن يقضي يوماً مع العازبة التي يختارها من بينهنّ...

هتف الحضور بحماسة عندما قدّم أول عازبة لوّحت باتجاه طاولة معينة بابتسامة غزلية، ثمّ أخذ يسرد نبذة بسيطة عنها وعمّا تفضّل، فتعالت الأصوات والأرقام حتّى حظي بها أحد الرّجال اليانعين، فانتقل لتقديم المرأة التالية؛ مهندسة معمارية، تحب الرياضة والسّفر وكذلك القطط

ـام خافيير بالمزايدة على تلك المرأة وأخذها، لتقلّب روبي ناظريها وتهمس: "قلبي معكِ يا أختاه!"

رين بنظرات إعجاب: "لو كنتُ ثريّاً

مثلهم، فسوف أقدّم كلّ ما لديّ للمرأة الأخيرة... تبدو كأميرة"

"أنت محق، وتبدو لطيفة أيضاً"

"عازبتنا الأخيرة هي تيفاني وولز. مثقفة، تهوى الرّحلات البحريّة ولعب البولينج، وهي تحبّ الرّجل المهندم والذي يتمتّع بصفة النّبالة"

كان هناك تردّدٌ للمزايدة على آخر عازبة، وكانت الأقلّ سعراً، حظي بها رجلٌ يبدو كوالدها لكبر سنّه، فزفر رين بامتعاض: "ما بال هؤلاء الرّجال؟"

"أغبياء"

سعر بالأسى عليها... هل تظنين أنّها ستوافق لو عرضت أخذها للعب البولينج معي؟"

رفعت كتفيها: "جرّب حظّك بعد الحفلة"

أحكم قبضته في الهواء:
"سأغامر وأجرّب!"

ضحكت روبي برقّة قبل أن تضمحل ابتسامتها وهي ترى مارسيل يعتلي المنصّة بجانب أربعة رجال آخرين وسيمين ومتنوعين في الأعمار، وتعالت همسات النّساء المتحمّسات حول كلّ العزّاب وخاصّةً هو...

"العازب الأوّل هو جون دونوفان، لاعب تنس دولي، يحبّ الرّياضة، الحفلات، ولديه ڤيلا في أحد أفضل الشواطئ في العالم"

م جون ابتسامة عريضة للنسوة لاتي تهاتفن عليه، وكانت المنافسة بينهنّ شرسة وممتعة على عكس الرّجال في مزاد العازبات

"ما رأيك بالعازب الثّالث؟"

قاطع رين تفكير روبي التي أجابت:
"عجوز لا يكترث لمظهره"

"أراهنك أنّهن سيتقاتلن عليه"

وهذا ما حدث بالفعل، فقد حظي بأعلى سعرٍ ولم يستطع العازب الرّابع أن يصل إلى سعره، ثمّ عمّ صمتٌ غريب من نوعه المكان، وكانت الإناث المتلهفّات ينتظرن فرانسيسكو أن يتحدّث ويعرّف بالعازب الخامس والأخير. كان يبدو وسيماً جدّاً بالبدلة السوداء، هادئ وغامض، يقف دون أن يبتسم أو يكترث لأيّ أحد على وجه الخصوص، ينظر للفراغ وباتّجاه المشرب الذي خلفه روبي -

"عازبنا الأخير هو مارسيل ويليامز، رجل أعمال ثريّ، لديه منزلٌ بديع من الزجاج ويطلّ على البحر، وسيكون سعيداً لأخذ سيّدته هناك"

رمقه مارسيل بنظرة سريعة ومتوعّدة عندما أعلن آخر جملة، ثمّ همّ فرانسيسكو بالمتابعة لكنّ شابّة هتفت بصوتٍ عالٍ: "يكفي تعريفاً سأدفع خمسة آلاف!"

"ستّة!"

"ثمانية!"

"عشرة آلاف!"

تعالت أصوات النّساء اللاتي تعاركن عليه وهنّ يتبادلن النّظرات والتهديدات، وكانت روبي تراقب الحرب بوجه ساكن بينما هي كالبركان ثائر من الداخل... غيرة ليست في وفتها أبداً!

"خمسة وعشرون ألفاً!"

هتفت آخر امرأة برقم خيالي،

وابتسمت بانتصار عندما لاحظت استسلام الأخريات، ثمّ رفعت المرأة الآسيوية التي جلست بجواره سابقاً رقمها وقالت بابتسامة صغيرة وواثقة: "ستون ألفاً"

استطاعت روبي أن تسمع الشّهقات من مكانها، وتعالت الهمسات مجدداً قبل أن ينهي فرانسيسكو المتفاجئ مزاده، وتحظى صاحبة الرّقم 7 به...

***

جلست على الكرسيّ ودلّكت فخذيها قليلاً، بينما مدّد رين ذراعيه بعد أن اتّجه الضيوف إلى الداخل من أجل تناول العشاء، ثمّ قال: "أحتاج إلى القهوة قبل جولة ما بعد العشاء لأولئك الذين ينوون أن يتمّ حملهم للخارج!"

سكب لنفسه كوباً من القهوة السوداء

وعرض واحداً على روبي التي رفضت بابتسامة، واكتفت بشرب الماء وتناول لوح الشوكولا لتتنشّط قليلاً

"هل تمانعين لو تركتكِ قليلاً؟ أريد البحث عن الأميرة"

"يمكنك الرّحيل، وحظًّا موفقًا"

"شكراً!"

تابعت تناول الشوكولا، ثمّ تفقَّدَت هاتفها ومواقع التواصل لترى ما الجديد حتّى سمعت امرأة تتحدّث عبر هاتفها باللغة اليابانية وخلفها ببضع خطوات حرّاس مخيفون. وقفت عندما أدركت أنّها المرأة التي [illegible]ترت مارسيل، وقامت بخدمتها على أكمل وجه، لتبتسم وتنهي المكالمة الهاتفية، ثم تقول بلغة مفهومة: "شكراً لك"

أومأت روبي بتحفّظ: "العفو"

ارتشفت المرأة اليابانية من كأسها قليلاً قبل أن تعقد حاجبيها وتتأمّل وجهها جيداً: "تبدين مألوفة... هل تقابلنا؟" أضافت: "هل زرتِ طوكيو من قبل؟"

"أوه أجل، قبل بضعة أشهر"

لمعت عينا اليابانية بإدراك: "تذكّرتك... أنتِ المرأة التي أتت مع 005 لطوكيو. أذكر رؤية صورة لكما من مساعِدَتي"

شعرت روبي بالرّيبة وبالقلق من المجرى الذي تأخذه هذه المحادثة الغريبة والمفاجئة، على عكس المرأة عرّفت بنفسها: "اسمي يوكيكو ماغوتشي... هل أنتِ رفيقة 005؟"

ردّت روبي بنبرة هادئة: "رفيقته السّابقة"

يوكيكو بتهكّم: "انفصلتما إذاً. جيد. لن

أشعر بالذّنب لسرقته منكِ ليوم"

ابتسمت بتكلّف: "لا أهتمّ"

بادلتها يوكيكو الابتسامة: "أخبريني، كيف وجدتِ طوكيو؟ لم تبقيا فيها سوى ثلاثة أيّام على حدّ علمي. رحلتما بعد أن انتهى من المهمّة ولا أظنّ أنّك رأيت الكثير بعد"

انقبض قلب روبي لوهلة، وسكنت ملامحها التي تخفي الصّدمة والأسئلة الكثيرة خلفها. أجبرت نفسها على الهدوء وجعل هذه المحادثة تجري بسلاسة حتّى تفهم ما يجري...

سوتها قليلاً ورغماً عنها: "إنّه على جالة دائماً، وخاصّةً بعد الـ.. مهمّات"

"وهل سافرتِ معه إلى بلدانٍ أخرى؟"

صرّت على أسنانها قبل أن تومئ وتجيب: "أجل، وأعجبتني سانتوريني

والبندقيّة كثيراً"

علّقت يوكيكو بسخرية: "سانتوريني؟ أتساءل من كان هدفه في تلك الجزيرة المملّة"

زادت القبضة التي تعصر قلب روبي من قوّتها متصاحبةً مع الوخز المؤلم، ولكنّها تابعت التّحمل وابتسمت بلا مبالاة: "لا أعلم فهو لا يتحدّث معي عن العمل"

ارتشفت يوكيكو من الشراب مجدداً ثمّ سألت بفضول: "ولماذا انفصلتِ عنه؟ أم هو من انفصل عنكِ؟"

كان قراراً مشتركاً، ولكنّي تمتعت بالسّفر حتّى لو كان يعمل"

"يعجبني انتهاز الفرص! ولهذا السّبب اشتريت يوماً معه. أودّ شكره على المعروف الذي قدّمه لي" نهضت من

المقعد وقالت: "على كلٍّ، سعدت بلقائك وآمل أن تزوري اليابان مرة أخرى في المستقبل"

رسمت روبي ابتسامة تلاشت على الفور بعد أن ابتعدت يوكيكو، وبقيت تحملق بالفراغ للحظات وهي تتذكّر كلّ البلدان التي سافرا إليها، وكلّ فعلٍ مشكوكٍ في أمره حتّى بسطت يدها المرتعشة على صدرها وأخذت تضربه وهي تصدر أنيناً متألّماً

"لا أستطيع التّنفس...! لا أستطيع التّنفس!" ~

سعلت وحاولت التّنفس مجدداً وهي تضرب صدرها بعنف، ثمّ تركت المكان وهربت بعيداً إلى خلف المتحف حيث الجزء المظلم والخالي. خرّت على الأرض بجسد مرتعش وغير قادر على الوقوف. ثمّ سحبت هاتفها بارتجاف

لتضغط على أوّل اسم تكرّر في سجلّ المكالمات الأخيرة...

أجاب هيغنز بنبرة جافّة كالمعتاد: "ماذا؟"

حاولت التّحدث وهي تمسك عنقها وتصارع الموت، ليخرج صوتها كالهمس المختنق: "هيغ.. هيغ هيغ! هيغ.. نجدة.."

ارتبك صوته: "ما هذا؟ أين أنتِ يا سميث؟"

"لا.. أست.. تنفس.."

"اللعنة! أين أنتِ؟"

"لخ.. خلف"

قال بصرامة: "ابقي معي على الهاتف، أنا قادم إليكِ"

أسرع هيغنز بالخروج والالتفاف حول

المتحف وهو يستمع لصراعها عبر الهاتف حتّى وجدها على الأرض، هشّة ومنهارة، وقد يخسرها في أي لحظة!

ضمّت يديها إلى صدرها فقال بحزم وهو يمسك كتفيها ويرفعها قليلاً: "هل تسمعينني؟ اهدئي!"

نطقت بصوت متقطع: "الهو.. اء.. لا أستط.. يع التن..! التنفّس!" انهمرت دموعها: "سأمو.. ت"

ضمّها ليوقف رعشة جسدها، ثمّ قال: "هراء! أنتِ تستطيعين التّنفس لكنّ عقلك يخدعك، يمكنك أن توقفي ذلك! خذي نفساً عميقاً"

"لا.. لا أستطيع"

هتف بغضب: "بل يمكنك يا روبي، أنتِ حبلى ويجب أن تكوني قوية من أجل طفلك!" اخترقت كلماته اضطرابها

قليلاً، لكنّها زادت الخوف والارتباك، فلين صوته وسأل: "من هو أعزّ شخص لديك؟"

خرجت كلمتها بصعوبة: "أ.. بي"

"جيد، والآن تذكّري والدك وأسعد ذكرياتك معه ثمّ تمسكي بها وتنفسي... هل تسمعينني؟ تنفسي!"

مرّت صورته بذاكرتها، وأخذت تحاول استحضار ذكرى سعيدة معه. أوّل واحدة خطرت ببالها كانت عندما حملها على كتفيه وفرد يديها قبل أن يركض في الحديقة ليجعلها تشعر وكأنّها تطير. تذكّرت ضحكتها وضحكته، كما تذكّرت المرّة التي أعدّت فيها الطّعام معه وأوشكا على حرق المطبخ، وكيف هتف بكلّ فخرٍ وحماسة متباهياً بها بين الحضور عندما اعتلت المسرح في المدرسة، على الرّغم من أنّ دورها كان

شجرة، ولكنّها شعرت حينها وبسببه أنّها الأميرة...

استطاعت أن تسحب نفساً عميقاً وقويّاً فجأة وكأنّها تستعيد حياتها مجدداً، وحينها قال هيغنز: "احبسيه قليلاً... والآن أطلقيه"

زفرته دفعة واحدة، ثمّ بكت كطفلة محطمة ليتنهد هيغنز ويحتضنها باهتمام مربّتاً على ظهرها حتى تهدأ، فقالت عبر شهقاتها: "أخفقت..!"

"لا تقولي ذلك يا سميث"

"لقد فشلت.. أنا لست سوى فاشلة، كلّ حله خاطئ!"

حبّأت وجهها في صدره وبكت قليلاً بعد، وحينها زفر بضيق وقال: "أكره النساء اللاتي يبكين هكذا. هيّا انهضي وكوني أفضل من ذلك"

ساعدها على الوقوف والاستناد على الحائط لتستعيد القليل من توازنها، ثمّ قال: "امسحي دموعك." همّت بفعل ذلك فهتف بوجهه الصّارم: "ليس بقميصك! تحلّي ببعض الكياسة.. هاكِ منديلاً"

أخذت المنديل ومسحت دموعها، بينما هو يراقبها بصمت حتّى انتهت وقالت بصوتٍ مهتزّ: "سأعود إلى العمل"

"بل ستذهبين للمنزل وهذا أمر"

انكمش وجهها وهمست بصوتٍ باكٍ: "أنا آسفة، لقد خيّبت ظنّك.. فشلتُ في هذا أيضاً"

"لم تفشلي في أيّ شيء يا سميث. كم مرّة سأعيدها؟"

"لا تشفق عليّ إذاً ومُرني بالعودة إلى العمل. لن تطيق التصرف بطيبة وكرم

معي دائمًا وستفصلني في النّهاية لأني..."

"لأنّك ماذا؟"

همست بغصّة: "ميئوسٌ منها"

"لا تقولي ذلك عن نفسك. أنت لستِ فاشلة ولا ميئوسًا منكِ، وإن كان كلامي سيبهجك فأنتِ إحدى أمهر النُّدل الذين قابلتهم ولديكِ ذائقة ممتازة في المشروبات أيضاً"

حدّقت به قليلاً قبل أن تخفض عينيها مجدداً وتهمس: "شكراً"

"واصلي العمل الدؤوب يا سميث... عندن اذهبي إلى المنزل. سأطلب لكِ سيارة أجرة"

***

غادر مارسيل بعد انتهاء الحفل

متسائلاً عن السبب وراء اختفاء روبي المفاجئ، ولكنّه لم يتجرّأ على سؤال زميلها وعاد إلى منزله، حيث بدّل ثيابه واحتسى كوباً من الشّاي قبل أن يستلقي على الأريكة ويتأمّل التلفاز الذي أجبرته على إحضاره والتّخلّص من لوحة ليلة النّجوم، ثمّ أغمض عينيه مستسلماً للنّوم، ولكنّه استيقظ لاحقاً عندما طرق أحدهم الجرس والباب بعنف في آن واحد!

نظر للسّاعة المتأخّرة على الحائط قبل أن يسترق نظرة إلى الخارج ويراها. سمحت لنفسها بالدخول عندما فتح الباب لكنّ خطواتها تباطأت، فأنار المكان فوراً وقضى على الظلمة التي تخيفها، ثمّ التفتت تنظر إليه بعينين تشتعلان بنيران سوداء تلتهم كلّ من يجرؤ على الاقتراب. نظراتٌ لم ترسمها من قبل، لم يعهدها منها، نظراتٌ

استطاعت بثّ الخوف فيه للحظة...

قالت ببرود قاتل: "سأسأل أسئلة وأتوقّع أجوبة مباشرة وصادقة، دون تلاعب"

أدرك في تلك اللحظة أنّها عرفت كلّ شيء، فسرت رغبة بالتّراجع والهروب في جسده، لكنّه أبى أن يتحرّك واستمرّ بمراقبتها

اقتربت بضع خطواتٍ ونظرت إلى عينيه وكأنّها تخترقهما: "هل عدتَ إلى عملك القديم؟"

حدّق بعينيها الزرقاوين، ثمّ أجاب: "أجل"

وكانت كلّ تلكَ الرّحلات لتقتل أهدافاً. صحيح؟"

"صحيح"

شرابك لتنامي"

وضعت يدها على فمها: "يا إلهي.." تلفّتت حولها باستنكار، ثمّ رمقته بنظرة ثقيلة عصفت به أوّلاً قبل أن تشعل التوتر داخله، وقالت: "كيف أمكنك فعل ذلك؟"

ارتفع صوته قليلاً: "لم أكن أستطيع الاحتمال!"

"ما تزال ترغب في أن تكون 005...؟"

خطا خطوة نحوها وقال بصوتٍ حادّ: "ليس الأمر متعلقاً بالرّغبة، بل أنا 005! وُلدت لأكون كذلك ولا أستطيع التوقّف! ألا تفهمين؟ لا. أستطيع. "لتوّقف!"

"لا... تستطيع التّوقف ولكنّك لا تريد ذلك. هل تعلم لماذا؟ لأنّك لا تريد أن نخيّب ظنّ جاريد بك!"

"غير صحيح"

وقفت بثبات لتواجهه: "بلى. أنت لا تريد التّوقف عن كونك الأداة كي لا تخيّب ظنّه حتّى بعد أن شاهدته ينتحر أمام عينيك! لقد رحل عن هذا العالم ولكن ليس منك لأنّك ما تزال متمسّكاً به.. أنت من لا يرغب بالتخلي عن جاريد لأنّك تحبّه!"

استمرّ بالإنكار: "لا.. لا.."

"مهما بلغت بشاعته، تعذيبه والألم الذي جلبه لك فلا تزال تحبّه، لأنّه أوّل إنسان أبصرته وعشت معه.

لقد تلقيت قسوته قبل الحبّ يا مارسيل، تعلّقت به دون أن تدرك، تودّ أن ترقى لتوقعاته دائماً وتتعطّش للحصول على الثّناء منه، لا تغضب

عندما ينعتك احدهم بأداة الشر بل تكون سعيداً لأنّك أداة جاريد!" أردفت بصوتٍ متحشرج: "بكيتَ على جثّته ليس لأنّك لم تستطع قتله، بل لأنّه رحل وتركك. تظنّ أنّه حبسك بينما أنت في الواقع حرّ ولكنّك تستمرّ بتقييد نفسك به، وهذا ما أراده. أرادك أن تستمرّ وها أنت ذا تفعل ذلك كي تجعله فخورًا بك"

دمعت عيناها ونظرت إليه بخيبة أمل، ثمّ همست: "كان محقّاً عندما قال إنّي لن أستطيع تغييرك... لقد نجح وأنا فشلت"

ـت شهقة البكاء الّتِي باغتتها فجأة، ـمّ مسحت دموعها بيد مرتعشة، بينما روحه تحترق بصمت يمنعه من قول كلمة واحدة!

قالت بنبرة هادئة: "يجب أن تتوقّف

عن كونك 005، فلا أستطيع تحمّل أن يكبر طفلي ويسألني عن عمل والده فأجيبه بأنه قاتل مأجور وكاذب"

اتسعت مقلتاه وهو يحدّق بها، نظر لبطنها ثمّ إليها مجدداً؛ لم يصدّق ما سمعه بل كان غاضباً أيضاً، يشعر أنّه مهددّ وخائف في الوقت ذاته!

سحب نفساً مرتعشاً ليهدأ، ثمّ سأل: "متى علمتِ؟"

"مؤخراً... قالت الطّبيبة إنّ صحّته ممتازة وهو ينمو جيداً" تابعت وهي ترمقه باحتقار: "أردت إخبارك بأمره تلك الليلة، ولكنّك لم تظهر لأنّك كنت مشغولاً بقتل هدفٍ آخر"

تراجع خطوة للخلف وهو يهزّ رأسه رافضاً، يقلّب الاحتمالات كلّها في عقله ويقدّر حجم الخطر القادم، ثمّ قال: "لا

يمكنك أن تنجبي هذا الجنين..."

رمشت مستنكرةً اختياره للكلمات: "هذا الجنين؟ هذا طفلنا!"

هتف بانفعال: "ستتخلّصين منه!"

"لن أفعل!"

ردّ بنظرات تحذيرية: "بل ستفعلين يا روبي ولن أسمح بعكس ذلك"

فرّت ضحكة ساخرة ومُرّة منها: "حقّاً...؟ وما الذي ستفعله؟"

رمقها بحدّة: "لا تختبريني"

اقتر[illegible] منه ودفعت صدره قائلةً: "ما الذي ستفعله ها؟" دفعته مجدداً وهي منفعلة: "ما الذي ستفعله؟ تقتلني؟ تغرقني؟ تطلق النّار على رأسي؟ أخبرني!"

أمسك معصميها محاولاً كبح انفعالها،

فصرخت تأمره ألا يلمسها ونزعت يديها بخشونة. استطاع الشعور بأنفاسها الغاضبة تضرب وجهه، وظلا يتبادلان النّظرات وكأنّهما يتقاتلان بأعينهما فقط، وكانت اليد العليا لروبي؛ إذ استطاعت كسر درعه الصّلب وجعله يخضع...

"تخلّصي منه" اقترب أكثر وهمس راجياً المستحيل بيأس: "أرجوكِ.."

ردّت بصوتٍ منخفض وثابت: "سأحظى بالطّفل وسيحمل لقبي، وإن سألوني من الأب فلن أخبرهم بهويّتك. سأخبرهم أنّك ميت لأنّك بتّ هكذا بالنّسبة لي يا مارسيل، ويجب أن تعدّني ميتة بالنّسبة إليك أيضاً" أضافت بنظراتٍ تحذيرية: "وإيّاك أن تجرؤ على الاقتراب منّي ومن طفلي، أو تفكّر حتّى بذلك. لا تظهر أمامي

مجدداً أبداً. لا تأتِ إلى المطعم عندما أكون موجودة، ولا تظهر في الشارع أمامي. غيّر طريقك لو رأيتني لأنّي سأفعل المثل!"

همس بصوت مهتزّ: "روبي.."

وضعت سبابتها على شفتيه: "اخرس! فالموتى لا يتحدّثون" أبعدت يدها، لكنّها أبقت نظراتها متصلة به، وتابعت: "تريد أن تكون 005؟ حسناً يا مارسيل. كن أداة القتل لعشرين أو ثلاثين سنة قادمة حتّى ينتهوا منك. دعهم يستعملوك حتّى تنتهي صلاحيتك ويضعوك على الزف يعطيك الغبار وتتعفن، ثمّ تموت وحيداً!

لن أركض وألحق بك، لن أنتظرك أو أبحث عنك، ولن أوقفك وأحارب بعد الآن. لقد اكتفيت.. لذا اترك يدي"

خفض بصره ليرى أنّه يمسك يدها بالفعل، ولم تنتظر روبي ثانية واحدة قبل أن تسحبها وتلتفت لتغادر بعد أن كتبت النّهاية!

نهاية علاقة...

نهاية نضال...

نهاية معركة... ونهاية حلم...

11: هامستر ومافيا المكسيك

"مذكّرتي العزيزة، أنا في الأسبوع السّادس عشر... ينمو طفلي جيداً وهو الآن بحجم حبّة أفوكادو. أكاد لا أصدّق بالطبع وكلّ شيءٍ يبدو جنونيّاً، ولكنّني سعيدة حقّاً، ومتحمسة أيضاً

بكيتُ عندما سمعت صوت نبضاته لأوّل مرّة، وتترقرق عيناي بالدّموع في كلّ زيارة للطبيبة. تغمرني مشاعر كثيرة ومتفجرة ولا أستطيع الانتظار لأقابله!

بات من في المطعم يعلمون بأمري؛ فلم أستطع إخفاء الأمر أكثر، وزميلاتي اللاتي جرّبن الأمومة قبلي كنتشفنني أولاً. أصبحت حياتي ميسّرة ومريحة منذ شطبت مارسيل منها. لم

أقابله أو أسمع عنه شيئاً منذ ذلك اليوم... ولن أكتئب وأحزن فطفلي يشعر بذلك، وهو لا يستحق هذا العناء والعذاب!

كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام... آمل ذلك"

***

كان صباحاً مزدحماً في المطعم كالمعتاد، تتداخل أحاديث وضحكات الزبائن مع أصوات الأكواب والأطباق، وتفوح رائحة القهوة الطازجة في الأرجاء مداعبة أنف روبي التي باتت خطواتها أبطأ من المعتاد؛ تشعر بثقل لم تعتد عليه بعد، لكنها تتحمل من أجل لقمة العيش وكي لا تخيب ظن هيغنز بها؛ لا تزال تفكّر بذلك اليوم عندما انهارت وانتابتها نوبة هلع كادت تودي بحياتها لولاه، ولا تعلم كيف تردّ

له معروفه هذا

توقفت تلتقط أنفاسها وهي تسند يدها خلف ظهرها بعد أن خدمت عائلة كاملة، ثمّ التفتت لزميلها: "رين...؟"

"نعم؟"

"أنت هنا منذ سنوات، لذا هل تعلم ما هي الهديّة المناسبة لهيغنز؟"

رفع كتفيه مجيبًا: "لا أعلم، ولكنْ شيءٌ متعلّق بالطّبخ على الأرجح"

"ألا تعلم ما إن كان لديه هوايات؟"

هزّ رأسه: "إنّه رجلٌ غريب، لا أحد يعلم عن حياته خارج المطعم. لماذا تسألين على أيّ حال؟"

أجابت بعفوية: "أرغب بشراء هديّة له كعربون شكر، فلقد أسدى لي خدمة"

"اذهبي واسأليه إذاً"

زفرت بسخرية: "ليس الآن، فآخر مرة اقتربت منه وهو يطبخ كاد أن يقطع رأسي بسكّينه!"

***

في فندق إمباير...

حضّرت إيزابيل قهوتها بعناية وجلست بهدوء لتتناول إفطارها البسيط، لكنها لم تستطع أن تركز بطعامها بسبب أندرياس الذي تلقى مكالمة هاتفية بعثرته وغيّرت مزاجه بالكامل؛ كان يقف بالقرب من النافذة، متمدود الأعصاب، ينصت للطرف الآخر ويومئ بخضوع وكأنّه يتعرّض للتوبيخ، ثمّ تنفس الصعداء عندما انتهت المكالمة أخيرًا وأخذ يتراسل مع أحدهم بسرعة وهو يشتم بلغته الأمّ

تظاهرت بعدم الاكتراث عندما اختفى

داخل الخزانة وبدّل ثيابه المريحة إلى أخرى رسميّة، ثمّ سألت بنبرة متهكمة: "هل سترحل أخيراً؟"

"أنا مضطَرٌّ لذلك يا حبّي، سأذهب لساحل بن-ويث"

نظرت لكوبها وسألت مخفيةً اهتمامها: "هل مارسيل السبب؟"

"بل روبي"

حملقت بامتعاض: "ستسافر لتلك المرأة؟"

أخذ كوب قهوتها وارتشف منه، ثمّ أجاب: "أجل"

"ولماذا؟"

زفر كما لو أنّه في ورطة: "إنّها حبلى والأب ليس موجوداً!"

أجفلت إيزابيل مستنكرةً لما سمعته:

"حبلى؟ من مارسيل؟"

"أجل، والآن الدّون فيرناندو ثائر في المكسيك وقد تحدث هزّة أرضية في هذه البلاد، لذا يجب أن أسرع بالذّهاب و... تبدين مستاءة" ابتسم بغزل: "هل لأنّي راحل؟"

قلّبت ناظريها: "لا، وكنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن"

أمسك يدها وانخفض ليطبع قبلة على كفّها: "لن أطيل الغياب. هناك طير باسمي أيضاً، وأتوقّع أن أعود وأراهما بخير يا إيزابيل.. مفهوم؟"

"سأتخلّص منهما"

"افعلي ذلك وسأحوّل هذا الجناح لمحمية طيور يا حبّي. سوف تعتنين بنفسك وبهما" لمس ذقنها ورفعه قليلاً قبل أن يبتسم متأملاً عينيها: "اشتاقي

إليّ، اتصلي بي، راسليني، فكّري بي طوال الوقت"

قالت ببرود: "وهل أبكي عليك أيضاً؟"

حرّك يده لوجنتها: "سيكون ذلك رائعاً، ولكنّي لا أرغب لهذه العيون أن تذرف الدّموع ولا حتّى من أجلي"

اضطربت أنفاسها لوهلة، واغتاظت عندما لاحظ ذلك وابتسم ابتسامة عريضة، فصفعت يده لتبعدها: "ارحل"

زفر ضحكة: "حسناً هوّني عليكِ يا حبّي!"

لست حبّك"

***

قصدت روبي المطبخ بخطواتٍ حذرة واسترقت نظرة لترى هيغنز يلقي الأوامر ويضغط على مساعده، يدفعه

لحافّة الانهيار والبكاء في سبيل أن يتعلّم مثل كلّ مرّة، ثمّ التفت إليها وقال: "ما الأمر يا سميث؟"

ارتبكت قليلاً عندما ضبطها: "جئت لأسألك سؤالاً"

رمقها بوجهه الصّارم: "أسرعي فيجب أن نستعدّ لفترة الغداء"

"ما هي هواياتك؟"

أجاب مباشرةً: "ليس من شأنك"

"لماذا؟ أريد أن أعرف..." شهقت بصدمة: "هل يعقل أنّها هواية ممنوعة؟ أو غير قانونية؟"

"أولاً، ممنوعة وغير قانونية تحملان المعنى ذاته، وثانياً، لماذا تودّين أن تعرفي؟"

"فضول... ربّما أودّ إحضار هديّة لك.

ألا تحبّ الهدايا؟"

ضيق عينيه بتهديد: "عودي إلى عملك يا سميث!"

تأففت بإحباط: "حسناً..."

غادرت المطبخ وساعدت زملاءها بالتحضير لفترة الغداء التي كانت مرهقةً جدًّا؛ إذ اكتظّ المطعم بالزّبائن الجائعين والمتلهفين لتناول وجبة غداء لذيذة، فبذلت روبي ما بوسعها لخدمة طاولاتها حتى تلقت الثناء من الجميع، لكن كانت هناك عائلة أثارت ريبتها؛ كانوا منسجمين في البداية في حالة توتّر، يعاتبون ابنتهم الصّغيرة التي تنظر تحت الطاولة وفي الأرض وكأنّها تبحث عن شيء ما

اقتربت منهم بهدوء وسألت: "هل هناك مشكلة؟"

تنهد الأب مجيبًا: "أنا آسف حقًّا، ولكن هناك مشكلة بالفعل..."

استمعت روبي إلى الشّكوى وجمّدت ملامح وجهها والابتسامة المجاملة قدر المستطاع قبل أن تعدهم بحلّ المشكلة وتعذر نفسها، ثمّ أسرعت مقتحمة المطبخ وهتفت: "لدينا مشكلة كبيرة!"

التفتوا إليها جميعاً، واسترق هيغنز المشغول بالطّبخ نظرة إليها: "هل هناك من اختنق؟"

أجابت بارتباك: "لا"

سأل بوجهٍ أكثر صرامة: "هل هناك من يشتكي من الطّعام؟"

اعترفت بعد أن تمكن منها التوتر: "هناك هامستر في المطعم"

أطفأ هيغنز النّار ووضع المقلاة جانباً في لحظة سريعة، ثمّ التفت إليها

بحاجبٍ مرفوع لتخاف وتشعر أنّها السبب، كما خرس البقية وظلّوا ينظرون له ولبعضهم بعضًا بأعين قلقة...

"ماذا قلتِ لتوّك؟"

"هناك عائلة لطيفة، ولقد قامت ابنتهم الصّغيرة بوضع الهامستر تشيتشي في جيبها دون علمهم. اكتشفوا الأمر عندما أخبرتهم أنّها فقدته... هنا"

أطبق شفتيه وضغط على جسر أنفه كي يتحكم بأعصابه: "أتقولين إنّ هناك فأرًا طليقًا في مطعمي؟"

"ليس فأراً بالتّحديد ولكن—" صمتت عندما أظهر وجهه الغاضب، ثمّ قالت: "لو أردته أن يكون فأراً فلك ذلك"

"فليترك الجميع ما بأيديهم لخمس عشرة دقيقة. انتشروا للبحث عن ذلك

المخلوق وإلّا ارتكبت جريمة اليوم، جدوه واقتلوه!"

"أوه لا ستحزن الفتاة كثيراً!"

"لا تقلقي يا سميث، سأدفنها معه" أردف للبقية: "أخبروا جوليان أن يتوقّف عن استقبال أيّ زبائن آخرين... سحقاً قد يكون هذا الفأر في أيّ مكان، ينشر فضلاته وجراثيمه!"

ابتلعت روبي ريقها وهربت على الفور قبل أن ينفجر هيغنز ويفقد أعصابه، وأخذت تبحث مع زملائها عن الهامستر دون جلب انتباه الزّبائن

همست وهي تهمس: "تشينشي...؟ تشيتشي! أين أنت؟"

هرعت إليها زميلتها كريستين وهمست: "هل ما سمعته صحيح؟"

"أجل. لدينا مهمّة بحث وإلّا فسيقتلنا

هيغنز وربّما سيبدأ بالعائلة"

"ألا يرون اللوحة الكبيرة في الخارج والتي تنصّ على منع اصطحاب الحيوانات؟"

"يجب أن لا نضيع الوقت بل أن نجده بسرعة!" افترقت عنها وأخذت تبحث تحت الطّاولات متظاهرةً بكونها تنظّف، ثمّ لمحته يتسلل إلى حقيبة فتاةٍ كانت قد وضعتها أرضاً بإهمال، فرفعت الجهاز اللاسلكي وهمست: "الهدف في حقيبة. أكرّر، الهدف في حقيبة"

سمعت صوت هيغنز الغاضب وهو يسأل: "أيّ حقيبة يا سميث؟"

"الطّاولة رقم 7، الحقيبة المخططة باللون الوردي"

أتى بعد لحظة ونظر باتّجاه الطّاولة، ثمّ اقترب من روبي وهمس: "سوف

ألهي الزبائن ريثما تقومين بإخراجه من الحقيبة بسرعة"

انكمش وجهها بقلق: "لا لا لا سأتسبب بكارثة، صدّقني!"

زفر ببرود ونادى كريستين التي قالت بتوتّر: "لا أظنّ أنّ فكرة الإلهاء ستنجح يا سيدي"

رمقهما بحدّة قائلاً: "أنا على حافّة فقداني لأعصابي ولكنّ سمعة مطعمي فوق كلّ شيء، وهذا ما يجعلني أحاول تمالك نفسي قدر المستطاع"

روبي: "الصّراحة هي أفضل حلّ. خبرها عن الأمر، فنحن لسنا السّبب، كما أنّه حيوان أليف لذا لن تخاف... كما آمل"

عقد ذراعيه: "حسناً، اذهبي وأخبريها يا سميث"

تنهدت بإحباط: "لماذا أنا مجدداً؟"

ردّ بنبرة تهديد: "الآن!"

تنهدت مرّة أخرى، ثم قصدت طاولة الفتاة وحاولت تلطيف الأجواء أولاً قبل كشف الحقيقة، لتفتح الزبونة فمها بصدمة وتنظر لحقيبتها بخوف. استأذنتها روبي التي انحنت لتفتح الحقيبة وتخرج الهامستر الذي عضّ إصبعها، فتأوّهت وأفلتته ليهرب أمام مرأى الجميع!

"هل هذا فأر؟"

"أبعدوه أبعدوه!"

صرخت امرأة عندما لامس فروه قدمها، وسرعان ما انتشر الهلع بين الزبائن، فهتفت روبي وهي تلوّح بيديها: "لا داعي للقلق فهذا هامستر فقط وهو مسالم"

هتفت مالكته باسمه وأخذت تركض خلفه، فإذا بها تصطدم بنادلٍ يحمل صينية المشروبات التي انسكبت على أحد الزبائن. تراجع النّادل المصدوم معتذراً، وعندها تقدّمت كريستين ومعها منشفة لتصرخ الفتاة الصّغيرة: "احذري، ستدوسين عليه!"

ارتعدت كريستين التي مرّ من بين قدميها والتوى كاحلها لتقع على الأرض، واستمرّ الهامستر بالركض في الأرجاء وخلفه مالكته وروبي التي أحضرت سلة مهملات فارغة وطويلة، ثمّ اعترضت بها طريقه فوقع في الفخّ بسهولة

رفعت سلة المهملات وهي تردّد: "أمسكت به!"

تبددت لحظة الفرح والانتصار عندما أدركت حجم الفوضى أمامها. نظرت

إلى الزبائن المصدومين، ثمّ إلى هيغنز الذي كان يحدّق بصمت. شعرت أنّه يكبح غضبه وربما حزين، لذا أرادت فعل أيّ شيءٍ لتغيير ذلك

قالت بوجهٍ مبتهج ومتوتّر في الوقت ذاته: "سيداتي وسادتي، نعتذر إليكم أشدّ الاعتذار. كنّا ننوي تصوير فيديو في أحد تطبيقات التواصل للهامستر الشهير تشيتشي وهو يتناول أحد أطباقنا كدعاية للمطعم، ولكن مع الأسف، خرج الأمر عن السيطرة قليلاً" رفعته لهم: "نحن وهو آسفون لإفساد وجبتكم، خاصةً أنت أيّها السيد الذي وقع عليه العصير"

نظرت لهيغنز الذي كان يحدّق بها مسبقاً، فأكملت مبتسمة للزبائن: "رضاكم غايتنا لذا التّحلية على حسابنا.. نرجو المعذرة مجددًا ونتمنى

لكم نهارًا سعيدًا"

احتضنت الفتاة حيوانها الأليف وداعبته، ثمّ اعتذرت أشدّ الاعتذار إلى هيغنز الذي أومأ فقط قبل أن يختفي، وتعاونت روبي مع بقية الزملاء لإعادة الأمور إلى نصابها حتّى هدأت الأوضاع، ولكنّها لا تزال مشغولة الذهن به، خاصةً بعد أن أوكل مساعده بكلّ شيء، وجلس بعيدًا ليقرأ مجلّة الطّبخ مجدداً...

اقتربت منه بخطوات متوتّرة وبطيئة، ثمّ قالت: "أنا آسفة.."

"علامَ؟"

"ربّما ما كان ليحصل كلّ ذلك لو تصرفتُ بسرعة وحكمة، وأشعر أنّك غاضبٌ لأنّي جعلت التّحلية مجانية للجميع دون مشاورتك"

أغلق المجلّة ونظر إليها، ثم سأل بقليل من الفضول: "هل أنتِ هكذا دائماً؟"

عقدت حاجبيها بعدم فهم: "ماذا تعني؟"

"تلومين نفسك وتحمّلينها الخطأ"

صمتت روبي لذكرياتٍ باغتتها، ثمّ ابتسمت ابتسامة حزينة: "أحياناً... وربما غالباً"

درسها قليلاً، ثمّ قال: "لستُ غاضباً منكِ فما حدث لم يكن خطأك، وما فعلتِه بخصوص التحلية المجانية كان افضل وأكثر توفيراً، فقد كنتُ سأجعل وجباتهم مجانية"

ارتاحت لسماع ذلك، ثمّ سألت باهتمام: "لماذا لست في المطبخ إذاً؟"

رمقها بنظرته المخيفة: "هل

تستجوبين مديرك يا سميث؟"

هزّت رأسها بارتباك: "لا! أنا قلقة عليك فقط"

تنهد هيغنز مستسلمًا: "أنا بخير ولا داعي لقلقك. أريد استراحة فقط وسأعود خلال بضع دقائق تقاطعينها حاليّاً"

"حسناً حسناً فهمتك" همّت بالرّحيل، ثمّ التفتت مجدداً وقالت: "سؤال..."

"بسرعة"

"ما هي هوايتك المفضّلة؟"

زفر بنفاد صبر: "لماذا تسألين مجدداً؟"

"أفكّر بإحضار هديّة لك، وأريد معرفة ما تحبّ. لم أكن لأخبرك بالأمر وسألت بعض الزملاء ولكن لا أحد يعلم و– "

قاطعها بنبرة صارمة: "اقطعي الثرثرة يا سميث وعودي لعملك. لن أخبرك بأيّ شيء!"

تأففت بإحباط وتركت الجدال معه عائدةً إلى عملها حتى انتهت مناوبتها بسلام، ودون حوادث أخرى. بدلت ثيابها وهي تهمهم بلحنٍ ما، ثمّ تفقدت المطبخ وشعرت بالسعادة لرؤيته هناك. لم تشأ أن تقاطعه أو تنبّهه إلى وجودها لذا ابتعدت بهدوء واستعدت للرّحيل، فإذا بأصوات محرّكات السيارات الكثيرة تجذب انتباهها!

اقتربت مثل زملائها الفضوليين من البوابة لتلقي نظرة على السيارات، والرّجال الذين ترجّلوا منها وانتشروا حول المطعم بطريقةٍ مريبة، ثمّ سقط قلبها عندما رأت أندرياس يتقدّم مجموعة منهم، فتراجعت دون وعي

إلى هيغنز الذي خرج من المطبخ في اللحظة ذاتها، وتأمّل المشهد بصمت...

همست بتوتّر: "إنّهم رجال آل كورتيز"

لم يظهر أيّ مشاعر توحي بخوفه أو اكتراثه، لكنّه نظر إلى روبي نظرة المشفق لثانية قبل أن يعود لتحفّظه المعتاد، موجهًا بصره نحو أندرياس الذي ما أن وقعت عيناه على بطنها البارزة حتّى تجمّد مكانه وتبدلت ملامحه للصدمة

"سحقاً... الخبر صحيح بالفعل!"

12: الهدف وملك المكسيك

شغل رجال آل كورتيز الطاولات الخارجية للمطعم، وأمر هيغنز طاقمه باستقبال الزبائن الجدد في الداخل فقط، متجاهلاً نظراتهم المستغربة والفضولية، ولم يقتنعوا عندما أخبرهم أنهم ضيوف مهمّون جدًّا؛ إذ بدا واضحاً أن هناك أمراً غير عادي بشأنهم، ولكنّهم امتثلوا لأوامره دون نقاش. أمّا روبي فقد جلست في زاوية بعيدة عن الرّجال الذين درسوها بصمت موتّر وكأنّها تحت المجهر، يرصدون كلّ حركاتها، ويحسبون عدد أنفاسها. لم نكن بحاجة لفهم اللغة الإسبانية لتدرك أنّ أندرياس أمرهم بالتوقف؛ سرعان ما أشاحوا بأعينهم عنها وباشروا بطلب الطعام والثرثرة في ما بينهم...

تنهد أندرياس بإحباطٍ مجدداً، وحينها

قررت روبي التي اكتفت من الانتظار التحدّث قبله. قطعت الصمت بنبرة جافّة: "هل ستستمر بالتّنهد أم ستخبرني لماذا أنت هنا؟"

زفر ضحكة مستنكرة، وكأنّها سألت سؤالًا غبيًّا، ثمّ قال: "لماذا أنا هنا؟ أنتِ حبلى يا سنيوريتا!"

ردّت بنبرة حادّة: "وماذا لو كنت كذلك؟"

"لا لا لا، أنتِ لا تفهمين... أنتِ حبلى، وبحفيد الدّون فيرناندو، خارج إطار الزواج، والملعون 005 غير موجود!" أردف بنظرة حملت التحذير والضغط: "هل تعلمين أنّ الدّون غاضب وسيحرق العالم فوق رؤوسنا ورأسي خاصةً؟"

اضطربت نبضات قلبها، ولكنّ ملامحها

ظلت هادئة، تخفي القلق الذي ينهش روحها، ثمّ سألت بصوتٍ متّزن: "وما علاقتك بذلك؟"

"إنّ الدّون يكره ويمنع الحمل خارج إطار الزواج. لقد ضربني وكسر أنفي عندما أخبرته أنّي تسبّبتُ بحمل لورينا ولا يزال مستاءً لأننا لم نتزوج! ولو كان 005 موجوداً لكان قتله، ولكنّي واثق أنّه سيعاقبني لأنّي موجود في الأرجاء وأمام عينيه"

خفضت عينيها في شرود ذهن: "وهل سيعاقبني؟ هل سيؤذيني ويؤذي طفلي؟"

أجاب بوجه جادّ: "أنتِ امرأة وتحملين حفيده. لن يضربك بالطبع ولكني لست واثقاً من الأذى النّفسي الذي قد يمارسه عليك، وخاصةً بعد الأخبار الأخيرة"

"أيّ أخبار؟"

نظر إليها مليّاً، ثمّ ليّن نبرته: "ظهورك مع دييغو ريڤيرا، حملك وعدم الإفصاح عن ذلك لنا، اختفاء 005 وأخبارٌ عن عودته لعمله القديم"

لمست بطنها بقلق، ثمّ ردّت بصوتٍ مهتزّ: "لم أكن أعلم! لم أعلم من هو دييغو، ولم أعلم أنّ مارسيل قد عاد إلى عمله"

"أخبرته بذلك، وحاولتُ منع انتشار الخبر في البداية ولكن..." هزّ رأسه: "على كلّ حال، دعينا لا نتحدث عن هذا الآن. يجب أن نساعدك بالتحضير"

عقدت حاجبيها في شكوك: "التحضير لماذا؟"

"سنأخذك للمكسيك"

رمشت مستنكرةً ما سمعته: "ماذا؟ ما الذي تقصده بقولك إنّك ستأخذني للمكسيك؟"

"لا يمكنكِ البقاء هنا، وأمرنا الدّون أن نحضرك إليه فوراً" لمس قلبه بدرامية: "آه لقد كان ينوي إرسال يده اليمنى لورينزو لإحضارك، لذا كوني ممتنّة أنّي من أتى عوضاً عنه و..." سأل بإشفاق: "لماذا تبكين يا سنيوريتا؟"

فرّت شهقة باكية منها، ثمّ مسحت دموعها الهاربة قائلةً: "لا أريد الرحيل والعيش في المكسيك، بل أريد البقاء هنا! أخبره بذلك يا أندرياس"

ردّ بوجه مشفق: "لا أستطيع، ولن يقبل أن يعيش حفيده بعيداً عنه وفي أرض أجنبية. أمره لنا واضح وسوف يسخط لو لم تسر الأمور كما يرغب" تنهد

مجدداً، ثمّ سحب كرسيه لجانبها وضمّها مربّتاً على ظهرها بعطف: "لا تبكي يا روبي... وأنا آسفٌ حقّاً، لكن صدّقيني هذا الأفضل لك ولطفلك!"

همست بغصّة: "وكيف تعرف ذلك؟"

ابتعد عنها قليلاً، ثمّ أخذ وقته في مسح دموعها وهو يقول: "لن تكوني بأمان هنا، فهناك أعداءٌ كثر يتمنّون إيذاء الدّون، ولو علموا بأمرك فسيأتون لإيذائك واستخدامك ضدّه...

الدّون فيرناندو ليس رجلاً ظالماً يا روبي، قد يبدو كذلك ولكنّه في الواقع رجلٌ شريف، ولن يؤذيك أو يفرّقكِ عن طفلك"

ردّت بملامح غاضبة: "لقد فعل ذلك بدييغو ووالدته، فما ضمانتك لي؟"

"ما حدث مع دييغو ريڤيرا مختلف"

هزّت رأسها رافضةً: "أنت تقول هذا لأنّه الزعيم فقط... وأنا لن أذهب!"

"سيكون من الأفضل أن تأتي طواعيةً يا سنيوريتا، فلن يعجبك الأمر لو تمّ إرغامك وإحضارك قسراً، وحتّى لو هربتِ فسوف نجدك" أردف وهو يمسك يدها مؤكّدًا: "ستكونين بخير وبأمان هناك"

تنهدت روبي وهي تنظر للأرض التي تبتلع أحلامها ومخططاتها للمستقبل. شعرت بغثيان جعل أنفاسها تتثاقل، وقلبها يتألّم، فلمست بطنها في محاولة ائسة للهدوء واستجماع ذاتها المبعثرة، ثمّ قالت بصوتٍ حزين: " لديّ حياة هنا... عمل، وشقة، وطبيبة أيضاً، فماذا يفترض بي أن أفعل؟"

ربّت على يدها مجيبًا: "سيتمّ الاعتناء بكلّ شيء، فلا تقلقي"

شدّت على يده وسألت: "هل هذا يحصل لأنّ مارسيل ليس موجوداً في الصّورة؟؟"

"ربّما نعم وربّما لا. لا أعلم ماذا يجول في رأس الدّون حاليّاً، ولكننا يجب أن نذهب الآن" نظرت إليه بصدمة، فضمّها مجدداً وهمس: "لا تقلقي... سأكون معك"

***

غادرت المطعم وخلفها موكب المافيا الذين انتظروا خارج مبناها حتّى سُمِح لهم بالدّخول، ثم انتشروا في المكان ونقلوا أغراضها القليلة بحذر بينما هي تراقبهم بصمت، وإحساس بالعجز. تتمنى معجزة تعيد الزمن إلى الوراء، معجزة تجعلهم يختفون فجأة... لقد تغير كل شيء بسرعة فاقت قدرتها

على الاستيعاب!

"سنيوريتا...؟ لنذهب"

نقلت عينيها من الشقة الخاوية إليه، ثمّ نظرت إلى ساعتها وطلبت منه أن يعيدها للمطعم بسرعة. لم يتساءل أندرياس بل نفّذ الأمر فقط. أوصلها للمطعم بعد وقت الإغلاق، لكنّها ترجّلت من السيارة وأسرعت إلى هيغنز الذي تعلم أنّه يتأخّر بالخروج

عدّل معطفه الطويل استعدادًا للمغادرة، ثمّ قال بنبرة هادئة كما لو كان يتوقع مرورها: "سميث"

طرت إليه كما الابنة الصغيرة التي تأمل أن يغير والدها العالم من أجلها، أن يقول لها أي شيء يخفف وطأة واقعها...

"أنا راحلة" ازدردت بصعوبة، ثمّ قالت

بصوتٍ متحشرج: "سيأخذونني معهم إلى المكسيك"

نظر إلى أندرياس الذي يراقبهما بصمت عند البوابة، ثمّ إلى وجهها الحزين، وقال ببساطة: "فهمت"

"لم أستطع الرحيل قبل أن أودّعك وأشكرك"

"لم أفعل شيئاً يا سميث"

"بلى فعلت، لقد وظّفتني واعتنيت بي بطريقتك الخاصّة. أنا آسفة على كلّ المشكلات التي سبّبتها خلال عملي هنا، ..."

صمتت فجأة، ثم تحرك جسدها غريزيًّا لتعانقه. عقدت ذراعيها حوله للحظة من الزّمن دون قول شيء، تأمل أن يكون هذا العناق كافيًا للتعبير عن الكلمات التي لم تستطع البوح بها

نظّف هيغنز حنجرته، ثمّ قال ببروده المعتاد: "لا أحب العناق يا سميث"

ابتسمت بضعف قبل أن تبتعد عنه وتقول: "شكراً يا هيغنز... اعتنِ بنفسك وبالمطعم"

تأمّل وجهها لبرهة، وكأنّه يريد حفظ تفاصيله: "وأنتِ أيضاً اعتني بنفسك وبطفلك"

"حاضر"

تنهد تنهيدة قصيرة، ثمّ قال بغرور: "ولعلمك، أنا أحيك الكروشيه مع [illegible]تي في المنزل... هذه هوايتي المفضلة"

ردّت بوجه مبتهج: "شكراً على إخباري بذلك... إلى اللقاء"

"إلى اللقاء يا سميث"

التفتت روبي إلى أندرياس الذي أخبرها أن تسبقه للسيّارة، ثمّ تبادل النّظرات مع هيغنز للحظات قبل أن يقول: "لقد كنت أنتَ من أرسل خبر حملها للدّون... لماذا؟"

ردّ بجمود: "لا أستطيع حمايتها هنا. ستكون أكثر أمانًا في المكسيك مع فيرناندو، والآن ارحل فسوف أغلق المطعم"

***

صعدت روبي درج الطائرة الخاصّة بخطوات مثقلة بالهموم والأحزان، سحر بقوّة تجذبها وتحثها على التراجع والبقاء، على التمسك بحياتها هنا قدر المستطاع، لكن كلّ الاحتمالات ضدّها ويجب أن تختار مصلحة طفلها أوّلاً

جلس أندرياس في المقعد المقابل لها، ثمّ أحكم حزامه واستعدّ للإقلاع، فحاولت أن تبتهج وتفكّر بإيجابيّة لتغلب الأفكار السوداء التي تتدفّق إلى رأسها كالسّيل، لكن لم تكن المهمة سهلة؛ إذ كان عقلها يعرض شريط الأحداث السابقة بلا رحمة، يذكرها بما فعله مارسيل بها، بالشجار الأخير، بعملها الممتع في المطعم إلى لحظة الوداع المُرّة التي أُجبِرَت عليها

"سنيوريتا؟"

رمشت بسرعة وكأنها عادت من بعد . ثم نظرت إليه: "نعم؟"

تأمل ملامحها بشيء من القلق والشفقة، ثمّ قال محاولاً خلق جوّ مرح: "ما بكِ سرحتِ؟ كنت أسأل ما إن كنت جائعة وترغبين بالوجبة الآن، فأنتِ لم تأكلي شيئاً"

أومأت بأدب: "حسناً، شكراً"

"هل ترغبين بوجبتين أم ثلاث؟"

أجابت بسخرية: "واحدة ستكون كافية!"

حاكى ابتسامتها قائلاً: "آي آي.. أنتِ تأكلين عن اثنين ويجب أن تتغذي جيداً"

أشار أندرياس للمضيفة التي سرعان ما أحضرت العربة وقدّمت وجبة متكاملة لهما. بدأت روبي بتناول وجبتها ببطء وهدوء بينما هو يراقبها جيداً حتى نظرت إليه وسألت: "هل سيكون هناك طبيبة أو طبيب لأتردّد إليه؟"

تعجّب من السؤال، ثمّ قال: "بالطبع! هل تظنّين أننا سنهملك؟"

خفضت بصرها لطعامها واعترفت

بجزءٍ من الأفكار التي تقلقها: "لا أعلم ماذا أظنّ يا أندرياس... أنا خائفة من احتمالية أن يفرّقني الدّون عن طفلي. هل ستأخذونه وتقومون بتربيته؟ هل سيعيش معي أم معه؟"

حاول أن يطمئنها مجددًا وقدر المستطاع: "ستكونين مع طفلك فلا تقلقي... أخبرتك أنّ الدّون لن يفعل ذلك بك، وأخبرتك أنّ ما حدث مع دييغو مختلف. هو يريد حمايتكما يا روبي، فأنتِ تحملين أوّل حفيد له، أمير أو أميرة آل كورتيز"

فكرت بجملته الأخيرة لوقتٍ طويل، ثمّ همست بصوتٍ واهن: "هل سيكبر طفلي وسط الأسلحة والعنف؟" حدّق بها مطولاً دون أن يجيبها، فذبلت ملامحها وقالت: "هل رأيت؟ لهذا لا أريد الذّهاب! أريد حياة طبيعية

وهادئة له بعيداً عن كلّ هذا. لا أريده أن يعيش بين الخطر!"

ردّ بنبرة ليّنة: "أتفهّمك... فقد تمنّيت ذلك لابني أيضًا، ولكنّي أدركتُ أنّه حتّى لو عاش حياة طبيعية فسيلتهمني القلق عليه، أخاف أن تدهسه سيارة عندما يعبر الطّريق أو يهاجمه كلب مسعور أو حتّى ذبابة" تنهد تنهيدة قصيرة، ثمّ أكمل: "أنا لست شخصاً عابراً، وهو ليس بأيّ ولد. لا أحد منّا بأمان، وكلّ ما بيدي فعله هو أن أتكيّف وأجعله يتكيّف مثلي، أن أحميه بكلّ ما لديّ. وأنتِ أيضاً يجب ن تفعلي ذلك، فحتّى لو بقيتِ في السّاحل أو أيّ مكان آخر فلن تستطيعي أن تحظي بحياة طبيعية، لأنّ هذا الطّفل ليس الحفيد وحسب بل ابن من يُعرف في العالم باسم 005"

عقدت ذراعيها بتجهّم وقالت: "لا تعجبني إيزابيل فهي متكبرة ولئيمة، لذا أنا آسفة إن لم أشجع هذه العلاقة أو أبدِ اهتمامًا"

"لا ضغائن يا سنيوريتا. سأستمرّ بشتم 005"

"يسعدني أن أشارك في ذلك، ولكنّي لا أرغب بالتّحدث عنه حتّى"

ضحك ضحكة مكتومة فضحكت روبي مثله ونسيت همومها للحظات، ثمّ عمّ الصّمت الموحش، فحاول أندرياس تلطيف الأجواء مجددًا بسؤاله: "هل عرفتِ جنس الجنين بعد؟"

أجابت ببهجة: "هناك احتمالٌ ضئيل أن يكون صبيّاً ولكنّ الاحتمال الأكبر أنّها فتاة"

إبتسم ابتسامة عريضة ولمعت عيناه

بحماسة: "ستكون فتاة. أريدها أن تكون فتاة!"

رمقته بسخرية: "وما شأنك بذلك؟"

"أحبّ الفتيات الصغيرات حقّاً، وأرغب بابنة في المستقبل"

رفعت ذقنها بتكبّر: "لن أسمّيها أندريا لو كانت فتاة"

أشار بسبابته نحوها مهدّدًا: "جيد، فأندريا اسم ابنتي ولن أسمح لكِ بسرقته!"

ردّت بنبر ساخرة: "لقد اخترت اسماً بقاً فلا تقلق يا سنيور"

"حقّاً؟ بهذه السّرعة؟"

أجابت بابتسامة صغيرة: "منذ كنت صغيرة، اخترت اسماً لصبي وآخر لفتاة، ولم أخبر أحداً باختياري سوى

انقبض قلبها لكلماته وما تحمله من معانٍ، فأشاحت بنظرها للنافذة وتأملت السماء المظلمة وهي تتساءل ما إن كان مستقبلها في المكسيك هكذا؛ فارغًا ومظلمًا، بلا نجوم أو قمر ليضيء العتمة. تساءلت ما إن كان مارسيل قد علم بما سيحدث ولهذا أصرّ على إجهاضها للطفل، تساءلت عن أسباب انفعاله مجددًا رغم أنّها عاهدت نفسها ألا تفكر به...

أسند أندرياس ظهره للمقعد، يتأملها وهو متيقن أنها تفكر به، ثمّ قال: "أنا آسف... أعلم كم أحببته، ولكنّه وغد مبين كما كنت أقول دائماً"

"لا تعتذر... فأنا المخطئة. كنت أستمرّ بكوني عمياء وغبية حتّى لا أرى الحقيقة رغم أنّها أمامي" صمتت قليلاً: "على كلّ حال. هذا الكلام لا يهمّ وما

حدث قد حدث. لنتحدّث عن شيءٍ آخر"

"حسناً" ارتشف من مشروبه الغازي، ثمّ قال: "كنت أنوي طلب يد إيزابيل للزّواج"

نظرت له باستنقاص وتقزّز واضح على وجهها: "أنتَ وإيزابيل؟ هل العلاقة جادّة لهذه الدّرجة؟"

رفع كتفيه: "أحياناً أشعر أنّها كذلك وأحياناً لا. إنّها تصيبني بالجنون"

تمعّنت النظر به وهي تفكّر، ثمّ سألت بنبرة هادئة: "هل تحبّها؟"

"الحبّ مختلف من منظوري يا سنيوريتا. أرى أنّ إيزابيل تناسبني. لديها الوجه والجسد والشخصية التي تجذبني وتتماشى معي. أحبّ المرأة التي تخفي ضعفها وحقيقتها التي لا

يعلم بها سواي خلف قناع القوّة والجمال، وإيزابيل هكذا. فاتنة، ولكنّها مجروحة في أعماقها، وأنا أحبّ الاعتناء بامرأة مجروحة أيضًا!"

هزّت رأسها باشمئزاز: "أنت مريض يا أندرياس"

قهقه بصوتٍ عالٍ: "آي آي انظروا من يتحدّث! الآنسة التي وقعت في حبّ قاتل مأجور"

صمتت قليلاً قبل أن تزفر بتهكم: "أظنّني مريضة أيضاً"

عدّل جلسته بفرور: "سمّيه مرضاً ولكنّي أسمّيه اختلافاً"

"وما الذي ستفعله معها؟"

"لا أعرف، سأرى ما يخبئه المستقبل لنا"

أبي"

"أخبريني... لن أسرقهما"

ضحكت برقّة، ثمّ قالت: "لو كانت فتاة فسيكون اسمها مِيا، ولو كان صبيّاً فسيكون روبِن"

قال بابتسامة جانبية ماكرة: "روبِن قريب من روبي قليلًا. أنتِ تحذين حذوي يا سنيوريتا! هل أنا أؤثر عليكِ لهذه الدّرجة؟"

"في أحلامك"

ضحكا معاً، واستمرّ أندرياس بالثرثرة ورواية القصص الطريفة من ماضيه، إضافةً إلى الأسئلة العشوائية التي باغتها بها، والتعليقات الساخرة التي جعلتها تضحك وتنسى التفكير بالمستقبل القادم قليلاً. كان يشعر بثقل أفكارها كلّما سكتت، لذا أراد أن يكون

الضجيج الذي يغطي على صوت تلك الأفكار، وكانت روبي تعي ما يجري، ممتنة لمحاولاته وتستغلها قدر الإمكان لتشعر بالراحة...

***

هبطت الطّائرة في مطار العاصمة مكسيكو بسلاسة. تمّ أخذ روبي لجناح كبير في أفخم فندق، واستقبلها فريق طبي متكامل؛ ليتفقدها ويتحقق من صحتها وصحة الجنين. وبعد قسطٍ من النوم المريح، اصطحبها أندرياس لمقابلة الدّون فيرناندو، الذي يجلس إلى إحدى الطاولات في مطعم الفندق الفارغ وحوله رجالٌ كثر، لم يكفّوا عن إرباكها بنظراتهم، وكأنّها تحتاج للمزيد من التوتّر والضغط!

نظرت إليه أوّلاً، ثمّ أطالت التحديق بالرجل الذي يقف يمينه. لم يكن رجلاً

وسيماً بل جميلاً، ليس مثل مارسيل أو أندرياس، بل متفوقاً عليهما بمراحل. كان حليق الرأس لكن ليس بأصلع، شعره ذهبي داكن، عيناه ساحرتان فتارةً تظهران باللون الأزرق وتارةً أخرى يحسب الغريب أنّ لونهما أخضر فاتح، والحقيقة أنّهما مزيج من اللونين بشكل مميز. أنفه متناسق مع وجهه، ليس بحاد ولا معقوف، حاجباه منحوتان بإتقان، رموشه كثيفة وطويلة، تضفي لنظراته سحراً غامضاً، وكان يبدو نظيفاً جداً لدرجة أشعرتها أنّها لو اقتربت فسوف تشتمّ رائحة مابون تفوح منه، ولكنّها خافت من نظراته الجليدية الحادّة نحوها، فصرفت نظرها عنه للدّون مجدداً، ثمّ اتخذت مقعدها مقابله بهدوء...

تأمّلها فيرناندو قليلاً قبل أن يبادر بالحديث: "نحن نلتقي مجدداً يا روبي

سميث"

شبكت يديها واكتفت بإيماءة بسيطة دون النظر لعينيه مطولاً، خشية أن تتمكن نظراته من إرباكها أكثر

"كيف وجدت إقامتك؟"

أجابت بهدوء: "كان كل شيءٍ جيداً... شكراً لك"

"ممتاز، والآن يمكننا أن نتحدّث، ولكن من أين أبدأ؟ من مواعدتك لابني ثمّ ظهورك مع ابن بيرتو ريقيرا أو من خبر حملك خارج إطار الزّواج وإخفائكِ ذلك؟"

ردّت بنبرة متنرفزة دون تفكير: "لم أكن أعلم بحقيقة دييغو"

سأل بنبرة أكثر صرامة: "ولماذا ظهرتِ معه منذ البداية؟"

ابتلعت ريقها الجافّ، ثمّ أجابت وهي تخفي ارتباكها: "لقد حدث شيء، واضطررت—"

"عندما أسألك سؤالاً يا روبي سميث فأنا أتوقع إجابة مفصّلة مهما كانت، هل تفهمين؟"

أومأت روبي وهي تخفض رأسها. شدّت على قبضتيها مستجمعةً شجاعتها، ثمّ بدأت بسرد ما حدث بصوتٍ منخفض، لكنّ الهدوء حولها جعل كلماتها تتردّد بوضوح على مسامعهم، مثلما ترددت ضحكاتهم ... ساتهم عندما ذكرت الشجار الذي انتهى بكسر أنف وسنّ رفيقة دبيغو، لكنّ نظرة خاطفة من الدّون أخرستهم تمامًا!

"هل خطّطتِ لحملك؟"

هزّت رأسها مرة واحدة مجيبةً: "لا"

نقر بإبهامه الأيمن على الطّاولة، وكأنّها إشارة إلى أنّ أعصابه قد بدأت تشتدّ، ثمّ قال: "ولماذا لم يتحدّث أحدكما عندما علمتما بالأمر؟"

أجابت وهي تتذكّر عراكهما: "لم يكن يعلم في البداية، ورفض الاعتراف بذلك عندما أخبرته. طلب منّي التخلص منه لذا هجرته"

"هل تعرفين مكانه؟"

"لا.."

مقلّباً العديد من الاحتمالات داخل رأسه، ثمّ قال بجفاء: "حسناً، لنركّز على الأهمّ الآن. أنتِ تحملين حفيدي لذا ستبقين في المكسيك وتربّينه. سوف أؤمّن لك مكاناً لتعيشي فيه بأريحية، يمكنك الخروج والدخول لكن

ليس بمفردك بل سيكون هناك رجالٌ لمرافقتك على الدّوام. سيكون لك مصروف شهري أيضاً، ويمكنك طلب أيّ شيء وسوف يتمّ توفيره لكِ. ستهتمين بصحتك وصحة الطّفل... مفهوم؟"

قالت بتردّد: "يمكنني العمل وإعالة نفسي"

عدّل الدّون جلسته وتفحصها بنظراته: "وماذا تجيدين؟ ما هي مؤهّلاتك؟ محاماة؟ طب؟ هندسة؟"

انكمشت على نفسها وأجابت بصوتٍ وبه الذّل: "ليس.. لديّ شهادة في ذلك"

"ماذا ستعملين إذاً؟"

ازدردت بتوتّر وفقدت كلماتها في البداية، ثمّ تشجعت وقالت: "يمكنني

العمل كنادلة أو—"

"هراء!"

صفع الدّون فيرناندو الطاولة بيده فجأة، فارتجفت روبي وشهقت بخفّة، ثمّ صرّت على أسنانها محاولةً منع دموعها من غزو عينيها

قال بصوتٍ صارم ملؤه الازدراء: "هل تنوين إعالة نفسك وحفيدي بوظيفة نادلة؟ ثمّ ماذا؟ ترسلينه لمدرسة سيئة وتجعلينه ينام جائعاً في الليل؟ أو تكسينه بثيابٍ رديئة؟" أردف بنبرة تحذيرية: "أم حفيدي لن تعمل كنادلة ٍ في أيّ وظيفة بهذا المستوى هل تفهمين؟ فكّري بشيء آخر أفضل وأعلميني، وإلى ذلك الوقت ستأخذين مصروفك وتهتمين بصحّتك وصحّته"

شدّت على طرف ثوبها وظلّت صامتة،

تخفض رأسها بشكلٍ مثير للشفقة بعد هذه الهزيمة، لكنّ مظهرها لم يحرّك شيئاً داخل قلب الدّون، بل زاده غضباً!

"هل لديك طلبات خاصّة قبل أن أصرفكِ؟"

وجدت الشجاعة لتخبره أنها تود العيش في ڤيراكروز حيث أندرياس، فقبل ذلك وصرفها ليناقشه حول إقامتها هناك، وتلبية كلّ طلباتها. كان أندرياس يهز رأسه بخضوع لكل أوامره، يقطع الوعود بتنفيذها على أكمل وجه، ويدعو ألا تتخذ هذه ادثة المنحنى الذي يخشاه، لكنّ الدّون كشفه وضغط عليه بسؤاله: "هل أقنعت لورينا بالزّواج بعد؟"

فتح أندرياس المتوتر فمه وأغلقه، ثمّ فتحه مجدداً وأجاب: "لا ترغب بالزّواج بي"

وبّخه الدّون قائلاً: "وكيف لها؟ أنت تقفز إلى لندن في كلّ حين وآخر وتتركها وحدها. قلّل من هذه السّفريات يا أندرياس والتفت إلى عائلتك وعملك!"

طأطأ رأسه قائلاً: "حاضر"

غادر الدّون وتبعه لورينزو الذي همس بكلمة أثارت انزعاج أندرياس ، وجعلته يرغب بالانقضاض عليه، لكنّه تمالك نفسه واتّجه إلى جناح روبي ليجدها تمسح دموعها كلما تساقطت

قال بنبرة مهتمة مقتربًا منها: "آي آي.. ماذا تبكين مجددًا يا سنيوريتا؟"

مسحت وجهها بالمحارم مجيبةً بصوتٍ متحشرج: "تأثير الهرمونات... ويبدو أنّي سأكون عبأك هذه المرّة يا أندرياس"

جلس بجانبها ولمس كتفها قائلاً: "لا تقولي ذلك"

"أنا آسفة جداً ولكنّي لم أرغب بالذهاب لمكانٍ جديد لا أعرف فيه أحداً"

"أنا سعيد لرغبتك بالعيش عندي وأتشرّف بذلك. ستكونين بخير وسأحرص أن تكون إقامتك مريحة، لذا لا تبكي ولا تحزني فهذا ليس جيداً لصحتك ولا صحة الطّفل"

حاول أن يخفّف عنها مقترحاً تناول الطعام ومشاهدة فيلم ما، فابتسمت بامتنان مرحّبةً بهذه الفكرة، ثمّ تذكّرت أ وسألت بفضول: "هل كان الرّجل الذي وقف بجوار الدّون هو لورينزو الذي ذكرته سابقاً؟"

أجاب بوجه متجهم: "أجل"

"ظننت أنّ شكله مخيف من وصفك،

ولكنّه لم يبدُ كذلك"

اندفع قائلاً بتذمّر: "إيّاكِ أن تنخدعي بشكله فهو مخيف ويكرهني أيضاً. نحن لا نتّفق أبداً، مثل الماء والزيت!"

"كيف هي شخصيته؟"

لمس ذقنه مفكراً، ثمّ قال: " لو وضعتُ الدّون فيرناندو و005 مع مكعّبات ثلج وملعقة من الشّر النّقي في خلاط، فسوف أحصل على لورينزو!"

اتسعت عيناها بتعجب: "لهذه الدّرجة؟"

"جل وهو غريب الأطوار أيضاً. هل تعلمين أنّه لا يشرب الكحول أبداً؟ وليس لديه أيّ وشم ولا حتّى الخاصّ بنا! على أيّ حال، دعينا منه وأخبريني ماذا تريد ميا أن تتناول يا ترى؟"

ابتسمت بسخرية: "ربّما روبن"

ردّ بتعجرف: "سأذهب للزيارة القادمة معكِ وسترين أنّها فتاة"

قبلت التحدي وقالت: "حسناً، سوف نرى"

13: روبن أو ميا؟

"مذكرتي العزيزة، لقد استقررتُ في مجمّع أندرياس، وفي شقّة شابهت تلك التي سكنت بها مع مارسيل سابقاً، ولكنّهم جدّدوا كلّ شيءٍ من أجلي وأفرغوا الغرفة المجاورة لتكون لطفلي القادم. كان الجميع متعاونين معي، وخاصّةً لورينا التي كانت لطيفة جدّاً. تعيش مع آندريه في الدّور ذاته، وأظنّنا سنصبح صديقتين؛ فهي وكما أشكّ محبوسة هنا مثلي...

لا أستطيع الانهيار، لا أستطيع أن أزن ويجب أن أتأقلم من أجل صحّة طفلي وصحّتي. ليست هذه الحياة التي كنت أتمنّاها، لكنّي لا أستطيع الهرب منها وتغيير الواقع. أنا حبلى بطفل مارسيل، بحفيد الدّون فيرناندو مينديز الملقّب بملك المكسيك! سأبذل

ما بوسعي ليكون سعيداً وبأمان، سأحبّه بكلّ جوارحي وأحرص ألا يعاني، واليوم سأطمئنّ على صحّته وأتحقق من جنسه... إمّا ميا أو روبن"

***

هتف أندرياس متذمراً: "سوف نتأخّر عن موعد الطبيبة يا سنيوريتا، فأسرعي!"

"حسناً حسناً لا تدفعني، أنا الأمّ وليس أنت"

زفر بسخرية وأشار لها أن تسرع، ثمّ انطلق إلى العيادة وهو يقود بحذر وعلى وجهه ابتسامة متحمسة؛ لا يطيق الانتظار كي يفوز بالرهان الذي شارك به الكثيرون

"سأكسب مبلغاً محترمًا لو كانت فتاة"

ضحكت روبي برقّة، ثمّ قالت: "هل تصدّق أنّ ذلك المدعوّ خوليو قد أتى لسؤالي عن الطعام الذي آكله هذه الفترة وما إن كان حلواً أم مالحاً؟ آه من هذه الخرافات!"

"لقد راهن خوليو على أنّ الطّفل سيكون صبيّاً، لذا يريد أن يعلم قبل أن يقرر الهرب منّا"

ضحكت مجدداً، ثمّ استمرّت بالتّحديق عبر النافذة حتّى وصلا إلى العيادة الخاصّة، وانتظرا للحظات استغلها أندرياس في قراءة مجلة عن الأمومة بينما روبي تتأمّل إحدى الأمهات وبطنها المكوّرة بقلق

همست له: "هل ستكبر بطني لهذه الدرجة؟ سأصبح بدينة وسأمشي كالبطريق!"

همس ساخراً: "البطريق حيوان ظريف فلا تقلقي"

"روبي سميث..."

نهضت عندما نادوا باسمها وهي تضحك، ثمّ التفتت إليه وسألت: "ألن تدخل؟"

ردّ بارتباك: "هل تودّين منّي الدخول؟"

"لا أمانع"

أومأ أندرياس وهو يشعر بالحرج بعض الشيء، ثمّ دخل معها إلى الغرفة، حيث تعرّفت روبي على طبيبتها الجديدة التي ارتاحت لكونها تتحدث لغتها بشكلٍ مفهوم. شرعت تخبرها عن حالتها، وتستفسر عن التفاصيل التي تقلقها، ثم استلقت على الفراش الأبيض ورفعت قميصها،

فالتفت جانباً احتراماً لخصوصيّتها

قالت الطبيبة بمزاح خفيف: "ظننتكَ الأب"

علّق بغرور: "إنّها تتمنى ذلك!"

لم تستطع روبي منع الابتسامة الصغيرة من التسلل إلى وجهها رغم المرارة التي لسعت قلبها، ثمّ قالت: "إنّه صديق عزيز"

ظهر طيف ابتسامة على شفتيه، وكأن جملتها قد لامست قلبه، ثمّ التفت بعد أن غطّت نفسها وبقي يحدّق بالشاشة بفضول، حتى طمأنتهما الطبيبة على صحة الطفل وأشارت لموقعه

"هل ترغبين بسماع نبضات قلبه؟"

أجابت روبي وعيناها تبرقان بحماسة: "بالطبع فهذا أفضل جزء!"

ضغطت الطبيبة على أحد الأزرار، فإذا بصوت نبضات الطفل يتصاعد تدريجيًّا مثل دقات طبل صغيرة، تضرب على أوتار القلوب وتعزف لحنًا تملؤه الحياة.وضعت روبي يدها فوق بطنها بلطف. تتمنى احتضان الصوت واحتجازه في قلبها للأبد، تفيض بها مشاعر الأمومة ويفيض بها الحب الذي يفوق الكلمات. أمّا أندرياس، فقد عصفت به المشاعر المضطربة؛ لم يكن يسمع صوت طفل روبي وحسب، بل صوت الماضي الذي حُرِمَ فيه من الاقتراب من ابنه، من سماع نبضاته وحضور ولادته وحتى لمس لحظاته الأولى!

ضرب الصوت وترًا حسّاسًا في قلبه، ذكّره بما فقده وسُلِبَ منه حتى تغرغرت عيناه بدموع نجح في إخفائها بسرعة قبل أن تلاحظه روبي، لكنّها

شعرت بوجود خطب ما

"ما بك؟"

زفر بانبهار: "هذا... أجمل صوت سمعته في حياتي"

ابتسمت بسعادة، ثمّ التفتت للطبيبة وسألت: "ما هو جنسه؟ هل هو صبي أم فتاة؟"

"بنسبة تسعين بالمئة، أقول إنّها فتاة"

هتف أندرياس بحماسة: "أجل!"

"أحدهم يرغب بفتاة صغيرة كما يبدو"

روبي بسخرية: "أجل، وربح الرّهان أيضاً"

***

عاد أندرياس إلى المجمّع ونشر الخبر بين الرّجال الذين تذمّروا لخسارتهم الرّهان، وشككوا بنتيجة الطبيبة، كما انهالت التبريكات على روبي التي اكتفت بابتسامة صغيرة قبل أن تصعد إلى شقّتها وتصادف لورينا التي تحمل القهوة والبسكويت...

"كنت أتساءل ما إن كنت ترغبين بشربها معي"

"سأشرب الشّاي ولكن تفضّلي بالدّخول"

وحينها ظهر أندرياس المندفع قائلاً: "لا شاي أو قهوة ودردشة نساء هنا! اذهبا لشقتي أو خاصّتك يا لورينا"

رمقته لورينا بانزعاج: "ولماذا؟"

أجاب بحماسة: "سيأتي مهندس من أجل غرفة ميا، سأحوّلها لواحدة تليق

بأميرة صغيرة!"

فتحت روبي فمها بصدمة: "لست جادًّا يا أندرياس"

ردّ بنظرات جادّة: "بل جادٌّ جدّ الجدّ، لذا هيا ارحلا من هنا!"

دفعهما خارجاً حتى كادت لورينا أن تسقط صينية القهوة، ثمّ وقفت روبي المتعجبة تراقب ما يحدث عبر نافذة معيشة لورينا التي تطلّ على الجهة المقابلة حيث شقتها...

"اجلسي يا روبي وسأسكب لك الشّاي"

جلست على الأريكة بقربها وارتشفت من الشّاي الدافئ، ثمّ هزّت رأسها وقالت: "هذا الرّجل لا يُصدَق"

علّقت لورينا بتهكّم: "هذه البداية فقط يا عزيزتي"

"حقّاً؟ إنّه متحمّس أكثر منّي"

ارتشفت لورينا من قهوتها وهي تفكّر، ثمّ قالت: "هل يمكنني أن أطلب منكِ شيئاً؟"

"بالطّبع"

"أنا أعرف أندرياس حقّ المعرفة، وسيكون مزعجاً بعض الشيء في المستقبل، ليس بسبب كونكِ ستنجبين فتاة، بل لأنّه لم يعش معي فترة حملي. لم يستطع أن يكون بجانبي، أو يجهز غرفةً لأندريه أو حتّى يحضر ولادته"

روبي بوجهٍ مشفق: "أوه... هكذا إذاً؟"

"هو يريد تعويض ذلك الجزء من خلالك، لذا رجاءً لا تصدّيه وتكسري قلبه"

"تهتمين لأمره كثيراً"

ابتسمت لورينا مجيبةً: "بالطبع سأهتم. هو كذلك. بيننا تاريخ قديم وابن ظريف أيضاً"

"وألا تفكرين بالزواج به أبداً؟"

تأمّلت كوب قهوتها لبرهةٍ طويلة، ثمّ قالت: "لن ينجح هذا الزواج، وهو يواعد امرأة أخرى أيضاً" تنهدت: "والدّون يضغط علينا بطريقة غير مباشرة، هل تتخيلين ذلك؟"

"أشعر بالأسى عليكِ"

ردّت لورينا بسخرية: "لنأمل ألا يضغط عليكِ ويزوّجك بمارسيل قسراً، أو بأحد رجاله"

اقشعرّ بدن روبي فجأة لمجرّد التفكير بذلك، ثمّ ارتشفت من الشّاي وسألت: "هل يمكنني سؤالك شيئاً؟ لماذا لقب

الدّون هو ميندیز عوضاً عن كورتيز؟"

"اسمه الكامل هو فيرناندو سيدرو ميندیز كورتيز"

شهقت روبي بتعجب: "يا له من اسم طويل!"

ضحكت لورينا قليلاً: "سيدرو اسمه الأوسط، ولكنّ لقب ميندیز هو في الحقيقة لقب والدته قبل الزواج. وضعه قبل كورتيز تكريماً لها و لذكراها، ولهذا السبب ينادونه بفيرناندو ميندیز"

أومأت روبي بفهم: "هي ميتة إذاً"

"نعم لقد ماتت منذ زمن طويل. سمعت أنّها كانت امرأة قوية. قادت آل كورتيز بعد موت زوجها وربّت ابنها دون الحاجة إلى رجل يساندها... كانوا يلقبونها بـ الإمبراطورة!"

"فهمت... وهل تعلمين شيئاً عن زوجته الحالية؟"

"مع الأسف، لا أعرف سوى اسمها"

أومأت روبي مجدداً وارتشفت من الشّاي، بينما نقرت لورينا على كوبها عدة مرات قبل أن تضعه جانبًا وتقول: "هل يمكنني سؤالك؟"

"لنتخطَّ الرسميات في الأسئلة، اتفقنا؟"

ضحكت لورينا ووافقتها الرّأي، ثمّ قالت: "لم أشأ أن أسألك هذا في أوّل لقاء ولكن... سمعتُ أنّك التقيتِ بدييغو ريڤيرا"

عبس وجه روبي وهي تؤكّد ذلك: "مع الأسف"

"لا تغضبي منّي. لم أسألكِ بسبب ما يُقال بل أريد سؤالك عنه. كيف كان

حاله؟"

"هل تعرفينه؟"

أجابت بتردّد: "لقد نشأنا معاً"

"حقّاً؟"

"اعتادت عائلتي التّردد على منزلهم، وكنّا مقرّبين من بعضنا رغم أنّه كان أكبر منّي" ابتسمت وهي تتذكّر: "كنّا نعشق ألعاب الڤيديو وكانت لعبتنا المفضّلة هي سوبر ماريو، لدرجة أنّنا تنكرنا بشخصيات اللعبة. لقد كان ماريو بالطّبع وأنا كنتُ—"

أكملت روبي عنها بنبرة مشككة: "الأميرة خوخة..."

رمشت لورينا باستغراب، ثمّ قالت بنبرة ساخرة: "صحيح، كيف عرفتِ؟"

ارتبكت للحظة ثمّ أجابت: "لقد رأيت

وشماً يضعه على كتفه، ولقد كان للشخصيتين اللتين ذكرتهما"

تبدّلت ملامح لورينا وسرحت بذكرياتها لبرهة طويلة جعلت روبي تشعر بالفضول، ورغبة في كشف الغموض الذي يحيط بهذه المحادثة...

"يبدو أنّه لا يزال يعتزّ بصداقتكما" أردفت بمزاح خفيف: "أم هل يعقل أنّ الأمر تخطّى ذلك؟"

"في الواقع... هو والد أندريه الحقيقي"

كادت روبي أن تفلت كوب الشاي من يدها من شدة الصدمة. وضعته على الطاولة وتجمّدت يداها في الهواء، لتضحك لورينا على ردّة فعلها

وضعت يدها على قلبها المذعور: "أرجوكِ قولي إنّك تمزحين"

زفرت لورينا نفساً طويلاً لتهدأ، ثمّ قالت: "أمازحك بالطبع" استطردت بصوتها الناعم: "لقد كان حبّي الأوّل وجمعتنا لحظة قبل أن يترك المكسيك. كنّا مراهقين وكنتُ أكترثُ لأمره كثيراً، وحزينة لرحيله... لم أكن أظنّ أنّه ما يزال يهتم"

"بدا وحيداً في نظري"

لورينا بوجهٍ مشفق: "حقّاً؟ هذا مؤسف... كان دييغو هادئ الطباع منذ أن كنّا صغاراً، وليس لديه أصدقاء كثر"

"هل ترين أنّ ما حدث معه غير عادل؟"

تنهدت لورينا، ثمّ قالت: "لقد كرهتُ الدّون لهذا القرار، ولكنّي فكّرت بالأمر لاحقاً دون إدراج مشاعري ووجدت أنّ رحيل دييغو هو أسلم حلّ"

اعترضت روبي بانفعال بسيط: "كيف له أن يكون أنسب حلّ؟ ألم يقتصّ الدّون من أخيه وأبيه؟ لذا لماذا نفاه وحذّره من العودة، وفرّقه عن والدته؟"

"الدّون فيرناندو رجلٌ يدرس كلّ تحركاته، لذا لا بدّ أنّ هناك سبباً نجهله"

ردت ببرود: "وربّما هو رجلٌ قاسٍ وظالم فقط"

"لا تدعيهم يسمعونك"

تنهدت روبي باستسلام، ثمّ انتقلت للحديث عن موضوع آخر متعلق بالحمل والأطفال، حتّى اقتحم اندرياس الشقة ومعه مجلّة تحمل بين طياتها عيناتٍ لغرف الفتيات. جلس بينهما وفتحها ليعرض على روبي مختلف الغرف التي بدت رائعة الجمال وظريفة جدّاً، وكلّها تشترك في اللون

الورديّ بطريقة مبالغٍ بها

"لدى هذه الشركة خاصية أخرى بما يتعلّق بالفراش. يغيرونه طوال فترة نموّ الطّفلة لذا لا حاجة لكِ لشراء عدّة أسرّة، والجودة عالية كذلك"

أشارت لورينا إلى صورة ما: "أعجبتني هذه الغرفة"

ابتسم أندرياس ممازحًا: "سعيدٌ لكوننا ما نزال نملك الذوق ذاته يا عزيزتي لورينا، متى سنتشارك لقب عائلتي يا ترى؟"

قلّبت ناظريها ودفعت رأسَه: "يا لمزاحكَ الثقيل!"

تأمّلت روبي الصّورة التي أعجبتها، ثمّ اعترضت على السّعر، ليقول أندرياس: "لن تدفعي أي شيء يا سنيوريتا، فقد أمرنا الدّون أن نلبي كلّ

طلباتك. سآخذه من حسابه فلا تقلقي"

كانت كلماته عفوية، لكنّها تركت في قلبها شعوراً بالضيق والعجز. بدأ الحزن يتسلّل لعينيها، فقامت لورينا بلكز أندرياس بخفّة لتحثّه على الحديث

"إنّ ابنتكِ تستحقّ الأفضل" ابتسم بلطف: "إضافةً إلى ذلك، أنتِ وميا الصغيرة ضيفان عندي وهذا أقلّ شيءٍ يمكنني فعله من أجلكما"

ابتسمت بامتنان رغم الشعور السلبي الذي يضغط على صدرها ويجعلها متردّدة، ثمّ اختارت الغرفة بمساعدتهما وخرجت لمقابلة المصمّم وتخيل النتيجة النهائية

"أبي!" هتف أندريه الصغير، فجثا أندرياس على ركبته ليعانقه ويقبّل رأسه، ثمّ سأل: "ما الذي تفعله مع

العمة روبي؟"

"نفكّر بتصميم غرفة ميا"

عقد حاجبيه وسأل ببراءة: "من ميا؟"

"ابنتها. ستكون صديقتك، لذا من الأفضل أن تحسن معاملتها عندما تأتي لهذا العالم"

استرق نظرة إلى روبي وبطنها قبل أن يهمس بصوتٍ مسموع: "ولكن... أليست ميتة؟ لقد أكلتها العمّة روبي"

قهقه أندرياس بصوتٍ عالٍ وتساءلت روبي عمّا قاله؛ فهي لا تفهم اللغة الإسبانية بعد، ولكنّها ضحكت عندما ترجم لها أندرياس ما قاله ابنه الذي لم يطل البقاء وخرج للعب الكرة في الفناء...

"ابنك ظريف جدّاً"

ردّ مغترّاً: "أعلم فأنا أبوه" استطرد: "على أيّ حال، اكتبي كلّ ما تحتاجين إليه من أجلك ومن أجل ميا، ولنذهب للتسوّق وشراء الملابس أيضاً"

رفعت روبي يدها بارتباك: "تمهّل يا أندرياس! ليس علينا شراء كل شيء مبكراً وخاصةً الملابس. قلّل من حماسك قليلاً"

لمس عنقه وهو محبط بعض الشيء: "هل أزعجتك؟ هل ترين أنّي أتدخّل كثيرًا؟"

شعرت بالذّنب يعصر قلبها، فقالت: بالطبع لا. أنا ممتنة لك ولما تفعله ولكنّي لا أريدك أن تتسرّع فقط... كلّ شيءٍ في وقته"

تبسم بحماسة: "هل يمكنني شراء حذاءٍ لها إذاً؟ أريد أن أكون أوّل من

يحضر هديّة لها!"

"حسناً يمكنك ذلك وخذ أصغر مقاس، وحاول ألّا تكون كلّ الخيارات وردية اللون"

رمقها بنظرة حادّة: "الوردي هو لون الفتيات ولا نقاش في ذلك. يمكنها أن تختار لونها المفضل عندما تكبر"

لمست روبي بطنها فجأة: "لقد تحرّكت"

"حقّاً؟"

ابتسمت قائلةً: "لاحظتُ أنّها تتحرّك عندما تكونُ بالجوار وتثرثر. يبدو أنّها تسعد لسماع صوتك"

أومأ أندرياس بفخر: "سأشتري لها كلّ الألوان! وداعاً"

خرج من الشّقة مسرعاً بينما روبي لا

تزال متفاجئة. ثمّ تلاشت ابتسامتها ببطء واحتضنها الحزن، وكأنّه يذكرها بوجوده، فهمست بصوتٍ مكسور تردّد صداه في الغرفة الفارغة: "ليت مارسيل مثلك يا أندرياس..."

أغمضت عينيها لوهلة، ثمّ التقطت هاتفها بتردُّدٍ وانتقلت إلى معرض الصور، وإلى الصورة الوحيدة التي احتفظت بها، الصورة التي ابتسم فيها ابتسامة نادرة لم تحمل الأسرار المظلمة التي طعنتها، ولا الوجع الذي كسرها...

"ليتك كنت حقيقياً... ليتك اخترتنا.."

14: أميرة آل كورتيز

ضربت موجة حرّ شديدة ڤيراكروز، وجعلت الناس ينتهزون الفرصة لقضاء يومهم على الشاطئ، وممارسة مختلف الأنشطة، بحثاً عن الانتعاش وسط الحرارة التي لا تُطاق كما وصفتها روبي التي لم تعتد هذا الطقس بعد؛ قامت بإغلاق جميع النوافذ وضبط نظام التبريد، كما أحضرت المروحة ووجّهتها على الأريكة، حيث جلست ومدّدت ساقيها على طاولة القهوة بعد إحضار وجبة خفيفة وعصيرٍ مثلّج

نبًّا! جهاز تحكم التلفاز بعيد"

تأففت بصوتٍ عالٍ وهي تحاول النهوض ومدّ يدها لإحضاره، ولكنّ بطنها الكبيرة تعترض محاولاتها الفاشلة، لتتأفّف مجدداً وتتنهد بإحباط

وتعب، ثمّ طرق أحدهم باب الشّقة فهتفت بأعصابٍ مشدودة، تعلمه أنّ الباب مفتوح. شهقت بسعادة عندما دخل أندرياس ونظرت إليه كما لو أنّه الفارس المغوار، والبطل الذي جاء في وقته

عقد ذراعيه وهو يضحك: "تبدين متوهّجة!"

رفعت حاجباً باستهزاء، ثمّ قالت بتذمّر: "متوهجة بعرق الحمل والجوّ الحار، والآن أحضر لي جهاز التّحكم من فضلك فهو بعيد عنّي"

ناولها الجهاز قبل أن يفتح ثلّاجتها ولا يرى فيها سوى العصائر الطبيعية، فهزّ كتفه والتقط مشروباً ثمّ ألقى بجسده جانبها بينما هي تقلّب قنوات التلفاز

"لماذا لا تذهبين إلى الشاطئ؟"

اتسعت عيناها وتذمرت مجدّدًا: "الجوّ حار جدّاً! كيف لكم أن تخرجوا في هذا الطقس؟"

ردّ بسخرية: "ليس حارّاً لتلك الدرجة يا أجنبية. اخرجي واكتسبي بعض السّمرة"

"سأبدو ككرة ترتدي ثوب السباحة، وقد يلاحقني غريب الأطوار الذي تسمّونه ترياكي. لديه انجذاب لبطون الحوامل ويحبّ لمسها"

قهقه أندرياس ثمّ قال: "أعتذر لذلك، لديه عادة غريبة"

تأففت وتذمرت مجدداً: "لماذا أشعر بالحرّ؟ هل نظام التبريد معطّل يا ترى؟ اتصل بالمهندس أو أصلحه، افعل شيئًا!"

لوّح بيده محاولاً تهدئتها: "آي آي

سنيوريتا، اهدئي... يعمل نظام التبريد بشكلٍ جيد ولكن أنتِ من تشعرين بالحرّ الشديد"

أسندت رأسها للخلف بعد تنهيدة وبقيت تتأمّل السّقف، ثمّ قالت: "أنا متعبة حقاً... الحمل أكثر إرهاقًا مما كنت أتوقّع. لا أستطيع المشي أو الانحناء، أحتاج الحمام كلّ خمس دقائق، وينتابني الغثيان كلّ صباح، وهناك رغبة شديدة بحكّ بطني التي أشعر أنّها ستتمزّق في أيّ لحظة"

"ألهذا تبكين الآن؟"

غطت فمها بدرامية: "تتساقط الدموع دون علمي حتى لو لم أكن حزينة"

"آي... لم أعلم أنّ لديكِ هذا المزاج الحادّ"

رمقته بغضب: "اخرس!" مسحت

دموعها، ثمّ سألت: "ما الذي أحضرك على أيّ حال؟"

"لأطمئن على صحتك، وأقرّر ما إن كنت سأسافر لإيزابيل أم لا"

"ألم تسافر لها الشهر الماضي؟"

ارتشف من عصيره، ثمّ قال بسخرية: "بلى، ولكني مشتاقٌ لشجار آخر معها"

زفرت بلا مبالاة وروت نفسها بالعصير المثلّج قبل أن تقول: "وما شأني بالأمر؟ يمكنك الذّهاب"

"قد تلدين في أيّ لحظة يا سنيوريتا، وأودّ أن أكون موجوداً"

"ستغضب تلك اللئيمة لو سمعتك يا سنيور"

ردّ بسخرية: "ومن قال لكِ إنّي لم أخبرها مسبقاً؟ لم تعد تجيب على

اتصالاتي"

نظرت إليه ببرود: "وكأنّي أحتاج إلى سببٍ آخر كي تكرهني إيزابيل"

"على كلٍّ، متى ستلدين؟"

تذمّرت مجيبةً: "وما علمي؟ كان من المفترض أن ألد الجمعة الماضية ولكنّ ميا الصغيرة مرتاحة جدّاً، وانظر ها هي تتحرك..."

لمس أندرياس بطنها دون إذن هذه المرّة، ولم تكترث روبي للأمْرِ حتّى بدأ يمسح عليها بلطف، فشعرت بالحرج قليلاً

"هل تركلك؟"

أمسكت يده ووضعتها في موقع آخر: "هذا رأسها... وهنا قدماها. هل تشعر بهما؟"

"أوه! كان ذلك رأسها؟" ضحك: "إنّها تتحرّك كثيراً"

"أظنّها تتمدّد" نظرت لبطنها لتحادثها: "تمددي على فراشك يا عزيزتي واخرجي من الغرفة الضيّقة بسرعة!"

اقترب أندرياس قليلاً وأضاف: "نعم، وسيحضر لكِ عمّك أندرياس الكثير من الهدايا، لذا من الأفضل أن تأتي بسرعة ولا تتعبي والدتك. كلّ شيءٍ جاهز لك، ووورديّ رغم أنف أمّك، والجميع متحمّسون لمقابلتكِ"

رفع عينيه الحالمتين إلى روبي التي ابتسمت له حتى مرت بينهما لحظة غريبة فجأة، ثمّ ساد الصمت بعد أن أشاحا بنظريهما بعيدًا، يحاولان الهرب من شيء غامض لم يكن من المفترض أن يلاحظاه في عيون بعضهما. شعرت روبي بحرارة تزحف إلى وجنتيها،

فارتشفت من عصيرها المثلج على عجل كما فعل أندرياس، وكأنهما بحاجة إلى أي فعل يكسر ذلك الصمت المربك...

تنحنح بخفّة كي يجد صوته، وسأل محاولاً أن يبدو عفويًّا: "سمعت من لورينا عن حقيبة الولادة، هل هي جاهزة؟"

أجابت بسرعة وكأنها ترغب بإعادة الأمور إلى طبيعتها: "أجل كلّ شيءٍ جاهز، وبقيت ميا"

أومأ بفهم، ثمّ أنهى عصيره دفعة واحدة ونهض قائلاً: "حسناً. سأراكِ لاحقاً. اتّصلي بي لو احتجتِ إلى شيء "

ابتسمت ابتسامة مشدودة: "بالطبع"

***

اتّجه أندرياس بعد أن هدأ وتجاوز تلك المحادثة الغريبة بينه وبين روبي إلى شقة لورينا التي شهقت بخوف عندما ظهر خلفها فجأةً، وأخذت توبّخه قائلةً: "أعلم أنّ هذا مكانك، ولكن رجاءً اطرق الباب أو أعلمني بقدومك!"

ضيّق عينيه بشكوك: "ما الذي تفعلينه على هاتفك؟"

أجابت ببرود: "لا شأن لك أيّها المتطفل" أشارت نحو غرفة ابنهما: "أندريه في غرفته يلعب بالجهاز اللوحي"

"لست هنا لرؤيته وحسب بل قدمتُ لرؤيتكِ أيضاً"

"ما الأمر؟"

جذبها إليه في عناق لطيف، لتعقد حاجبيها وتكرّر سؤالها حتى أجاب:

"لقد مررت بروبي للتّو، وتذكّرت أنّكِ كنت مكانها يوماً ما... لا بدّ أنّك تحمّلتِ الكثير ولم أكن موجوداً لأقدّم الدّعم. شكراً للمرة المليون على منحي ابناً رائعاً وكامل الأطراف والأهمّ من ذلك يشبهني!"

ضحكت قبل أن تحلّ العناق وتبتسم له: "وشكراً لك على منحي أفضل هدّية في حياتي"

ابتسم بتفاخر وغرور: "بمناسبة الهدايا، لقد اتّصلت بوكيل العلامة التجارية التي تفضلينها في الحقائب. سيأتي اليوم ومعه أحدث مجموعة، ويمكنك أن تختاري ما يحلو لكِ على حسابي"

رفعت حاجبيها بتعجّب، ثمّ قالت: "احذر! فقد أوافق على الزواج بك في أيّ لحظة لهذا الدّلال"

ردّ بنبرة ساخرة: "ليست أوّل مرة أدلّلك فيها يا لورينا"

هزّ رأسه عندما ضحكت، ثمّ تركها واتّجه لغرفة ابنه كي يجهّز حقيبته استعداداً للذهاب إلى الشاطئ، أمّا لورينا فقد فضّلت البقاء هذه المرّة وانتظرت حتى رحلا لتعيد النّظر إلى هاتفها حيث المحادثة المفتوحة مع دييغو...

استجمعت شجاعتها، ثمّ أرسلت أخيرًا: "مرحباً..."

لم تتوقع أن يأتيها الرّد بسرعة، حيث كتب دييغو: "من؟"

ارتبكت للحظة، ثمّ كتبت: "أنا لورينا"

"لورينا بيرو؟ حقّاً؟"

"أجل. كيف حالك؟"

تأخّر دييغو في الرّد ممّا جعلها تقلق، ثمّ كتب: "كيف حصلتِ على رقمي؟"

"لقد قابلت روبي سميث، وحصلت عليه"

"هل يمكنني الاتصال بك؟"

فكّرت قليلاً، ثمّ أعلمته بموافقتها، فسرعان ما رنّ هاتفها ولكنّها لم تجب من أوّل رنّة بدافع الكبرياء

"نعم؟"

زفر بخفة وكأنّه ارتاح لسماع صوتها: "إنّها أنتِ حقّاً... لماذا تواصلتِ معي؟"

أجابت بنبرة عفوية: "طلبتُ الرّقم وخلتُ أن أتحدّث معك وأطمئنّ عليك... كم سنة مضت يا ترى؟ تسع؟ عشر؟"

أجاب بنبرة هادئة تخللها الحنين

والتوق للماضي: "خمس عشرة"

"صحيح..." تنهدت طاردةً ذكريات الماضي، ثمّ قالت: "أطلعني على آخر أخبارك. كيف هي ميامي؟ وماذا تفعل؟"

"لورينا... لا أظنّ أنّنا يجب أن نتحدّث إلى بعضنا "

أغمضت عينيها باستياء، ثمّ سألت بصوت متّزن: "ولمَ لا؟"

"لا يوجد ما أتحدّث به معكِ. مضت سنوات، ولم نعد الشخصين نفسيهما"

"لماذا لديك وشم ماريو وخوخة على كتفك إذًا؟"

طال صمت دييفو، ثمّ قال: "لقد كان خطأً قديماً، ولم أكن بوعيي..."

أومأت لورينا، ثمّ قالت ببرود: "فهمت.

ما كان يجب أن أتّصل بك. لقد أخطأت أيضاً. وداعاً"

أنهت لورينا الاتصال على الفور وألقت بهاتفها جانباً بعد شتمه، ثمّ نهضت وجهّزت حقيبة سباحتها لتلحق بابنها وأندرياس وهي تتمتم: "وغد ولن أرهق نفسي بالتفكير به.. حبّ أوّل سخيف"

***

تنقّلت روبي ببطء بين رفوف مركز التموينات الواسع. تعاين المنتجات بدقّة وتختار ما هو آمن لها برفقة خوليو الذي يدفع العربة الممتلئة، ويترجم بعض العبارات التي لا تزال غريبة عليها رغم مرور أشهرٍ في المكسيك...

"هل تواجهين صعوبة في تعلّم اللغة؟"

"قليلاً.. ولكنّي سأتعلّمها بلا شك. بدأت بالأساسيات و—"

توقفت فجأة ولمست جانب بطنها بوجه منكمش، ليقلق خوليو على الفور ويسأل: "ما الأمر؟"

أجابت بابتسامة باهتة: انقباض بسيط... لنتابع"

"هل أنتِ واثقة؟"

عدّلت وقفتها قائلةً: "أجل، لا تقلق"

خطت بضع خطوات أخرى ثقيلة، ثمّ تأوّهت وهي تحني رأسها نحو الأسفل وتمسك ببطنها من الجانبين في محاولة لتخفيف الألم الحادّ والمفاجئ، ليهتف خوليو وينادي الحرّاس: "أظنّ أنّنا يجب أن نقلق الآن، هيا بنا للمشفى بسرعة!"

أومأت بعقلٍ مشتّت للقلق الذي اعتراها والخوف الذي تملّكها فجأة، فسحبها للخارج وللسيّارة وهو يهاتف أندرياس في الوقت ذاته، ثمّ انطلق إلى المشفى وباغته الزّحام المروري فاضطر للالتفاف وسلكِ طرقٍ أخرى ليتجنّب الوقوف، بينما روبي في صراع نفسي وجسديّ لا تستطيع مواجهته وحدها

أطلقت صرخة متألّمة رغماً عنها، فزاد خوليو من سرعته متجاوزاً الإشارات بشكلٍ متهوّر حتّى وصل للمشفى و أوقف السيّارة بخشونة، ثمّ ساعدها على النزول وهو يهتف بالمسعفين الذين أحضروا لها كرسيّاً متحرّكاً، وقادوها إلى قسم الطّوارئ كي تفحصها الطبيبة المناوبة التي طلبت منها أن تهدأ، لكنّ روبي لم تستطع، بل شعرت بالذعر أكثر. كانت تظنّ أنّها

ستكون مستعدة عندما يحين وقت ولادتها ولكن الواقع مختلف؛ لم يكن كما تخيّلت أبدًا بل كان صادمًا، مؤلمًا، ولا يخلو من الرهبة...

***

استلقت على فراش المشفى في غرفة التوليد الخاصّة، تراقب الانقباضات على الشّاشة وتستمع لنبضات قلب ميا التي تجعل دموعها تنهمر على وجنتيها؛ إذ كان الصوت مثل النغمة المتكررة، تثير مشاعرها المضطربة، فتارةً تشعر بالخوف، وتارةً أخرى باللهفة لرؤية ابنتها أخيراً...

ثمّ دخل أندرياس القلق بخطوات سريعة ومعه لوربنا التي تفقّدتها فوراً، وسألت: "كيف حالك؟"

أجابت وشفتاها ترتعشان: "خائفة... لا

أستطيع الشعور بساقيّ ولا أيّ شيء أسفل ظهري، ولقد قالت الطبيبة إنّي أحتاج لبضع ساعات حتّى الولادة"

"لا تقلقي فهذا تأثير التّخدير، وستكونين بخير" أردفت بنبرة ساخرة: "لقد عادت لي الذكريات للتو. مكثت في المشفى لعشر ساعات حتى ولدت أندريه أخيراً"

انكمش وجه روبي بخوف أكثر، فأمسك أندرياس بيدها قائلاً: "لا تخافي يا سنيوريتا، فنحن هنا معك"

ابتسمت بضعف: "شكراً لكما"

"هل تحتاجين إلى أيّ شيء؟"

هزّت رأسها وهي مشوشة: "الحقيبة التي جهّزتها. ستجدها في غرفة ميا، وأحتاج إلى غيار و... آه لقد نسيت"

تقدّمت لورينا وطمأنتها: "سأحضر

الحقيبة وكلّ شيء قد تحتاجينه فلا تقلقي"

أومأ أندرياس، ثمّ قال بقلق: "لا تخدشي سيارتي الجديدة من فضلك!"

ضحكت لورينا دون إعطائه أيّ وعود، ليتنهد تنهيدة طويلة ويأمل أنّ الضرر لن يكون كبيراً...

***

أظلمت السّماء، وانقضى الوقت وروبي فوق الفراش، عاجزة عن النّوم، متخبّطة المشاعر، مزدحمة بالأفكار التي تمنعها من أخذ نفس عميق. أمّا أندرياس فقد باغته النّوم من شدّة التّعب، ولكن لدقائق معدودة ومتفرّقة، وكأنّ جسده ينهار للحظة ثم يعاند نفسه ليبقى مستيقظًا. يحاول بذل ما بوسعه كي تشعر روبي أنّها ليست

بمفردها...

همست بصوتٍ واهن ومرهق: "أندرياس...؟"

نهض على الفور واقترب من فراشها قائلاً: "هل تحتاجين إلى شيء؟ هل أنادي الطبيبة؟"

أغمضت عينيها الدّامعتين وهزّت رأسها مرّة واحدة، ثمّ نظرت إليه وقالت: "لو حدث لي شيء—"

قاطعها معترضاً: "لا تفعلي هذا الآن رجاءً. لا تتشاءمي!"

"أرجوك دعني أكمل.." أردفت بعد ما تنهّد: "لا أحد يعلم ما قد يحدث في المستقبل، لذا إن حدث شيءٌ لي فأرجو منك أن تعتني بابنتي. احرص على جعلها سعيدة وآمنة، احرص على تلقيها كلّ الحبّ والرعاية، وعلى تلقّيها

أفضل تعليم أيضاً، وساعدها على تحقيق كلّ أحلامها. احرص على تربيتها جيداً و..." نشجت، ثمّ تابعت بصوت متحشرج: "إن سألتك عن والدها فاذكر لها محاسنه. لا تجعلها تكرهه، ولا تخبرها بالحقيقة إلّا في الوقت المناسب.. أخبرها أنّي آسفة لأنّي لم أختر أبًا صالحًا لها"

مسح على رأسها بلطف: "أنتِ تهذين بسبب المخدّر وطول الانتظار. لا تفكّري بهذه الأفكار بل كوني قوية ومتفائلة. ستكونين بخير... كلتكما ستكونان بخير"

ابتسمت بحزن قبل أن تأخذ شهيقاً وتطلق زفيراً متتالياً، ثمّ استأذن أندرياس لدورة المياه وظلّت هي برفقة أفكارها الكثيرة حتى التقطت هاتفها وأدرجت رقم مارسيل الذي ما

تزال تحفظه. حدّقت بالشّاشة بتردّد حتى ذكّرها ضميرها بالكذبات، الاستغلال وعدم الاكتراث، فوضعته بعيدًا ونظرت إلى أندرياس الذي عاد وساعدها على الجلوس لتشرب العصير الذي أحضره

ارتشف من كوب قهوته الرابع لهذا اليوم، ثمّ سأل: "فلنضع الخوف جانباً، ألستِ متحمسة لرؤيتها؟"

"بلى... متحمسة لرؤيتها كثيرًا"

"هل تظنّين أنّها ستحظى بعينيكِ؟"

ضحكت ضحكة خفيفة: "لا أعلم، ولا آمل ذلك، فلونهما لا يتماشى مع الكثير من الألوان"

قال بابتسامة متحمسة: "أظنّ أنّها ستشبهك كثيراً"

حدّقت بالعصير في يدها بإحباط قليل،

ثمّ قالت: "يقولون إنّ أوّل ابنة تشبه والدها"

علّق بسخرية: "قالوا شيئاً مشابهاً عندما أنجبت لورينا أندريه وانظري إلى النتيجة! في كلّ الأحوال... من الجيد أنّكِ اخترت شريكاً حسن المظهر"

ضحكت برقّة على سخريته، وظلّت تتبادل أطراف الحديث معه دون أن تشعر بالوقت يمضي حتّى أتت الطبيبة وتفقّدتها

"حسناً، لقد حان الوقت. هل أنتِ مستعدة لتحظي بطفلتك؟"

سحبت نفساً عميقاً وأومأت قائلةً: "أجل" ثمّ نظرت إلى أندرياس: "هل يمكنك البقاء بجانب رأسي؟"

"سأفعل، وسوف أمسك يدك أيضاً"

ابتسمت بامتنان قبل أن تشدّ على يده لتستمدّ القوّة وتنظر إلى الطبيبة التي أدلت بتعليماتها. شعرت بالرّهبة مع كلّ دفعة، وبضغطٍ يجعل نبضات قلبها تتسارع كما لو كانت تركض في سباق لا نهائي، ثمّ ازداد أكثر، وسالت الدموع على وجنتيها مثل نهرٍ جارٍ امتزج بأنفاسها المتقطعة حتّى تغيّر كلّ شيءٍ فجأة، ولم تعد تسمع سوى صوت بكاءِ ميا التي أتت للحياة، تحدّق بها بارتباك ودهشة بين أيدي الممرضات، لا تصدّق أنّها تراها أمامها أخيراً وبعد طول انتظار..

"هل ترغبين بقطع الحبل السّرّي عنها؟"

هزّت رأسها، ثمّ نظرت لأندرياس بابتسامة متعبة باحت بكلّ شيء وجعلته يبتسم بحنان، ثمّ قال بصوتٍ مختنق بالمشاعر: "يشرّفني ذلك يا

روبي"

قبّل يدها برقّة قبل أن يقترب ويحمل المقصّ بيد مرتعشة، ليحرّر ميا ويرحّب بها في هذا العالم الجديد...

لن ينسى هذه التجربة أبداً ولا المشاعر التي انتابته، ولن تنسى روبي اللحظة الأولى التي حملت فيها ابنتها، رغم الفوضى، الإرهاق والألم!

ابتسم أندرياس بسعادة، ثمّ خرج وهتف بصوتٍ عالٍ: "لدينا أميرة بكامل صحتها!"

تفاجأت روبي عند سماعها لهتافات الرّجال في الخارج؛ لم تكن تعلم بوجودهم أبدًا ولكنّها سعدت بذلك، ثمّ نظرت إلى وجه رضيعتها للحظات أخرى قبل أن تقبّلها وهي تذرف دموع الفرح

"سعيدة بلقائكِ... يا حلوتي مِيا"

15: الأميرة والملك

"مذكرتي العزيزة، التي أكتبها في هاتفي حتى أنقلها لاحقاً... لقد أصبحت أمًّا لأجمل رضيعة في العالم، وهذا اليوم الأوّل لي كأمّ. ما أزال تحت تأثير الصّدمة، مرهقة وضعيفة، لكنّ نظرة واحدة إليها تجعلني أنسى التفكير بكلّ ذلك...

نقلوني إلى جناح خاصّ في المشفى، وقد تمّ تجهيزه بعناية فائقة لاستقبال الضيوف. هناك الشوكولا والكعك، وهدايا صغيرة ظريفة، وكلّ شيءٍ بيّ اللون ويلمع بفضل أندرياس الذي لا أعلم كيف أشكره بعد..."

***

"خوليو أيها الشّره كفاك تناولاً للكعك!"

هتف أندرياس به وبالآخرين بينما يحمل ميا برفق بين ذراعيه، يتحدّث ويقدّمها إلى العائلة، ينتقدهم ويفشي أسرارهم إليها وكأنّها تفهمه. أمّا روبي فقد كانت تحتسي مشروباً دافئاً من توصية لورينا وتراقبهم بابتسامة صغيرة

"أبي أبي! هل يمكنني حمل مِيا؟"

"استأذن من والدتها أولاً يا بطل"

سأل ببراءة: "عمة روبي؟ هل يمكنني حمل ميا من فضلك؟"

أشارت للفراش مجيبةً: "بالطبع يا أندريه، تعال هنا"

جلس أندريه على الفراش، وحملت والدته مِيا لتضعها على حِجره جيداً وبأمان، ليبتسم ويقهقه بظرافة قائلاً: "إنّها صغيرة جدّاً يا أمّي"

"لقد كنتَ أصغر منها عندما أنجبتك يا عزيزي"

ضحك مجدداً، ثمّ مسح على رأسها وشهق بدهشة: "شعرها ناعم... وهي جميلة أيضاً"

ابتسمت لورينا، ثمّ حملت الرضيعة وأعادتها لحضن والدتها التي تأمّلت حركاتها البطيئة، وأصواتها التي تذيب القلب حتّى دخل أحدهم وأعلن وصول الدّون فيرناندو، فانتشر الرّجال في الجناح بسرعة وقام خوليو بتنظيف آثار الآخرين، كما أخذت لورينا ابنها وغادرا معاً ليلعبا في الخارج، ولم تستطع روبي سوى أن تشعر بالقلق على الرّغم من أنّهم يبدون طبيعيين وليسوا خائفين

وضع أندرياس الرضيعة في مهدها قائلاً: "لا تتوتري فهو هنا للاطمئنان

عليكما. كان يتابع كلّ الأخبار منذ دخولك إلى المشفى"

وجدت روبي الأمر صعب التصديق، ولكنها اكتفت بإيماءة ومسحت على رأسها بعد وضع طوق الشعر الوردي، تمّ انتظرت حتّى دخل الدّون فيرناندو وبجانبه امرأة أنيقة وحسنة المظهر، بشعرٍ ذهبي يصل إلى كتفيها، وعينين عسليتين. لم تكن طاعنة في السّن ولا يانعة أيضاً، بل شيئًا بينهما. خمّنت روبي أنّها قد تكون في نهاية الأربعينيات من عمرها، ولكنّها بدت مهتمّة بشكلها وصحتها كثيراً لذا لم تعرف الأكيد...

نقلت نظراتها إلى الدون الذي يقف شامخاً، يفيض بالهيبة، ثمّ قال بنبرة رسمية دون أن يبتسم: "مبارك، وحمداً لله على سلامتكما"

أومأت فقط، ثمّ اقتربت المرأة الأنيقة وهي تفرد ذراعيها خلف صبيّ وفتاة وقالت: "لم نتعرّف على بعضنا. أنا ڤيرونيكا زوجة فيرناندو، وهذان ريكاردو وڤاليريا"

ابتسما بأدب وقالا في الوقت ذاته: "سررنا بلقائك"

تأمّلتهما روبي قليلاً حتّى وجدت بهما لمحة من مارسيل ووالده، تؤكّد أنّهم عائلة، ثمّ رسمت ابتسامة مهذّبة وقالت: "سررت بلقائكم، أنا روبي سميث"

قام الرجال بإدخال صناديق الهدايا للغرفة، وحينها قالت ڤيرونيكا: "هذه الهدايا منّا وآمل أن تنال إعجابك"

ردّت بإحراج: "لمَ العناء؟"

"أنتِ من العائلة وهذا أقلّ

ما تستحقينه"

أومأت بتحفّظ: "شكراً لكم... جميعاً"

اقتربت ڤيرونيكا من الرضيعة واستأذنت روبي قبل حملها وهي تتمتم بكلماتٍ عديدة، تعبّر فيها عن مدى ظرافتها، ثمّ اتجهت إلى زوجها، ووضعتها بين ذراعيه في وضعية مناسبة، أمام عيني روبي التي تراقبه بصمت حتّى سرحت بيده الاصطناعية...

"انظر يا عزيزي، أليست ظريفة؟"

تأمّلها الدّون لبرهة طويلة، ثمّ ابتسم بسامة صغيرة عندما رأى شكل شفاهها ولون عينيها اللذين كانا مثل ابنه بيدرو، والذي ورث ذلك من أمّه... زوجته الراحلة ڤالِنتينا

"بلى" مسح الابتسامة عندما نظر إلى

روبي وسأل: "اسمها مِيا؟"

أجابت بنبرة هادئة: "أجل"

"مِيا كورتيز... وقعه جيد"

تشجعت روبي ونطقت: "سميث" توجّهت إليها الأنظار، فأكّدت كلامها مجدداً: "مِيا كورتيز سميث... سأمنحها لقبي أيضاً"

حبس أندرياس أنفاسه بتوتّر بعد أن عمّ الصمت المريب، ثمّ تحرّك وحمل الرضيعة عندما أشار له الدّون بذلك، أمّا ڤيرونيكا فقد تبادلت الكلمات مع صغيريها بعفوية، وغادروا الغرفة بعد وداع روبي ومِيا

نهض الدّون فيرناندو وعدّل بدلته مثبّتاً نظراته على روبي التي تمالكت نفسها وبادلته النظرات نفسها حتى قال: "سيكون اسمها مِيا كورتيز...

فقط"

شدّت على قبضتها تحت الملاءة ثمّ قالت بصوتٍ اهتزّ قليلاً: "إنّها ابنتي!"

ردّ بنبرته الصارمة: "وأنا أحترم ذلك، لكنك لن تضيفي اسماً أجنبيّاً بجانب اسم عائلتي، فلقب كورتيز أصلي وعريق، ولن أسمح لكِ بتشويه ذلك بإضافة لقبٍ ليس لقبك الحقيقي حتى!"

"ليس لديك الحق في منعي"

"حاولي أن تذهبي إلى أيّ دائرة حكومية إذاً ولنرَ ما إن كانوا سيحققون لطلبك" أكمل بتهديد: "لن تضيفي لقباً آخر، وهذا أمر"

لم تجبه روبي وأبقت بصرها منخفضاً حتى غادر، ثمّ استعادت ابنتها من أندرياس الذي همّ بقول شيء

ليواسيها ويخفّف عنها، لكنّها رفضت بشدّة ولم تقبل سماع أيّ تبرير لما فعله الدّون، فتركها بمفردها حتّى تهدأ قليلاً

احتضنت ابنتها بعد مغادرة الجميع وهمست باستياء: "يبدو أنّ جدّك ينوي جعلي أعاني طوال فترة بقائي هنا. لا يمكنني مخالفة أوامره، ولا يمكنني أن آخذك وأهرب إلى المجهول والخطر" قبّلتها قبلة طويلة ثمّ قالت: "سأتحمّل كلّ شيء من أجلكِ يا ميا... كلّ شيء"

***

مرت الأيام، وتبعتها الشهور التي ضتها روبي في رعاية ابنتها وتربيتها بعناية، مستعينةً بنصائح الأمهات حولها، والكتب وكذلك المختصين. كانت ميا تكبر بصحة جيدة، تزداد ظرافة وجمالاً، وتحظى باهتمام الجميع، خاصة جدها الذي يرسل لها

هدية كل شهر، وأندرياس الذي لا يكفّ عن التهرّب من أعماله ليحظى بوقتٍ معها، أو ليقدّم العون لروبي عندما تتعب...

كان كلّ يومٍ بمثابة تجربة مختلفة تدفع روبي لوضع يدها على قلبها، تدعو وتتمنى أن تنمو ميا بأمان، وأن تظلّ حياتها مليئة بالسّلام الذي لن تعكّره حقيقة جدّها، أو والدها الذي تراه في كلّ مرّة تنظر فيها إليها؛ فلقد ورثت ميا الصغيرة لون عينيه، شعره، شكل جبهته وحاجبيه، شفتيه وأنفه، بينما لم ترث من والدتها سوى لون بشرتها البيضاء، شكل عينيها، وانحناءة ذقنها

ابنته وأمّها في المكسيك بمفردهما، وهو ما يزال يصطاد حول العالم، يلطّخ يديه بالدّماء أكثر فأكثر، ولا يزال

السلاح الفتّاك... كما أراده جاريد!

ولكن... هل للأبد يا ترى؟

16: من مذكرات روبي

"لقد كان عاماً حافلاً، ومليئًا بالتجارب الجديدة مع مِيا التي تثبت لي كلّ يومٍ أنّها أفضل هدية حظيت بها في حياتي! اليوم ذكرى ميلادها الأول، بات لدينا أسنان صغيرة تركت آثاراً على أصبعي، وباتت غمّازتها واضحة مثل أبيها... الذي لم يظهر بعد

على كلّ حال، أدركت أنّ التربية مرهقة جدّاً، بل أكثر إرهاقاً من الحمل والولادة، ولكنّي اكتشفتُ أنّي أحبّ الأطفال، ومن حسن الحظّ أنّي وجدت خليفة وافق عليها الدّون فيرناندو اخيراً، بعد أن حاربته بقوة من أجلها... كنت أتمشى ذات يومٍ في المنطقة مع مِيا وأندرياس، واستوقفني مبنًى صغير ومتواضع بألوان لطيفة وزاهية، اكتشفت أنّها حضانة، لذا تقدّمت بطلبٍ

للعمل هناك كحاضنة، للعناية بالأطفال الصغار والرّضع، وتمّ قبولي! لم يكن الأمر سهلاً في البداية ولكنّي أتعلّم شيئاً كلّ يوم، وآخذ مِيا معي أيضاً"

***

"مذكرتي العزيزة، لقد تعرضت لأغرب موقف. تمّ دعوتنا إلى حفلة ميلاد التوءمين ريكاردو وڤاليريا. تركت مِيا مع لورينا للذهاب إلى دورة المياه. وكان بالي مشغولًا ببعض الحسابات على الهاتف، لذا قصدت حمّام الرّجال عن طريق الخطأ. لم تكن هناك علامة، يا مجرد لوحة وضعوها ليرتاح يضيوف في منزل الدّون الذي بالمناسبة لم يكن بيتاً عاديّاً بل قصراً!

على كلٍّ، عبرتُ باب الحمّام واصطدمت بـ لورينزو، اليد اليمنى وخارق الجمال، حتى لورينا توافقني

الرأي، ومعظم النّساء اللاتي التقيت بهنّ في تلك الأمسية كذلك

اعتذرتُ على الفور، ولم يقل شيئاً سوى أنّه أشار للّوحة التي تعلمني أنّه حمّام الرّجال، فاعتذرتُ مجدداً لكنّه لم يعلّق وذهب فقط..."

***

"مذكرتي العزيزة، ذهبت مع لورينا وميا إلى صالون تجميل. قصصت شعري وصبغته إلى لون من درجات البني الفاتح والذهبي، وبات مظهري العامّ يتماشى مع لون عينيّ كثيراً... شيءٌ آخر! لقد تحسّنت لغتي الإسبانية كثيراً، سأكون روبي المكسيكية عمّا قريب، وسأعلّم ميا الإنجليزية"

***

"مذكرتي العزيزة، لقد بكيت اليوم، فقد شعرت بالضغط الفترة السّابقة بسبب الدّون ومشاحنتي الأخيرة معه حول ميا... سحقًا كم أكرهه!"

"مذكرتي العزيزة، أحبّ ابنتي كثيراً، وأشعر بالأسى لأنّها تكبر بسرعة. باتت واعية بالبيئة حولها وتتساءل عن والدها. لقد كانت تظنّه أندرياس في البداية، ولكنّها ليست مقتنعة، ولا أعلم ماذا ينبغي عليّ فعله عندما تنمو أكثر وتسألني بشكلٍ صريح..

لم أسمع أخباراً، وعلمتُ أنّهم ما زالوا يبحثون عنه فقط، لكن دون جدوى. أتساءل ما إن كان يعلم أنّي انجبت فتاة، ما إن كان رأى صورتها على الأقل أو سأل عنها، أو عنّي..."

***

"مذكرتي العزيزة، لقد وقعت ميا عن الدرج، وكاد يغشى عليّ عندما رأيت الدّم في ركبتها. أخذناها للطّوارئ وحصلت على غرزتين شعرت بهما في قلبي! لمتُ نفسي طوال اليوم لأني لم أكن حذرة وسهوت عنها للحظة"

***

"مذكرتي العزيزة، اكتشفت أنّ ميا تهوى الشاطئ والسباحة، لذا تشجعت وطلبت من أندرياس أن يحضر لي مدرّب سباحة متخصصًا لأولئك الذين كانت لهم تجارب سابقة مع الغرق ويرغبون بالتغلب على الخوف...

كانت الحصّة الأولى صعبة للغاية، وأعادت لي ذكرياتٍ كثيرة أرهقت قلبي وجعلتني مستاءة وبنفسية سيئة، لكنّي اجتهدت في الحصة التالية والتي تليها وأنا أذكّر نفسي بابنتي، وكيف

ستكون سعيدة عندما أسبح أنا معها لا أندرياس أو البقية

سأفعل أيّ شيءٍ من أجلها... وأنا على هذا العهد ما حييت"

17: خمسة

يجلس تشرشل في مكتبه الجديد الذي يطل على المدينة من ارتفاع شاهق، خلفه زجاج عريض يعكس أضواء ناطحات السّحاب الحمراء، ويقف بجواره حارسه الوفيّ تشيب، ينتظران قدوم هوك مع أخبارٍ جديدة تتعلّق بالعمل كالمعتاد...

"أحبّ العملاء آخر دفعة كثيرًا لجودتها الممتازة. يرغبون بالمزيد، وبعضهم يطلب الرّضّع، وهم مستعدون للدّفع بسخاء"

ارتسمت ابتسامة فخور على وجه تشرشل، ثمّ قال: "أحضر لهم ما يريدون إذاً وضاعف السّعر، فهؤلاء لن يدركوا قيمة بضاعتنا حتى يدفعوا أضعافها"

فرك هوك عنقه قائلاً: "حاضر... ولكن هناك مشكلة يجب أن نحلّها" أردف بامتعاض: "بات من الصّعب التحرّك في الآونة الأخيرة بسبب اللعين بيتروڤا، وواجهتنا بعض المتاعب، لذا هل يمكننا الاستعانة بعملائك مجدداً؟"

"سأتحدّث إلى بعضهم"

***

فتحت روبي باب الغرفة الوردية بهدوء، وتقدّمت بخطًا خفيفة نحو الفراش، حيث تنام ميا بعمق، ثمّ جلست بجانبها وهزت كتفها برفق لـ تستيقظ، لكنّ ميا أبت مصدرةً أصواتًا محتجة تحوّلت لضحكات بريئة عندما دغدغت والدتها قدميها وجانبيها حتّى أعلنت الاستسلام

قفزت من الفراش بحماس وركضت

نحو دورة المياه، بينما اتجهت روبي إلى المطبخ لتحضير فطورها المفضّل... فطائر الكعك المحلّاة، مع الكثير من صلصة الشوكولا، احتفالاً بيومها الكبير. جلست إلى الطاولة بعد أن ارتدت زيّها المدرسيّ، تؤرجح ساقيها القصيرتين، وتلتهم الفطور بشهية ونهم، ثمّ سألت بفمٍ ممتلئ: "أين ستكون الحفلة هذا العام؟ وكيف يبدو فستاني؟"

أجابتها روبي بابتسامة متحمسة: "سرا ستتفاجئين بكلّ شيء لاحقاً"

ابتلعت لقمتها الأخيرة، ثمّ هتفت بمرح: "انهيت إفطاري، لذا هيّا بنا يا ماما"

أمسكت ميا بيد والدتها عند الخروج، وشكرت كلّ من قام بتهنئتها بمناسبة يوم ميلادها، ثمّ شهقت بسعادة عندما رأت أندرياس وركضت لأحضانه، فطبع

قبلة على مقدمة رأسها، ثمّ سأل: "كيف حالِ فتاة الميلاد اليوم؟"

رفعت ذقنها مجيبةً: "بخير، هل ستحضر إلى حفلتي الرائعة؟"

ردّ بسخرية: "هل هذا سؤال معقول؟ بالطبع سأحضر" غمز لها: "وأحضرتُ هدية مميزة أيضاً"

هتفت بسعادة: "رائع!" ثمّ نظرت خلفه بفضول: "أين أندريه؟"

تلفّت حوله باستغراب: "لقد كان خلفي للتو... أين ذهب هذا الولد؟"

"هيا يا ميا، وإلا فستتأخرين عن الرّوضة"

لوّحت روبي لأندرياس قبل أن تمسك يد ابنتها وتذهبا إلى السيارة برفقة خوليو، ثمّ للحضانة التي تعمل فيها، والتي تطوّرت عن السابق كثيراً، خاصةً

بعد تجديدات المالك الجديد والمجهول؛ إذ استحدث قسماً خاصّاً لرياض الأطفال، فتمكنت من إدراج ميا هناك واطمأنّت لكونها قريبة منها

"هل قمتِ بدعوةِ أصدقائي وصديقاتي؟"

"أرسلت دعواتهم منذ الأسبوع الماضي، وتحدثت مع ذويهم أيضاً"

زمّت شفتيها ببراءة، ثمّ سألت بقلق: "هل تظنين أنّهم سيأتون؟"

انحنت روبي ولمست ذقن ابنتها: "سيأتي أصدقاؤك الحقيقيون والذين يهتمّون لأمرك حتماً، وحتى أولئك الذين يغارون منك"

ضيّقت عينيها بتحدٍّ: "سيسيل وجماعتها... أريدها أن تنبهر بحفلتي!"

حاكت نبرتها قائلةً: "سنريها!" ثمّ

أشارت لخدّها: "والآن أعطيني قبلة قبل ذهابك"

قبّلت ميا والدتها ورحلت لمجموعتها، ثمّ استقبلت روبي الأطفال الرّضّع عند مدخل المبنى وتجاذبت أطراف الحديث مع أولياء الأمور الذين عبّروا عن امتنانهم لمعاملتها الحسنة مع أطفالهم، وآخرون شكروها على نصائح قدمتها لهم

كان حبّها لعملها ينعكس على أسلوب تعاملها مع الأطفال الذين حظيت بقلوبهم النقية. تلاعبهم، تلوّن معهم، تغيّر الحفاظات للرّضع منهم، تقصّ قصصاً جميلة عليهم، أو تدعهم يشاهدون فيلماً مفيدًا حتّى يسقطوا نائمين بسلام... روتينٌ لا تملّ منه البتّة، بل تستمتع بكلّ تفاصيله

"آمل أن تطول هذه القيلولة اليوم،

فأنا متعبة جدًّا" همست زميلتها قبل أن تبتعد عن غرفة الأطفال بحذر

"ألم تنامي البارحة؟"

"لا، سهرت أتابع الخبر الذي يتداولونه الفترة الأخيرة"

زمّت روبي حاجبيها: "أيّ خبر؟"

نظرت زميلتها حولها، ثمّ همست وكأنّها تخشى أن يسمعها أحد: "يقولون إن هناك ازدياداً ملحوظاً في عمليات خطف الأطفال حول العام، وتم اختطاف حوالي ثمانمائة ألف طفل العام الماضي في الولايات المتحدة فقط"

شهقت بخفّة ووضعت يدها على قلبها: "يا إلهي... هذا فظيع! سحقاً لهؤلاء الوحوش، ما الذي قد يريدونه من الأطفال الصغار؟"

"قرأت مرة أنهم يجبرونهم على التسول، وآخرون ذكروا أنّ المختلين يمارسون طقوساً سوداء ويتقرّبون للشيطان بدماء الأطفال"

اقشعرّ بدن روبي وقالت بتوتّر: "كفانا من هذا الحديث حتّى لا تنتابني كوابيسُ بخصوص ابنتي..."

***

جلست ميا على الأرجوحة بعد انقضاء يومها الدراسيّ، تنتظر ريثما تنتهي والدتها من العمل، وحولها حرّاس يحافظون على مسافة آمنة كي لا تلاحظهم. أخذت تراقب أولياء الأمور الذين يأتون لاصطحاب أطفالهم، والآباء خاصّةً، تأمل أن يظهر والدها بينهم ويفاجئها، لكنّها تنهدت بحزن وخيبة أمل عندما رحل الجميع ولم تحصل على مرادها...

"بماذا تسرح صغيرتي يا ترى؟" قالت روبي بنبرة مرحة، لكنّ ابنتها لم تستجب، فجثت أمامها ولمست يدها برفق: "مِيا؟ ما الأمر؟"

هزّت كتفها محاولةً إخفاء عبوسها: "لا شيء"

"بل هناك شيءٌ يشغل تفكيرك. أخبريني ما الذي يجري ولا تجعليني أقلق"

نظرت لوالدتها بملامح حزينة، ثمّ سألت بتردّد: "هل سيأتي بابا هذا العام؟"

حدّقت روبي بإشفاق، ثمّ قالت: "أنا آسفة حقّاً.. ولكنّه لن يأتي هذا العام"

تنهدت ميا بإحباط: "كنت أعلم أنّه يكرهني"

"لا يا عزيزتي، والدك لا يكرهك"

"لماذا لا يأتي لرؤيتنا إذاً يا ماما؟ لماذا رآه أندريه وأنا لا؟ هذا ليس عدلاً!"

أشاحت ميا المحبطة ببصرها بعيدًا، لتتنهد روبي تنهيدة طويلة وهي مثقلة بهمٍّ يأبى أن ينزاح أو يختفي، ثمّ حاولت أن تبهج ابنتها وتغيّر الموضوع بأيّ طريقة، فابتسمت رغم المرارة وقالت بنبرة مرحة مصطنعة: "لن أفسد موضوع الحفلة، ولكن هل ترغبين بمعرفة هديتي لك هذا العام؟ إنّها هدّية تتطلّب منّا إقناع جدّك والإلحاح عليه"

سألت دون النظر لوالدتها: "وما هي؟"

"سنذهب في رحلةٍ معاً إلى بلاكبول، حيث ترعرعت"

شهقت مِيا بدهشة: "حقّاً؟"

"نحتاج إلى إقناع جدّك أوّلاً، وإن لم يوافق فسأجهز هدية أخرى لكِ"

ردّت ميا بثقة: "سأقنعه! إنّ جدّي يحبّني كثيراً وسوف يوافق، وإن لم يفعل فسأحاول مجددًا وأستحضر الدّموع مثل آخر مرّة"

ضحكت روبي ومسحت على وجه ابنتها وهي تأمل أن تستطيع إقناعه، ثمّ احتضنتها قليلاً قبل الرّحيل والتوجّه إلى جزءٍ من الشاطئ قد تمّ تطويقه بأمرٍ من الدّون فيرناندو رياس ليكون خاصّاً للاحتفال بميلاد ميا، والتي تفاجأت بحفلةٍ تحاكي تصميم فيلمها المفضّل

كان الضيوف يرتدون ملابس تليق بالشاطئ وآخرون مثل سكّان الجزر

القديمة ليحاكوا موضوع الحفلة، كما كان هنالك الكثير من الأنشطة المائية والهوائية التي تليق بالصغار، ليمرحوا مع بعضهم أو مع ذويهم، إضافةً إلى ركن للتصوير وآخر لهدايا ميا، ركن للحلوى والمشروبات التي تنوّعت في الألوان والزّينة، الكعك والبسكويت وحتّى المثلّجات الملّونة التي تجمهر عليها الأطفال

"أحببت كلّ شيء!" قفزت ميا بسعادة ثمّ احتضنت والدتها: "شكراً يا ماما"

"العفو. هيا اذهبي والعبي مع أصدقائك، ولكن لا تذهبي للماء دون أن تخبريني أو تخبري خوليو أو–"

تابعت ميا عنها محاولةً تقليد نبرتها: "أو بنيتو أو دانتي أو دونا أو العمّ أندرياس أو العمّة لورينا أو جدّي أو عمّي وعمّتي"

ضحكت روبي وقرصت خدها بلطف:
"هيا اذهبي واستمتعي"

***

علت أصوات الموسيقى ورقصت ميا مع أصدقائها الفرحين، ثمّ نزلت إلى البحر برفقة خوليو ولعبت بمختلف الألعاب المائية دون أن تكترث للتّعب، حتّى وصل جدّها وتذكّرت الخطّة التي تقتضي إقناعه بالسّفر

قفزت إلى حضنه وقبّلته، ثمّ عانقت عمّها وعمّتها وكذلك ڤيرونيكا التي طبعت قبلة على خدّها وباركت لها، وأخيراً، اقتربت من لورينزو الذي وقف ينظر إليها بنظرات ساكنة، لا تحمل أيّ مشاعر...

"عمّ لورينزو"

- كرّر ما يقوله لها في كلّ مقابلة

جمعتهما حتّى الآن، وبنبرة باردة: "بدون عمّ، ناديني لورينزو فقط أو لا تناديني إطلاقاً"

ضيقت عينيها بشكوك: "هل أحضرت هدية لي؟"

"لا"

هتفت باستياء: "ولماذا؟ لم تجلب لي هدية طوال حياتك!"

"أنا رجلٌ مشغول"

عقدت ذراعيها بانزعاج: "وماذا تعمل؟"

أجاب بالملامح نفسها: "أشقّ صدور النّاس وأصلح قلوبهم"

اتسعت عيناها بانبهار وكأنّها فهمت ما يعنيه: "مذهل..."

ظهر طيف ابتسامة على شفتيه، ثمّ

أمرها أن تبتعد فتراجعت إلى جدّها بابتسامة متحمسة وهمّت بتنفيذ الخطة، لكن والدتها أخبرتها أنها سوف تتولى الأمر، وطلبت منها الذهاب للعب مع اصدقائها أو أندريه، فجالت في الأرجاء وهي تناديه حتّى أظهر رأسه من تحت إحدى الطاولات المغطاة وتلفت حوله خشية أن يراه أحد، ثمّ أشار إليها أن تأتي بسرعة، فضحكت قبل أن تنخفض وترفع الغطاء لتجلس تحت الطاولة معه

"كنت أبحث عنك، ما الذي تفعله هنا؟"

فرك رأسه بإحراج متجنّبًا الإجابة، ثمّ قال بخجل: "ميلادٌ سعيد... تبدين جميلة بالزّي"

ابتسمت بتواضع: "شكراً، وأنتَ تبدو جميلاً أيضاً"

ازدرد بتوتّر يليق بقلبه البريء، ثمّ مدّ إليها علبة هدية صغيرة وردية اللون، لتفتحها وترى سواراً لطيفاً وملوناً من الخرز، يحمل حروف اسمها، وتتدلى زينة صغيرة بين خرزاته على شكل نجمة بحر، حورية وأصداف صغيرة. فرحت بها كثيراً، ثمّ اقتربت وطبعت قبلة مفاجئة على خدّه ليزداد خجلاً ويحمرّ وجهه...

أمسكت يده بابتسامة عريضة: "هيا نخرج ونلعب معاً!"

سحب يده بتوتّر، لتعقد حاجبيها ببراءة وتسأل عن السبب، فأجابها متحاشياً النظر لعينيها: "لا يمكنني اللعب، فبعض أصدقائي هنا وسوف يسخرون منّي لو رأوني ألعب معكِ"

"ولكننا صديقان"

"أعلم! ولكن..." تنهد بإحباط: "أنتِ فتاة، وأصغر منّي لذا سأكون محطّ سخريتهم، ولا أريد ذلك. يمكننا اللعب بعد رحيلهم"

نظرت إليه قليلاً وهي تتذكّر محادثة مع والدتها عن الصداقة والأصدقاء، ثمّ قرصت خدّه فأجفل يلمس مكان القرصة وهو متفاجئ:

"لماذا فعلتِ ذلك؟"

ردّت بنظرات منزعجة: "أستعيد قبلتي، ويمكنك استعادة هديتك. وداعاً"

هتف بعقلٍ مشوّش: "مهلاً...!"

لكنّ ميا رحلت على الفور وتركته وحده، يتقلّب بين شعور الإحباط والذّنب، حتّى خرج وجلس بجانب والده الذي توقف عن مراسلة إيزابيل

والتفت إليه قائلاً: "ما خطبك؟"

"أبي...؟ كيف لك أن تتعامل مع النساء بسهولة وتجذبهنّ إليك؟"

ضحك أندرياس قبل أن يعدّل جلسته ويصبّ كامل اهتمامه نحوه: "أندريه أندريه أندريه... هناك أسرارٌ وطرقٌ كثيرة، وكنت أتوق لهذه المحادثة معك. أطلعني على المشكلة أوّلاً، وسوف أزوّدك بحكمتي"

تردّد ابنه وتحاشى النظر إليه في البداية، ثمّ تشجع واعترف: "أنا معجب بفتاة"

لمعت عينا أندرياس واشتعلتا بالحماس: "حقاً؟ ومن تكون؟ هل تعلم والدتك بالأمر؟"

"لا"

"و...؟"

تنهد أندريه وأخذ يفكّر بطريقة يشرح فيها لوالده دون أن يفصح عن هوية الفتاة، ثمّ قال: "لنقل إنّي معجب بهذه الفتاة، ولكنّ أصدقائي ليسوا معجبين بها ويسخرون منّي عندما أرافقها لأنّها... غريبة أطوار مثلاً"

ضيّق أندرياس عينيه بشك: "دعك من ضرب الأمثلة وأخبرني بالحقيقة كاملة"

تنحنح أندريه ورفع كفّه كرجل صغير: "أفضّل أن أحتفظ بالتفاصيل لنفسي. شكراً"

"آي آي... حسناً، لنفترض مثلما تقول. هل أنت معجب بهذه الفتاة حقّاً؟"

أجاب بخجل: "أجل"

"لماذا؟"

هزّ كتفه واسترق نظرة نحو ميا التي تلعب مع صديقاتها، ثمّ نظر لوالده مجيباً: "إنّها ظريفة وذكية جداً"

"لماذا لا يحبّها أصدقاؤك إذاً؟"

"لنقل إنّ لديهم سبباً"

أومأ أندرياس وقلّب الموضوع في عقله، ثمّ قال: "حسناً... فكّر في هذا السبب، ولو وجدته سخيفاً فأصدقاؤك مخطئون ويجب أن لا تكترث لرأيهم طالما أنّ الفتاة رائعة وتجعلك سعيداً"

أطبق شفتيه، ثمّ قال بتردّد: "هناك مشكلة أخرى أيضاً"

"هاتِ ما عندك يا بطل"

"لا تعلم أنّي معجب بها" أضاف عندما أجفل والده: "لم أملك الشجاعة لأبوح لها بالحقيقة!"

فتح أندرياس فمه وهو مصدوم: "لا أصدّق أنّك ابني!"

نهض أندريه المذنب عن الكرسي بحذر، فأمره والده بالجلوس، لكنّه تحجّج بكعكة الميلاد وهرب على الفور متجاهلاً نداءاته. انضمّا لاحقاً مع الجموع، ليغنّوا أغنية الميلاد لميا التي احتضنت والدتها قبل أن تتمنّى أمنية ويحملها خوليو لتنفخ على الشموع الصغيرة، وعلى شمعة رقم خمسة التي تشير إلى عمرها

تأففت لورينا عندما سحبها أندرياس جانباً، بينما ميا وروبي تشكران الضيوف، ثمّ لكزته قائلةً: "ما الأمر؟ لقد أفسدت التّصوير"

"ابننا معجب بفتاة. هل لديك فكرة من تكون؟"

تنهدت بتململ: "بالطّبع أعرف"

اتسعت عيناه بصدمة أخرى: "أخبرك ولم يخبرني؟"

"اكتشفت بنفسي" ضحكت بسخرية: "لا أصدّق أنّك لم تلاحظ حتّى الآن"

عقد ذراعيه ببرود: "أستتحدثين أم لا؟ فهو يرفض إخباري"

"لن أخبرك إذاً... والآن أطبق فمك وارقص معي"

***

بعد رحيل الضيوف وبقاء المقرّبين وأفراد العائلة، جلست روبي مقابل الدّون في أحد المجالس الشاطئية، وأفصحت له عن رغبتها بالذّهاب مع ميا إلى بلاكبول في المملكة المتحدة. أعربت له أنّ هذه رغبة ابنتها أيضًا، لكنّه لم يبدُ مقتنعًا بالكلام البتّة، فأمر

بابتعاد الجميع عدا لورينزو كي يحظى بمحادثة مع حفيدته على انفراد ويحقّق بالأمر أكثر...

"هل استمتعتِ بحفلتك؟"

"نعم"

أومأ بابتسامة صغيرة، ثمّ سأل بوجه جادّ: "أخبرتني والدتكِ أنّك ترغبين بالسفر إلى بلاكبول، فهل هذا صحيح؟"

أجابت ببراءة: "أجل يا جدّي"

"ولماذا؟"

"طالما حكت لي عنها وعن مدينة الألعاب، عالم البحار، ومتحف الشمع أيضاً، وأين كانت تعيش مع جدّي توبي"

ويمكنني أن أحجز مدينة ألعاب كاملة لكِ وحدك ولأصدقائكِ إن رغبتِ بذلك. لا حاجة للسفر"

ردّت بوجه محبط: "لن تكون مثل التي هناك. أريد أن أرى أين عاشت ماما و..." تردّدت للحظة: "هناك سببٌ آخر، بل طلب أريده منك! ويمكنك ألا تحضر لي هدية ميلاد طوال الحياة"

مسح على رأسها بحنان: "ما الأمر؟"

"هل يمكنك أن ترتّب للرحلة مع ماما حتى أستطيع الذهاب لساحل بن-ويث؟"

عقد حاجبيه بشكوك: "ولماذا؟"

"أريد أن أرى أين عاش بابا أيضاً. أرغب برؤية الشاطئ والمنزل الزجاجي الذي أخبرَتني عنه"

حدّق الدّون بعينيها للحظة: "هل هذا

السبب الوحيد؟"

ذبلت ملامح ميا وهمست: "أريد البحث عن بابا..."

تأمّل الدّون الحزن في عينيها الخضراوين، ثمّ قال: "حسناً، سأفكّر بالأمر وأتحدّث إلى والدتك.. والآن اذهبي"

"شكراً يا جدّي.. أحبّك"

اجتمع الدّون بروبي القلقة بعد رحيل ميا، وبجوارها أندرياس الذي كان مستعدّاً لإقناعه لو رفض طلبها، لكنّه لم يرفض كما توقّعا، بل فاجأهما بالموافقة تحت شروط استعدّت روبي لسماعها جيداً...

"ستسافران بطائرة خاصّة. لن تمكثا في أيّ فندق كان لذا وفّري مالك. ستمكثان بضعة أيام هناك فقط، ثمّ

تسافران إلى الساحل بناءً على طلب مِيا، ولكن بعد أن أضع الترتيبات المناسبة" تفاجأت روبي وكذلك أندرياس بينما تابع الدّون سرد شروطه: "لن تقودي سيارة، لن تخرجا بمفردكما حتى لو كان للبقّالة أو لبهو الفندق، وسيكون المرافق في سفركما هو لورينزو"

تقدّم أندرياس المتفاجئ وقال: "يمكنني مرافقتهما أيّها الدون. أراهن أنّ لورينزو لديه عمليّات جراحية كثيرة"

ردّ لورينزو بنظرات متهكّمة استفزّته: "لا أذكر أنّك سكرتيري يا أندرياس، كما أنّي لا أوظّف من لديه سيرتك"

رمقه أندرياس وهو منزعج، ثمّ ابتسم بتكلّف: "أحاول أن أكون مراعياً لعملك الشّاق"

"أقترح أن تراعي عملك أولاً، شكراً على المبادرة"

فتح أندرياس فمه ليقول كلمة أخرى، فسبقه الدّون وقال: "هذا يكفي... لورينزو من سيذهب معهما وهذا قرار نهائي"

***

وضعت روبي ابنتها النّائمة على فراشها، ثمّ غطّتها جيداً قبل أن تخرج من الغرفة إلى أندرياس الذي ما يزال منزعجًا ولا يكفّ عن شتم لورينزو

"آه كم أكرهه...!"

"لن أعترض على أيّ شيء، فآخر مشاحنة بيني وبين الدّون لم تنتهِ على خير، وأريد لهذه الرحلة أن تكون ممتعة لمِيا"

تنهد أندرياس، ثمّ همس: "لا أصدّق أنّها طلبت الذّهاب إلى ساحل بن-ويث"

هزّت روبي رأسها باستسلام وهي تضع بقايا الكعك في الثلاجة: "كانت مسألة وقتٍ ليس إلّا"

قال بنبرة مهتمّة: "هو ليس في الساحل لو كان هذا ما يقلقك"

"لست قلقة بسبب ذلك، بل أخشى أن تُحبط ميا عندما تذهب ولا تجده هناك، فأنا أعرف أنّها لا تريد التنزه وحسب، بل لديها أمل في أن تراه"

"سيتوجب عليكِ إخبارها بالحقيقة يي مرحلة ما يا سنيوريتا"

همست بمشاعر مضطربة: "وماذا سأقول؟ والدكِ لا يريدك؟ أو أخبرها أنّه 005؟ صحيح أنّها ذكية بالنسبة لعمرها، لكن ما تزال صغيرة لتفهم

وتتقبّل حقيقة خطيرة مثل هذه!"
أردفت: "كنت أعلم أنّها سوف تتساءل، ولم أردها أن تكبر وتجهل كلّ شيء عنه. لم أردها أن تكرهه أو تُجرَح مشاعرها بسببه، ولا أستطيع أن أنكر وجوده ونحن نعيش بين عائلته... لا أعلم ماذا أفعل في المستقبل يا أندرياس"

احتضنها برفق ومسح على ظهرها، ثمّ همس: "يكفي.. من المفترض أن يكون هذا يوماً سعيداً، لذا لا تحزني وترهقي نفسك بالتفكير بالمستقبل"

تنهدت بعمق مسندةً رأسها على كتفه: "جزءٌ منّي خائف من معرفتها للحقيقة كاملة. لا أريدها أن تعرف أنّي فشلت بإنقاذه و—"

قاطعها بنظرات مستاءة وهو يلمس وجهها: "إيّاكِ أن تفكري بهذه الأفكار.

هو يجول العالم ويستمتع بعمله اللعين دون أن يفكّر بكِ، وأنتِ هنا تلومين نفسك؟ هراء! هذه الأفكار ستؤلمك فقط، لذا ذكّري نفسك أنّك بذلتِ ما بوسعك وهو الطّرف الخاسر، ويوماً ما ستدرك ميا ذلك أيضاً"

لمست يديه اللتين تحتجزان وجهها، ثمّ ابتسمت بلين وهي تخفضهما: "أنت محقّ" استطردت وهي تشدّ على يده: "شكرًا على تذكيري بذلك، وشكرًا على حفلة ميا الرائعة"

"العفو... هذا أقلّ ما يمكنني فعله من أجلكما"

18: بلاكبول

ارتمت ميا المتحمسة في حضن والدتها في الليلة التي سبقت موعد السفر. لا تستطيع أن تخفي حماسها لأوّل رحلة لهما خارج المكسيك، ولا الأمل الكبير في إيجاد والدها وتحقيق أمنيتها التي قد تكون مستحيلة

هزّت قدميها تحت الغطاء وهمست: "لا أظن أنّي أستطيع النوم يا ماما"

مسحت روبي المهمومة على شعرها وهي تحتضنها، ثمّ لمست مِيا القلادة التي تلبسها دائماً -هدية والدتها- وكانت مثل قطعة الخرز، دائرية ومجوّفة. لو نظر المرء داخلها في النّور، أو سلّط عليها ضوءاً قويّاً فسيرى صورة روبي المميزة مع مارسيل في الجندول

"هذه أجمل صورة في العالم" ضحكت بخجل: "ويبدو بابا وسيماً فيها"

ابتسمت روبي رغم المرارة التي شعرت بها وهمست: "إنّها صورة جميلة بالفعل، هيا للنوم الآن"

همست ميا بعد لحظة صمت قصيرة: "ماما...؟ أنا أشبه بابا، صحيح؟"

"لقد ورثتِ الكثير منه"

تبسّمت بسعادة: "ماذا عنكِ يا ماما؟ هل تشبهين جدّي الرّاحل توبي؟ أم جدتي؟"

سرحت روبي بعقلها وذكرياتها للحظة، ثمّ نظرت لابنتها التي ما تزال تجهل الحقيقة وأجابت: "يقولون إنّي أشبه أبي أكثر من أمّي"

"مثلي" ضحكت بهمس: "يمكن لبابا

تمييزي عندما يراني"

تنهدت روبي تنهيدة طويلة ومسحت على وجه ابنتها: "أعلم أنّك تأملين رؤية أبيكِ في هذه الرحلة، لكنّي لا أريدك أن تُحبَطي لو لم تستطيعي ذلك. حسناً؟"

حزن وجه ميا الصغيرة: "ألن يكون موجوداً في المنزل الزجاجي؟"

"ربما لا"

"ولكنّي تمنيت أمنية في يوم ميلادي... تمنيتُ رؤيته" أردفت بتردّد: "وتمنيت عودتكما إلى بعضكما "

تفاجأت روبي، ثمّ همست: "ميا... أنا ووالدك لن نعود إلى بعضنا أبداً"

"لماذا؟ هل المشكلة بينكما كبيرة لهذه الدرجة مثل والدا بيتر؟" سألت بخوف: "هل ضربك بابا؟"

"لا يا عزيزتي، وهذه أمور بالغين. لا تزالين صغيرة لتفهمي"

احتضنت والدتها قائلةً: "أعتذر لو قلتُ شيئاً خاطئاً"

"لم تقولي... يجب أن ننام الآن وإلا فسيوبخنا لورينزو لو تأخرنا غداً"

"حسناً" ابتسمت ميا ولمست وجه والدتها: "أحبك يا ماما"

"وأنا أيضاً أحبّك... دائماً وللأبد"

***

حلّت روبي حزام أمانها بعد أن استقرت الطائرة في مسارها بسلام، فيما انشغلت ابنتها بالتّلوين والاستماع للموسيقى عبر سماعتها حتّى انعزلت في عالمها الخاصّ، أمّا لورينزو فقد كان رفيق الرّحلة الصّامت؛ منفردًا في

عالمه المليء بالمقالات الطبية، يسجل الملاحظات ويعمل بصمت حتّى خفتت الأضواء، وتملّكه النّعاس، فاسترخى على مقعده قليلاً

تأمّلته روبي خلسةً بعد أن غطّت ابنتها، ثمّ التقطت هاتفها وكتبت في مجلد مذكراتها الإلكترونية: "مذكرتي العزيزة، ينام لورينزو بشكل مهندم، وهو يبدو كتمثالٍ لأحد الإغريقيين..

لقد أخبرتني لورينا أنّها رأت صورة له في عشرينياته وكان أجمل بكثير. هو يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاماً الآن، فكيف كان في العشرينيات أو حتى في طفولته يا ترى؟ لا أستطيع أن أتخيل..."

أغلقت الهاتف بهدوء، ثمّ تابعت قراءة روايتها التي خطفت أنفاسها في الفصول الأخيرة، وأغرقتها في دوامة

مشاعر لم يسحبها منها سوى صوت الطيار الذي أعلن وصولهم إلى مطار بلاكبول، مدينة السّاحل البارد، والضباب الذي يعانق البحر

ضربت موجة خفيّة روح روبي.. موجة محمّلة بمشاعر كالحنين، الرّهبة، الحزن والاشتياق وحتى الخوف؛ فلم تكن بلاكبول مجرّد مدينة عابرة، بل كانت المدينة التي بدأ فيها كلّ شيء. هنا عاشت مع والدها أسعد ذكرياتها قبل أن يمزّقها رحيله، هنا احتجزتها دار الرعاية وأطلق عليها لقب اليتيمة حتّى بلغت الثامنة عشرة، هنا وجدت أصدقاءها وفقدتهم، وهنا حيث التقت بمارسيل لأوّل مرّة في ليلة ماطرة لن تنساها أبدًا...

تأمّلت ميا الشوارع عبر نافذة السيارة الخاصة التي أقلّتهم، بينما روبي تسرح

بخيالها عنها حتّى نادتها وقالت: "انظري إلى لعبة القطار العالية هناك! هل سنسكن بالقرب من مدينة الألعاب يا ترى؟"

نظرت روبي إلى لورينزو الذي أجاب بنبرة هادئة مخاطباً ابنتها: "سوف نمكث في فندق قريب من مدينة الألعاب وعالم البحار، وكلّ مكان ترغبان بزيارته تقريباً" نظر إلى روبي: "عدا المنطقة التي كنتِ تسكنين فيها، ولكننا سنذهب إليها كما هو مخطّط"

***

تولّى لورينزو الحديث مع مكتب الاستقبال عندما وصلوا إلى الفندق، ثمّ صعدت روبي مع ابنتها للجناح الفاخر الذي تألّف من غرفة نوم رئيسة مع أخرى للمعيشة، حمام ملكيّ، وشرفة كبيرة تطل على جزء من حديقة

الفندق الجميلة، بأشجارها المشذّبة وزهور الخزامى والنرجس التي تضفي جمالاً ورائحة مريحة للنّفس. وخلف ذلك الجزء من الحديقة، يمتدّ السّاحل برماله الذهبية النّاعمة ويلتحم بمياه البحر الذي تعكس أشعة الغروب على سطحه ألواناً آسرة...

شهقت ميا بدهشة: "يا لجمال الإطلالة!"

"لا تخرجي إلى الشرفة وحدك يا مِيا، اتفقنا؟"

أومأت بفهم، ثمّ نظرت إلى لورينزو سأل والدتها بنبرة متحفظة: "هل ستخرجان بعد قليل؟"

"سنرتاح ونبدأ يومنا غداً صباحاً"

"مهما كان الذي تريدانه فاتصلي بي وأعلميني. أنا مكلّف بمرافقتكما في كلّ

مكان وزمان. لا تشعري بالحرج أو بحاجة للتصرف بأدب واتصلي في أيّ وقت. مفهوم؟"

"مفهوم... تصبح على خير"

أومأ لورينزو فقط قبل أن يغلق الباب، لتزفر روبي وتبدأ بإفراغ الحقائب، بينما ميا تعبث بالثلاجة وتسأل: "هل يمكنني أن أتناول هذه الشوكولا والحلوى؟"

تمتمت روبي بتململ: "جدّك من سيدفع لذا تفضلي"

"ماذا قلتِ؟"

تداركت نفسها بسرعة، ثمّ قالت: "يمكنكِ ولكن ليس الآن، لأنّك سوف تستحمين، تغسلين أسنانك، ترتدين المنامة وتنامين"

احتجت بلطافة: "لا..."

رفعت روبي حاجبيها بتحذير خفيف: "مِيا...؟ اتفقنا أن تكوني مطيعة"

زمّت شفتيها: "أعلم ولكن لا أريد أن أستحمّ وأنام"

"دعيني أعقد اتفاقاً معكِ إذاً. افعلي ما طلبته، وسوف أشتري لكِ الحلوى"

"ليست كافية" عقدت ذراعيها بابتسامة متلاعبة

قبلت روبي التّحدّي وقالت: "ماذا عن المثلجات؟"

غنّت ميا جملتها: "ليست كافية أيضًا"

ابتسمت روبي محدقةً بها: "سأخبرك بقصة عن أوّل مرة طبخ فيها والدك لي"

برقت عينا مِيا بحماسة: "حقاً؟ ماذا طبخ لكِ؟"

ابتسمت بتلاعب مثلها: "ليس قبل أن تنقذي ما قلته"

"حسناً حسناً سأفعل!"

انطلقت ميا ونفّذت الأوامر بسرعة لحماسها، ثمّ استعجلت والدتها وسحبت يدها كي تنضمّ إلى الفراش وتحكي لها القصّة التي تتوق لسماعها بشدّة. استرجعت روبي ذكريات الجزيرة التي عاشت فيها تجربة قاسية نفسيّاً وجسديّاً، تذكرت كيف اعتنت بمارسيل حين اشتدّ مرضه، كيف نامت بجانبه بعد أن سهرت على بته؛ خوفًا من أن يموت فجأة. ذكّرت مشاعرها المرتبكة في وجوده وكيف امتزجت بين الحبّ والخوف، الدفء والخطر.

كما تذكّرت الانفجار المخيف، النيران

التي التهمت الأشجار، الألم والرّعب الذي أصابها بعد ذلك لدرجة أنّها شعرت بنبضات خفيفة من الندبات التي خلّفها ذلك اليوم...

"ماما؟ ما بكِ سرحت؟"

"أعتذر..." مسحت على رأسها ثمّ تنهدت تنهيدة مثقلة بجراح الماضي: "لدى والدكِ غواصة نفاثة على شكل سمكة قرش"

شهقت مِيا بانبهار: "حقّاً؟"

"أجل، ولونها أسود"

عقدت حاجبيها مستنكرةً: "لا يوجد قرش أسود"

تذمّرت روبي بهمس: "أخبرته بذلك ولكنّه لم يستمع لي! يمكنه أن يكون غبيّاً أحياناً" استطردت: "على كلّ حال، ذهبنا في رحلة يومًا من الأيّام وجرفنا

البحر إلى جزيرة صغيرة وسط المحيط لأنّ والدك عبث بالبطارية. لم نملك طعاماً ولا شراباً وأصابه المرض، فتولّيت زمام الأمور بالطبع. وفّرت الماء، اهتممت به واصطدت الطعام حتّى استعاد القليل من صحته وتمكنت من النوم أخيرًا..."

سألت بابتسامة صغيرة: "ثمّ ماذا؟"

سرحت روبي في الذكرى وكأنها تشاهدها أمامها. شعرت بنوع من الاشتياق لتلك الأيّام رغم قسوتها، وتشوشت مشاعرها للحظة قبل أن تصبح واضحة، ثمّ أجابت: "تسلّق النخيل وقطف ثمار جوز الهند لنأكل ونشرب منها الماء، ثمّ قام بغلي السلطعون وجهّز لي لحمه حتى لا أتعب في تحضيره"

"هل كنتما وحدكما في الجزيرة؟ ألم

يكن الأمر مرعباً؟"

"بلى، ولكننا تخطينا ذلك"

"وكيف خرجتما؟"

تنهدت روبي من أنفها: "استطعنا إرسال إشارة إلى عمّك أندرياس فجاء لنجدتنا"

تأمّلت مِيا وجه والدتها، ثمّ وضعت رأسها في حضنها وقالت: "جيدٌ أنكما استطعتما النجاة. أنتِ قوية يا ماما وبابا أيضاً، لكن لا تفعلا ذلك مجدداً، فأنا أقلق"

قبّلت رأسها، ثمّ قالت: "لن نفعل يا عزيزتي، فلا تقلقي... هيّا نامي الآن"

"أريد أن أعرف إلى أين سنذهب غداً أوّلاً"

"كنتُ أفكّر بقضاء اليوم في مدينة

الألعاب، ثمّ تناول السمك في مطعم على الشاطئ، أو يمكننا الذهاب لعالم البحار. ما رأيك؟"

"لنذهب إلى مدينة الألعاب أولاً"

"حاضر، كما تشائين"

وهذا ما حدث بالفعل في صباح اليوم التالي، حيث تناولتا الإفطار في الفندق، ثمّ انطلقتا لمدينة الألعاب التي سرقت عقل مِيا وأشعلت فيها روح المغامرة، فلعبت مع والدتها كلّ الألعاب الممكنة، حتّى كادت أن تبكي بدرامية عندما طلبت منها ركوب لعبة الصاروخ للمرة الثالثة على التوالي!

ابتلعت روبي ريقها الجافّ وحاولت التهرّب: "لنجرب شيئاً آخر، فيبدو أنّ العمّ لورينزو قد شعر بالملل أثناء انتظارنا"

أجاب لورينزو ببرود ولا مبالاة: "أنا على ما يرام. يمكنكما الذهاب"

رمقته بنظرة حادّة وابتسامة متكلّفة قبل أن تتجرّع جولة أخرى من الغثيان والخوف، وكانت تأمل أن تتعب ميا وتعلن الاستسلام، لكنّها استمرّت باللعب حتّى رأت ما عكّر مزاجها وجعلها تنكمش في مكانها

تبعت أنظارها لترى المهرّج، أكبر مخاوفها منذ أن أرتها عدوّتها سيسيل صورة مرعبة له، وأخبرتها أنّه يلتهم الفتيات اللاتي يملكن عيوناً خضراء، ولم تتمكن روبي من إقناع ابنتها أنّ تلك كذبة خبيثة مهما حاولت...

"لا تنظري إليه يا عزيزتي، إنّه بعيد ولن يؤذيكِ حتّى لو اقترب"

تمسّكت بثياب والدتها وقد دمعت

عيناها: "إنّه يسير في طريقنا، دعينا نرحل!"

نظر لورينزو إلى المهرّج، ثمّ لروبي التي احتضنت ميا وطلبت منها إغلاق عينيها حتّى رحل وانتقل لبقعة أخرى، لتزفر بارتياح وتُطالب بلعبة الخيول الدوارة قبل الرّحيل، حيث الأجواء الموسيقية والأضواء التي خلقت خلفية مثالية للتصوير، استغلتها روبي قدر المستطاع

دارت اللعبة... ودارت معها عجلة الماضي حتى تسللت الذكريات لعقل روبي بلا استئذان. تذكّرت رفاقها القدامى وهم يتنقلون بين عربة وأخرى مثيرين الشغب، رفيقها الحميم الذي تقيأ بسبب الدوار وأخبر الجميع أنّ روبي من تقيّأ على حذائه، وتذكّرت والدها وكيف كان يقلّد أصوات

الحيوانات، يُضحكها حتى تنهمر دموعها

ثمّ باغتها شعور غريب فجأة، أوقف عجلة الذكريات وجعلها في حالة تأهّب، وكأنّها تستشعر خطرًا ما! جالت بعينيها بين وجوه الأطفال الذين يصرخون بحماسة، وذويهم الذين يلتقطون الصور أو يلاعبونهم. بدا كلّ شيءٍ طبيعيًّا، لكنّ قلبها لم يرتح أبدًا؛ تشعر أنّ هناك من يراقبها ويرصد حركاتها...

"ماما؟ ما بكِ؟"

نظرت إلى ابنتها للحظة، ثمّ ابتسمت ابتسامة خفيفة لتطمئنها: "لا شيء يا ميا.. لا شيء"

***

قاد بهما لورينزو بعد الخروج من

مدينة الألعاب إلى مطعم السمك الذي تحدّثت عنه روبي، حيث يداعب هواء البحر المالح الزّوّار الذين يستمتعون بتناول الأسماك الطازجة والمتنوّعة على صوت الأمواج المتراقصة...

وكانت روبي تأمل أن يبقى الجوّ مسالمًا هكذا وألّا تصادف أحداً تعرفه؛ كي لا يطرحوا السؤال الذي لا تملك إجابة طبيعية له، فلا توجد طريقة لإخبارهم عن 005 الذي قتلها وزيّف موتها بالانتحار، وبيتروڤا الذي أنقذ حياتها، دون أن تسبب هلعهم

"هل كنت تأتين إلى هذا المطعم كثيرًا مع جدّي توبي؟"

"أجل، وكنّا نجلس لساعات أحياناً. نأكل ببطء، نشرب الشاي ونتحدث"

"وعن ماذا كنتما تتحدثان؟"

أجابت بنبرة مرحة: "كنت أتحدث عن أحلامي، وكان أبي يتحدث عن الطعام، المال والسفر"

ابتسمت ميا: "وما هي أحلامك يا ماما؟ بجانب إنجابي!"

كان سؤالاً بريئاً، ولكنّه لمس جرحاً قديماً في قلب روبي التي شرد ذهنها لبرهة طويلة لم تعلم فيها بماذا تجيب ابنتها؛ إذ كانت أحلامها واضحة لها من قبل، ولا تعلم كيف ومتى تغيّر كلّ شيءٍ فجأة. هل من لقائها بمارسيل؟ عودتها إليه أو انفصالها عنه؟ أم من حملها و انتقالها إلى المكسيك؟

موضوع شغل بالها طوال وجبة العشاء، وحتى بعد عودتهم إلى الفندق، حيث غطّت ميا في نومٍ عميق بينما روبي ما تزال تفكّر حتى شعرت بالإرهاق وخرجت للشرفة؛ تستنشق

الهواء المنعش وتتفقّد صور اليوم، تدردش مع أندرياس وتزوده بآخر الأخبار إلى أن سرت القشعريرة بجسدها مثلما حدث في مدينة الألعاب

تلَفَّتت حولها بحذر وقلق، ثمّ نظرت إلى الحديقة في الأسفل، وكادت تجزم أنّها لمحت جسماً أسود مريباً، اختبأ خلف الأشجار المشذّبة بسرعة وكأنّه لا يرغب في أن يتمّ كشفه، لذا انسحبت للداخل بهدوء وأغلقت الستائر والأضواء في عمليّة تمويه؛ وقفت تراقب الحديقة الساكنة بأعين حادّة من خلف السّتار، متيقنة أنّها رأت دهم، لكنّ الدقائق الطويلة انقضت دون فائدة تُذكَر، ولم تستطع روبي أن تطرد الشعور السيئ الذي راودها ولازمها طوال الرّحلة...

19: وداعاً داڤينا

موسيقى... أجساد تتمايل وترقص، ضحكات وقصائد غزلية تُلقى على مسامع إيزابيل التي خالفت أوامر أندرياس مستغلّةً غيابه، وعادت لتجلس بين رجال الطبقة المخملية كجوهرة صعبة المنال، وملكة لا يُخَالَف أمرها، دون أن تدرك أنّها استفزّت الجانب المظلم من أندرياس، وأيقظت الوحش بعد سباتٍ طويل..

نظرة واحدة منه كانت كفيلة بجعل الرّجال يبتعدون رغم الإغراء، فقد كانوا يخافون على حياتهم ولا يرغبون بالتورّط مع شخصٍ تابع لآل كورتيز ومن آل غارسيا!

أخفت إيزابيل انزعاجها خلف قناع البرود واللامبالاة، ثمّ جلس أندرياس

بجانبها دون قول شيء وأشار للنادل أن ينظّف الطاولة

"لقد عدت.."

ابتسم بتكلّف: "لديّ مزاج للاحتفال الليلة"

أعطى إشارة فقط للمؤدّيات، وسرعان ما قدِمن للانضمام إلى طاولته، وقام بجعل إيزابيل تزحف حتّى باتت تجلس في الطّرف وهو بجانبها، وعلى يمينه ثلاث نساء حسناوات ولكن لا يتغلّبن عليها في الجمال. أخذ يتحدّث ويضحك معهنّ متجاهلاً إيزابيل تمامًا، بعض الرّجال من الطاولات الأخرى يرمقونه بنظراتهم الحاقدة على هذه المعاملة، بل ويجدونها سوء أدب تجاه محبوبتهم وملاكهم داقينا

لم تستطع ألّا تتأثّر، أو يُجرَح كيانها

كامرأة، وكداڤينا، ولم تستطع أن تبقي قناعها أكثر، فهمّت بالنهوض لولا أن أمسك معصمها وأجلسها مجدداً، قائلاً: "إلى أين؟"

ردت بصوتٍ مشحون: "اترك معصمي!"

كرّر ببرود أخافها: "قلت. إلى. أين؟"

نظرت إلى عينيه بازدراء: "جناحي"

أومأ: "فكرة جيدة.." ثمّ التفت للنساء: "سوف ننقل حفلتنا الصغيرة إلى جناح داڤينا يا آنسات! هيا بنا"

حاولت إيزابيل سحب معصمها عندما نهض وسحبها معه وخلفه المؤدّيات اللاتي زاد عددهنّ فجأة، ثمّ همست بامتعاض: "ما الذي تفعله؟"

"ألم تسمعي؟ سوف ننقل الحفلة للأعلى"

"لا تستطيع—"

اندفعت إلى الخلف بسبب تدافعهن داخل المصعد وحول أندرياس الذي قام بتشغيل الموسيقى الصاخبة في الجناح، وطلِب المأكولات والمشروبات بينما الحسناءات يشغلن غرفة معيشة إيزابيل، والتي تمّ إجبارها على الجلوس بجانبه ومتابعة السهرة

"لديكِ جناح رائع يا داڤينا!" قالت إحداهنّ وهي تضحك

قلّبت إيزابيل ناظريها والتفتت إلى أندرياس، ثمّ قالت: "أرغب بالذهاب ى غرفتي"

"يمكنكِ الذهاب، فلقد انتهينا من تأمّلك."

حملقت به قليلاً قبل أن تنهض لغرفتها، حيث حبست نفسها وهي

مستاءة ودماؤها تغلي. لم تستطع النّوم بسبب الموسيقى، وكانت تصرّ على أسنانها وهي تستمع لأصوات ضحكاتهن وضحكات أندرياس الذي لا تنفكّ تتخيّله معهنّ

استمرّت السهرة لساعات لم تخرج فيها من الغرفة، حتى بعد ما سمعت الزجاجات والأواني تسقط وتتحطم، ثمّ التقطت هاتفها عندما طنّ برسالة من حارسها الشخصي بوبي، وسرعان ما قامت بالاتصال به...

"ما الأمر يا بوبي؟ ما الذي اكتشفته؟"

"لقد بحثت في الأمر... لم يعد شنايدر المالك، بل كان مجرّد واجهة مؤقتة. باع الفندق قبل أربع سنوات تقريباً، واحزري من المالك؟ أندرياس غارسيا! لقد كان ملكه طوال الوقت"

شدّت على هاتفها وهي مصعوقة، ثمّ تحولت الصدمة إلى غضب دفعها إلى إنهاء المكالمة والنهوض من الفراش لتخرج وفي داخلها بركان على وشك الانفجار. أغلقت الموسيقى ورمقت الفتيات بنظرات غاضبة قائلة: "اخرجن!"

"آه لماذا تفسدين سهرتنا؟"

"كان أندرياس على وشك إخبارنا بقصة مضحكة!"

هتفت إيزابيل بسخط: "قلت اخرجن!"

رفع أندرياس حاجباً في تعجّب، ثمّ قال بابتسامة: "سنتابع سهرتنا في وقتٍ لاحق يا آنساتي، اعذرننا رجاءً"

قلّبن أعينهن والتقطن أغراضهن ليغادرن الجناح، ثمّ نهض أندرياس

وركل المزهرية المحطمة جانباً قبل أن يقترب من إيزابيل التي ترمقه بحدّة ويقول: "أفسدتِ حفلتنا الصغيرة"

"يمكنكَ إقامة حفلة أخرى بما أنّك المالك والمتحكّم بكلّ شيء!"

تبسم بغرور: "علمتِ بالحقيقة إذاً"

سألت بنظرات استحقار: "ما الخطوة التالية الآن؟ ماذا بعد إهانتي أمام الجميع؟"

"لم تكن خطّتي كمالك أن أهينك. أردت الانتقام فقط لأنّكِ خالفتِ كلامي وجلستِ بين الرجال مجدداً"

هتفت بازدراء: "الانتقام؟"

ردّ أندرياس بغضب: "أجل!" ثمّ خفض صوته المشحون وتابع: "أنا رجل، وأكنّ مشاعر صادقة لكِ. تجمعنا علاقة جادّة، ولكنّي أتيتُ وشاهدتك

تجلسين بين الرجال الذين يحاولون لمسك ومغازلتك وأنتِ لا تفعلين شيئاً، بل كان يعجبك الأمر

لقد غرت، غضبت، وفعلت كلّ هذا لأردّ لكِ فعلتكِ، فلا تتوقعي أنّي من الرجال الذين سيصمتون بل سأردّ لكِ أذاكِ حتى تذرفي دموع القهر!"

رفعت ذقنها بثبات، وقالت بتهكّم: "وفشلت... لم أذرف دمعة واحدة ولم أشعر بالاستياء حتى. أنت الخاسر يا أندرياس ولن تتمكّن من التأثير بي" ابتسمت بتكلّف ثمّ قالت: "أشعر بالشفقة عليك. هل تظنّ أن العلاقة التي بيننا جادّة؟ نحن نهدر الوقت فقط ولكن عجباً! اشتريتَ الفندق لأبقى معكَ لوقتٍ أطول حتّى تملّ منّي أخيراً"

"لم أشترِ الفندق لهذا السبب بل

اشتريته لتحصلي على حرّيتك، وكنت أنوي إخبارك بالأمر عدّة مرات مع خاتم زفافٍ لعين!"

فرّت ضحكة مستنكرة منها: "حرية وخاتم زواج؟ هل تسمع نفسك؟ تريد أن تستعبدني بشتّى الطرق، لأنّك قوي ومن المافيا وأنا لست سوى مومس قذرة" أردفت بازدراء: "تباهَ بقوتك كما تشاء، يمكنك أن تمتلك وجهي وجسدي، يمكنك إجباري على الزواج وهذا أمر لا أستبعده ولكنك لن تملك قلبي أبداً!"

حدّق بعينيها للحظات: "لديكِ مشكلة مع العبودية والتملك يا إيزابيل، وأنتِ مخطئة لو اعتقدتِ أنّي أتباهى بقوتي أو أريدك لوجهك وجسدك فقط. لقد ظننت أنّ بيننا شيئًا، ولكن يبدو أنّي كنت مخطئاً... أنا لا أملكك، ولا أريد

ذلك، لذا وبما أنّي المالك فأنتِ مطرودة"

حدّقت به مطولاً وهي متفاجئة، لا تعلم ما إن كان جادًّا أم لا، ثمّ اقترب خطوة أخرى منها وتابع: "أعلم أنّكِ حالما تعبرين الباب فسوف تنهال عليكِ العروض الخيالية وكأنّك جوهرة تنتظر أن تجد متحفاً، أو سجناً أفضل للذهاب إليه... ولم أرد ذلك لكِ! لهذا السبب اشتريت الفندق، لأنقذك وأحرّرك منه ومن هذه الحياة رويداً رويداً إلى حياة جديدة، ولكن إن كان هذا ما تريدينه، إن كان هذا ما يجلب لكِ السعادة الراحة وما تفضّلينه عليّ، فتفضّلي. لا أبالي بعد الآن"

***

"لنراجع القواعد المعروفة وقت السباحة"

"لن أخلع العوّامات، سأبقى قريبة منك أو أمام نظر العمّ لورينزو، لن أقترب من البِرك المزدحمة أو التي بها تدافع، سوف أُبقي الصّفارة وأنفخ عليها لو ضعت أو فقدت أثرك"

ابتسمت مِيا لوالدتها التي تأمّلت شكلها اللطيف بلباس السباحة الأصفر، وعوّامات الأذرع البيضاء على شكل أحاديّ القرن، ثمّ أمسكت يدها واتّجهتا لركوب المنزلقات المائية المتعدّدة في الحجم والشكل، وكانت روبي شجاعة في مواجهتها للماء وليس من أجل مِيا فقط، بل من أجل نفسها أيضاً

جلست داخل بداية المنزلقة، وزفرت نفساً مضطرباً قبل أن تدفع بجسدها وتنزلق نحو الظلام وهي تذكّر نفسها أنّ المكان ليس معتماً لذلك الحدّ، وأنّ هناك نوراً في النهاية. اندفعت بعد

خروجها، وجذبها الماء للأسفل لثانيتين بدتا طويلتين جدّاً، لكنّها استمرّت بتطبيق ما تعلمته مسبقاً، وطمأنت نفسها مرّات ومرّات أنّها ستكون بخير، وأنّ الأمر بسيطٌ جدّاً وكلّ ما عليها فعله هو دفع قدميها للأعلى والاتّجاه نحو النّور

طفت على السطح والتقطت نفساً قويّاً قبل أن تمسح الماء عن وجهها، ثمّ أشارت للمسؤول الذي أعطى إشارة أيضاً واستعدّت لاستقبال ابنتها التي سمعت صدى صرختها المتحمسة عبر النفق المائي حتّى خرجت واحتضنتها قبل أن تغوص للماء أكثر

"آمل أنّك اكتفيتِ من المنزلقات"

ضحكت ميا قليلاً: "أجل" تابعت: "أريد اللعب هناك مع الأطفال الآخرين!"

"حسنًا، استمتعي بوقتك وسأراقبك. لا تذهبي من الجهة الأخرى، وإن حاول صبي أو فتاة إغراقك أو اللعب بعنف فانفخي في الصّفّارة وابتعدي. اتفقنا؟"

"اتفقنا"

جلست روبي تراقب ابنتها وهي تنزل للمسبح وتتجه إلى الألعاب، ثمّ وقعت عيناها على رجلٍ رأته من قبل في المنزلقات. نظر إلى حيث الأطفال مطوّلاً قبل أن يتابع طريقه بشكل طبيعي، لكنّه أثار ريبتها، ولم تستطع أن تترك التفكير بالأمر، لذا التفتت حولها مجددًا باحثةً عن أيّ أحد مريب حتّى تنهدت ونظرت إلى لورينزو الذي يجلس على الكرسي بجانبها، يقرأ خطابًا على هاتفه

"بعذراً على المقاطعة..."

أغلق هاتفه ونظر إليها بصمت، منتظراً أن تتحدّث. تلقّنت حولها مجدداً ثمّ قالت بصوتٍ منخفض: "قد يبدو هذا جنونياً، ولكنّي أشعر أنّ هناك من يراقبنا، وليس اليوم فقط بل البارحة أيضاً"

"ليس جنونياً. هناك حوالي ثلاثين رجلاً ينتشرون هنا وهناك من أجلكما"

رمشت باستنكار: "ماذا؟"

"هل ظننتِ أنّي الوحيد الذي يرافقكما؟ نحن متأهّبون لأيّ طارئ، فأنتما أمانة الدّون"

قالت بعد لحظة صمت قصيرة: "تقصد أن مِيا أمانة الدّون"

"أتذكّر ما قاله، وأوصاني بكما"

عاد للقراءة على هاتفه دون أن يكترث لردّة فعلها أو أيّ شيءٍ آخر،

فقلّبت ناظريها وتمتمت بهمس: "لن أصدّقك أبدًا"

***

بعد اليوم الممتع الذي قضته ميا في مدينة الألعاب المائية، جلست على المقعد الخاصّ بها في السيارة. تدندن بلحنٍ ما ريثما تعود والدتها من الصيدلية. تلعب بدميتها المفضلة، تحادثها وتخوض معها نقاشات جادّة دون أن تشعر بـ لورينزو الذي يراقبها عبر المرآة الأمامية حتّى التقت أعينهما وابتسمت بخجل

ثمّ بسطت يدها الحرّة في الهواء قائلةً: "انظر إلى يدي، أصابعي منكمشة مثل العجائز"

ردّ بهدوء: "هذه ردّة فعل من جهازك العصبي، حيث تنقبض الأوعية الدموية

الصغيرة تحت الجلد، ويتم سحبه إلى الداخل لتسهيل إمساكك بالأشياء حتّى لو كانت أصابعك مبلّلة، كما تساعد التجاعيد في قدميكِ أيضاً على الثبات داخل الماء وعدم الانزلاق"

تبادلا النظرات للحظة عبر المرآة، ثمّ قالت ميا: "أنت ذكي حقّاً يا عم لورينزو"

ابتسم لها ابتسامة خفيفة جدًّا، ثمّ سأل: "هل حظيت بوقتٍ ممتع اليوم؟"

"أجل!" أضافت بصراحة: "كان عليك أن تسبح أيضاً، حتى تكون عمًّا ممتعاً مثل العم أندرياس"

"لم يُخلَق البشر ليتشابهوا"

وجدت ميا ذلك ساخراً لعدم فهمها عمق جملته، ثمّ سألت بفضول: "ما

معنى اسمك يا عم لورينزو؟"

"إنّه اسم مشتق ويشير إلى شجرة الغار، تُستخدم أوراقها كمادة طبية وأحياناً في الطّبخ أو لتتويج المنتصرين والشعراء قديمًا"

ردت بانبهار: "رائع..."

تبادلت النظرات معه عبر المرآة مجددًا، وكان واضحاً من تعابير وجهها أنّها ترغب في أن يسألها عن اسمها، فابتسم وسألها: "ماذا عنكِ؟"

أجابت بفخر: "اسمي لديه معانٍ كثيرة في عدة لغات، وبلغة أخرى لا أتذكرها يعني الصغيرة والجميلة"

قال بتهكم: "ولكنك لستِ صغيرة وجميلة، صحيح؟"

احتجت ببراءة: "بلى أنا كذلك!"
أردفت بعينين ضيّقتين: "أنت شجرة

ولا يمكنك التحدّث"

فرّت ضحكة خافتة منه، ثمّ عدّل المرآة عندما أتت روبي ومعها ما تحتاج إليه، وبدأ القيادة في صمت مجدداً...

***

وبينما يحظى الآخرون بوقتٍ ممتع، تستعدّ إيزابيل للرّحيل بعد الإهانة التي لا تُنسى. قامت باستئجار شركة لتنقل أغراضها وكلّ الهدايا الثمينة التي لم تستهلكها بعد، وكان بوبي على رأسهم ليحرص على ألّا يسرقوا شيئاً، لكنّها لم تهتمّ حتى لو فعلوا ذلك؛ كانت صامتة وشاردة الذهن، على عكس هاتفها الذي لم يتوقف عن الطنين باتّصالاتٍ ورسائل كثيرة حتى قامت بإغلاقه، لكنّ ذلك لم يردع البعض الذين انتظروها خارج بوابة الفندق أو

في البهو

وقفت مقابل الإطلالة، ليس لتحدّق بها؛ فهي تحفظ المنظر عن ظهر قلب ولا تكترث له، بل لتتأمّل زوجي الطيور داخل القفص وهي تفكّر بأندرياس الذي لم يظهر مجدداً أبدًا

"ما الذي سنفعله بالعصفورين يا داڤينا؟"

"خذهما لك"

التفتت إيزابيل وغادرت الجناح دون أن تلقي نظرة أخيرة؛ ترى أنّ الماضي الذي عاشته هنا لا يستحق وداعها، بل يستحق أن يُدفَن. لبست نظّارتها السّوداء، ومشت أمام الجميع بخطواتٍ واثقة وكأنّها ملكة لا يُكسر لها هيبة مهما حدث، ولكن مع الأسف... الملكة تغادر عرشها هذه المرّة

20: عمّ من الماضي

في مزرعة محصّنة وسط الأرياف، بعيدًا عن أعين الناس وضجيج المدن، يعيش زوجان عجوزان بسيطان، حياة هادئة ونمطية وكأنّهما انعكاس للطمأنينة. لا يمكن لأحد أن يشكّ بكونهما مجرّد واجهة لما يحدث داخل مزرعتهما أو منزلهما الكبير؛ ففي السرداب الخاصّ المظلم والعازل للصوت، يتمّ حبس عددٍ من الأطفال الأبرياء الذين تتلاطم بهم أمواج الرّعب واليأس! ولم يكن هذا هو المقرّ الوحيد، بل هناك عدّة مواقع أخرى، بعائلات يمثّلون الواجهة المشرقة التي تغطّي الظلام والوحشية التي تُمَارَس خلف الجدران

مشى هوك في أحد المقرّات، يتفحّص الأطفال دون أن يكترث لأنينهم

وألمهم... فمن هذا الطفل الذي لن يبكي أو يتألّم عندما يستيقظ ويرى جزءاً منه مفقوداً؟ وبعضهم لا يستيقظ مجدداً، فقد سرقوا كلّ شيءٍ منه حتى هربت الروح من الجسد، وآخرون يتمّ بيعهم كسلع، وإرسالهم إلى الفسدة الذين يفتعلون بهم أفعالاً وحشية لا يستطيع إنسانٌ عاقل أن يتقبّلها أو يتخيّلها حتّى، مثل إقامة طقوس يقدمون فيها الطفل كقربان ويشربون دمه كما لو كان نبيذ الشياطين، أو تطبيق معتقدات تخصّ نظرية الشباب الأبدي الذي يأتي من وراء لحومهم أو دمائهم، وحتى استغلال أجسادهم من أجل شهواتٍ مقرفة ومنافع مهينة... يا للأسى!

وقف خلف الحاجز الزجاجي، يشاهد الجرّاحين وهم يعملون على أحد الأطفال. ولد لا يبدو أنّه تجاوز التاسعة

من العمر. مخدّر وفي سباتٍ عميق فُرِضَ عليه رغماً عنه، بينما المجرمون يقومون بسلب أطرافه وأجزاء أخرى منه، إضافةً إلى الأعضاء الداخلية، ثمّ وزن كلّ شيء بعناية فائقة

انتقل بعد ذلك إلى المطبخ، أو المجزرة كما يجب أن تسمّى؛ حيث يتكفّل ثلاثة وحوش بتجهيز اللحم، تغليفه ووضعه داخل طرود بريدية مختلفة هدفها التّمويه، فتارةً يضعون اللحم المغلّف وفوقه صورة لبقرة، ليخلق ذلك تمويهاً أنّه لحم بقر، وتارةً أخرى يضعونه في شحنة ملابس...

"هوك؟ أحد الأطفال قد مات"

فرك ذقنه وردّ بلا مبالاة: "جهزوه قبل أن يتعفن ويفسد لحمه"

***

صعدت مِيا إلى مقعدها في السيارة وهي لا تزال تعبّر عن مدى جمال حديقة الحيوانات التي ذهبوا إليها، وكانت تثرثر وتصف كلّ حيوان وجماله طوال الطريق إلى الوجهة التالية دون توقّف أو تعب، وأخيراً، ختمت الثرثرة بأغنية عن الحيوانات حتى وصلوا لوجهتهم...

"ها نحن ذا وسط المدينة يا مِيا"

تلفتت مِيا حولها بلهفة وفضول، ثمّ قالت وهي تؤرجح ساقيها: "لنستكشف!"

ردت روبي بنبرة مرحة: "سنفعل ذلك ولكن على عربة حصان"

شهقت وهي لا تصدّق أذنيها: "حصان؟ مرحى!"

مدّت روبي يدها لتمسكها ميا وتمشي

برفقتها في الطرقات وبين المتاجر والسكّان، وكذلك السيّاح الذين يستمتعون بوقتهم حتى محطّة عربات الخيول. اختارت مِيا فرساً بيضاء، تجرّ عربة وردية اللون ذات عجلاتٍ زرقاء، وصفتها بعربة الأميرات. صعدتا على متنها برفقة لورينزو اللامبالي، ثمّ انطلق السائس في جولة حول المنطقة، فرأت المقاهي والمطاعم، الحدائق الخضراء وتمثال مثلّجات كبيرًا أمام كشك للقهوة والمثلّجات، أصرّت على زيارته، وتمّ تلبية رغبتها بالطّبع...

بناع لورينزو كوب قهوة، بينما ميا تتأمّل قطعة البسكويت التي كانت على شكل شخصية كرتونية، ثمّ رفعتها وبدأت تقلّدها بشكل ساخر، لتضحك روبي بصوتٍ عالٍ وهي تمرّ من جانب سيارة تسليم الطّرود

"سميثي...؟"

توقفت مكانها فجأة، ثمّ التفتت وهي تعقد حاجبيها إلى الرجل الذي ناداها بلقب قديم اعتاد أن يكون لوالدها. كان وجهه يحمل مزيجاً من الصدمة والدهشة، على عكس روبي التي عرفت من يكون ونظرت إليه بصمتٍ خفيف، لا تُظهر ترحيبًا ولا نفورًا

تفحصها جيداً وكأنّه يريد التحقق من هويتها: "روبي...؟ أنتِ روبي! صحيح؟"

تردّدت كلماتها بصوتٍ هادئ حمل ذكرياتٍ مدفونة وحزينة: "أجل يا عمّ فلويد..."

زفر بثقل بعد سيل الذكريات الذي مرّ برأسه، ثمّ قال: "لا أصدّق.. هذه أنتِ حقًّا!" وقعت عيناه على مِيا التي

أمسكت ذراع والدتها بحذر، فابتسم منبهراً: "هل هذه ابنتك؟"

أومأت روبي بهدوء، ثمّ أجابت بتحفّظ: "أجل"

همست ميا: "ماما..؟ من هذا؟"

نظرت إليها وابتسمت ابتسامة مزيفة: "هذا عمّي... شقيق جدّك توبي"

"إنّه من العائلة إذاً!" نظرت إليه، ثمّ ابتسمت: "مرحباً، أنا مِيا كورتيز"

مدّت يدها الصغيرة، فابتسم بتوتّر وصافحها قائلاً: "وأنا فلويد سميث"

"سررتُ بلقائك"

ابتسم مجاملاً: "وأنا أيضاً" التفت إلى لورينزو الذي كان يراقب المشهد بصمت، ثمّ سأل روبي بفضول: "هل هذا زوجك يا ترى؟"

"لا. هذا لورينزو وهو صديقٌ للعائلة"

أومأ فلويد، ثمّ صافحه بأدب قبل أن يعاود النّظر لروبي التي التزمت الصّمت والمعاملة الرّسميّة، وكأنّها ترسم حدوداً خفيّة بينها وبين هذا العمّ

"لا أصدّق هذه المصادفة.. عرفتكِ من ضحكتك. إنّها مثل ضحكة توبي بالضبط"

ابتسمت ابتسامة مجاملة وهي تتأمّل آثار الزمن على وجهه، وعلى شعره الذي غزاه الشيب، ثمّ سألت: "ما الذي تفعله هنا؟ هل انتقلتم؟"

"لا. ما زلت أعمل في شركة الشحن. أحد زملائي مريض لذا حللت مكانه اليوم فقط، وسأعود إلى سندرلاند في الليل"

"هكذا إذاً"

لم تقل شيئاً آخر، ولم تردْ لهذا اللّقاء أن يطول لأسبابٍ كثيرة متعلقة بالماضي والحاضر، ثمّ كسر فلويد الصّمت قائلاً بتردّد: "هل لديكِ وقتٌ بسيط لنتحدث يا ترى؟ أنتِ... ابنة أخي التي لم أرها منذ مدة طويلة"

"أليس لديك عمل؟ لا أودّ تعطيلك عنه"

"لا عليكِ، أستطيع الجلوس معكِ في مكان ما"

قالتْ مِيا بعفوية: "كنّا متّجهين إلى الحديقة، صحيح يا ماما؟"

أومأت روبي باستسلام: "نعم... يمكننا الجلوس هناك"

***

ركضت ميا لتلعب مع بقية الأطفال في الحديقة، بينما جلست والدتها إلى طاولة ومقابلها العمّ فلويد الذي شبّك يديه فوق سطحها بتوتّر؛ لا يعلم كيف ومن أين يبدأ حديثه، وكانت روبي تعي وتشعر بذلك، جزءٌ منها يعلم ما هو الشيء الذي يريد قوله والتّحدّث عنه... وقد حان وقت مواجهة الماضي

"كيف هي عائلتك؟"

شعر بالرّاحة لمبادرتها الحديث، وخفّ توتّره قليلاً. ابتسم بحنان مجيبًا: "زوجتي بخير والفتيات كذلك... تزوجت مارينيت، والتّوءمتان تتابعان دراستهما، أمّا ساندي فتمارس أعمالاً حرّة"

ابتسمت بعفوية: "هذا جميل"

زفر بعمق طارداً توتره: "وأنتِ؟

كيف حالك؟"

"أنا بخير كما ترى" أردفت بصوت واثق: "لن أرهقك بالتفاصيل ولكنّي مرتاحة"

أومأ مبتسماً ابتسامة باهتة، ثمّ قال: "لقد مضى زمن طويل حقًّا... رأيتكِ آخر مرّة في جنازة توبي و—"

قاطعت كلامه بصوتٍ هادئ بدا وكأنّه يصحح له ذكرى قد نسيها: "هذا ليس صحيحاً"

"عفواً؟"

ردّت بنظراتٍ خالية من العاطفة، لا تعكس ثقل المشاعر والذكريات داخلها: "لم تكن تلك آخر مرّة رأيتني فيها يا عمّ فلويد، فقد أتيت بعد الجنازة إلى منزلنا وأخذت بعض أغراض أبي بينما أتت مسؤولة دار الرعاية لتأخذني،

وأخبرتني حينها أنّك ستقوم بترتيب أوضاعك أوّلاً ثمّ تخرجني لاحقاً"

خفض عينيه للأرض والذّنب يعتريه، ثمّ قال بصوتٍ بدا فيه النّدم: "أنا... آسف حقّاً"

هزّت رأسها بحزم، تقطع اعتذاره دون عدائية: "أنا لا أقول ذلك لتعتذر أو تشعر بالذّنب، فأنا أفهم... لديك أربع بنات ولا تحتاج الخامسة. أفواهٌ كثيرة لتطعمها" تابعت بصوتٍ ثابت وهادئ: "كنتُ بخير في الدّار، وممتنّة للرسائل التي أرسلتها لي في الأعياد، ولكن مع الأسف فقدنا الاتصال ببعضنا لانتقالي المتكرّر... وها نحن ذان نلتقي مجدداً"

قال فلويد بعد تنهيدة طويلة: "كان لخسارة توبي فجأة تأثير قويّ علي، فقد كان شقيقي الأكبر الوحيد، وأصابني الحزن كثيراً لدرجة أنّي

مرضت ومكثت في المنزل وقتاً ليس بقصير"

"لقد حزنتُ أيضاً، فقد كان أبي مثلما كان شقيقك الأكبر"

رأت التّوتّر والتردّد في عينيه، ثمّ أعاد تشبيك يديه مجددًا واستجمع شجاعته ليقول: "أريد أن أتحدّث معك بخصوصه. هناك حقيقة لا تعلمينها بعد، وكان ينوي إخبارك بها عندما تبلغين الثامنة عشرة ولكن..." تنهد: "ما سأقوله قد يصدمك. وددت إخبارك به في الرسائل ولكنّي وجدته أمراً صعباً جدّاً. كنتُ قد تركت التفكير به ولكن عندما قابلتكِ الآن شعرتُ أنّي أدين لكِ بهذه الحقيقة على الأقلّ، فربّما أرادكِ أن تعلمي وشعر بالأسى لرحيله فجأة دون إخبارك"

ظلّت روبي صامتة؛ انتظرته حتى

اعترف بالحقيقة التي تعلمها مسبقاً، ثمّ سرحت بذكرياتها لبرهةٍ شعرت فيها بمرارة الاشتياق وقالت: "أعرف..."

أجفل فلويد متعجّباً: "كيف؟"

"علمتُ من أحدهم عن والدي البيولوجي، واستنتجتُ الأمر كلّه ولكن..." ازدردت بخفّة: "لأكون صادقة، كان هناك جزءٌ منّي قد شكّ بالأمر عندما كنتُ صغيرة"

أطبقت شفتيها عندما انتابتها رغبة مفاجئة بالبكاء. تمكنت من كبحها، لكنّ وجهها ذبل وبات الحزن واضحاً في صوتها رغم ثباته:

"كنت أتألّم جسديّاً ونفسيّاً. فقدتُ ذاكرتي ولم أعرف من أكون وأين أنتمي في هذا العالم. كان الأمر مخيفاً جداً، لكنّه احتواني، اهتمّ بي وأظهر لي

العاطفة والطيبة. عشت في كنفه، كبرت وأنا أحبّه وأتعلّق به كلّ يوم، وكان فضولي نحوه في ازدياد... كنتُ أسأله أسئلة مختلفة عن والدتي، سبب موتها، موقع قبرها، وما إن كنت أشبهها ولماذا لا أشبهه في شيء، وكان هناك صوتٌ في آخر عقلي يخبرني أن أتوقّف قبل أن أكتشف شيئاً قد يحطّمني أو يبعدني عنه!"

تابعت بصوتٍ أكثر اتزانًا: "لم أستطع أن أفكّر بهذا الخيار حتّى، لأنّه كان أكثر إخافة من حقيقة أنّي لا أتذكّر شيئاً قبل سنّ الخامسة، لذا توقفت عن طرح الأسئلة أو التفكير، لأنّ والدي كان ملاذي. كان الكتف الذي أستند عليه عندما تحبطني الحياة، كان الأمان والعائلة... كان كلّ شيء. لا أرى حياتي معه كذبة، بل حقيقة وستظل كذلك للأبد، ولا يمكن لأحدٍ أن يغيّر ذلك،

حتّى أنت"

أغمض فلويد عينيه بعد كلامها، ثمّ فتحهما فهربت دموع صغيرة منهما وهو يسترجع الماضي...:

"كان قد خرج من السجن لتوّه بعد أن سرق أحد المتاجر مع جماعة من اللصوص. طلب منّي أخذه لتناول الطعام أولاً قبل العودة لسندرلاند. انطلقنا في الليل، وقد كانت السماء تمطر بغزارة تُصعّب الرؤية

قدنا ببطء، ولمح توبي دماءً في الطريق. استمرَرنا بالقيادة حتى رأينا يارة تقف جانباً، وكان باب السائق مفتوحاً. أخبرني أن أخفّف السرعة أكثر، وحينها رأينا مراهقاً يهرع بالعودة لسيارته، ونظر إلينا بفزع قبل أن يهرب"

هزّ رأسه وسرح بذكريات تلك الليلة، وكأنّها تُعرَض أمامه، ثمّ تابع: "لم يرتح توبي للأمر أبداً وأمرني أن أتوقف، فامتثلت لذلك على مضض، وشاهدته يترجّل من السيارة تحت المطر. لحقت به لأعيده وأخبره أن نتابع، فقد كنت متوتراً وقلقاً!

أخذ كشّاف الضوء من السيارة وكان ينوي التغلغل بعمق إلى الغابة، ولكنّه توقف عندما رأى شيئاً بين الأشجار... لقد ألقى بك ذلك المراهق هناك وكان رأسك مغطًّى بالدماء وكذلك ملابسك. أدركنا أنّك حيّة بعد أن ارتعش جسدك من البرد. خفتُ وأخبرته أن نرحل حتى لا نقع في مشكلة وذكّرته بالسجن وكلّ ذلك، ولكنّه رفض وشبّ بيننا شجار. قال إنّه لا يستطيع تركك، لذا حملكِ وأخذك للمشفى

أردتُ الرحيل مجدداً ولكنّه أصرّ على البقاء حتى تستيقظي ويعرف قصّتك. فتحتِ عينيكِ بخوف وأوّل كلمة قلتِها له كانت ((بابا)) قبل أن تبكي بحرقة"

مسحت روبي الدموع التي فرت من عينيها بسرعة، ولم تقاطع عمّها الذي تنهّد تنهيدة طويلة وحزينة:

"تعقدت الأمور، ولا أعرف ما الذي كان يجول في رأس أخي، ولكنّه أخذك في النهاية وجلبك إلى منزلي حيث مكث لبعض الوقت وبموافقة من الشرطة حتى يجدوا عائلتك. كنت لا تزالين حزينة ومتألّمة، ولكن مع مرور الأيام بدأتِ تتداخلين مع بناتي، وكان توبي يمرّ بقسم الشرطة بين حين وآخر ليسأل عن المستجدّات، ولم يبلّغ أحدهم عن اختفاء طفلة أو ما يشابه ذلك، وهذا جعلنا نستغرب ونشعر

بالرّيبة" أردف بنظرات جادّة: "وفي إحدى الليالي، طرق رجلان مريبان بابنا باحثين عن أخي بالاسم، فتصرّف بطبيعية وعفوية أمامهما. أراه أحدهما صورتك أولاً، سألاه ما إن كان قد رآك من قبل، وأجاب بكلّ بساطة. كان يعلم أنّهما يختبرانه، فقد قام بتوقيع أوراق المشفى باسمه والشرطة تعلم مسبقاً أنّك معه! تفاجأنا بكونهما يعلمان ذلك، وأظنّهما تقفيا أثركِ في المشفى حتّى وصلا إلى أخي أخيراً"

همست بصوتٍ مرتعش: "وما الذي فعله؟"

فعل ما يجيده، التمثيل والتلاعب. أخبرهما أنّ أحدهم قد أتى قبل يومين وقال إنّه يعرفكِ وأخذك معه، ثمّ عبّر عن مدى راحته وأخذ يثرثر فوق رأسيهما ليصرفهما، لكن واحداً منهما

طلب أن يفتّش المنزل وفتح سترة قميصه قليلاً ليرى توبي السلاح، فتظاهر بالخوف واستمرّ بتقمّص دوره جيداً

دخل الرّجل لغرفة بناتي النائمات، كنتِ منكمشة بجسدك الصغير بين التوءمتين فلم يلاحظك. انتاب القلق أخي وشعر بالخطر بعد رحيلهما، فهما لم يأتيا مع الشرطة وبدا أنّهما يخفيان شيئاً. حلّل الموضوع في رأسه حتى قرّر أن يأخذك خلسةً وينتقل من المدينة... وهكذا"

أطلقت روبي تنهيدة طويلة بصعوبة حبل الثقيل الذي يضغط على صدرها بقسوة، ثمّ قالت بصوتٍ واهن: "فهمت... شكراً لمشاركتي هذه القصة"

"آمل أنّك بخير وبأمان الآن"

زيفت ابتسامة صغيرة: "أنا كذلك..."

تردد فلويد في البداية، ثمّ تشجع ولمس يدها قائلاً: "لقد أحبّك حقّاً يا روبي، وكنتِ ابنته بالفعل. غيّرته وجعلته رجلاً أفضل بكثير، جعلتِه يعطي من كلّ قلبه، وجلبتِ السعادة لحياته! قد لا تشبهينه في الشّكل ولكنّي أراه في تصرّفاتك، وضحكتك أيضاً"

شدّت على يده قليلاً قبل أن تسحب يدها وتقول: "لا أريد أن أبكي يا عم فلويد"

ـدّ بابتسامة معتذراً: "لا بأس" ثمّ هض ليودّعها ويختم هذا اللّقاء: "ودّعي مِيا نيابةً عنّي"

أومأت فقط، ثمّ همّ عمّها بالرّحيل لولا أن استوقفته فجأة: "لا أريد أن أثقل

عليك، ولكن... هل لديك صورٌ له؟ لقد فقدت التي معي عندما انتقلت، وأريد أن تراه مِيا"

"لديّ صور بالطبع"

التقطت هاتفها بسرعة: "هل يمكنك أن تلتقط صوراً وترسلها إلى هاتفي؟ سأعطيك رقمي"

أمسك بيدها والهاتف قائلاً بنبرة حنون: "سأرسلها إلى عنوانك أيضًا، لتحتفظي بها عوضاً عن التي فقدتها"

ابتسمت بامتنان لأوّل مرّة منذ قابلته مجدداً: "شكراً، أقدّر هذا حقّاً"

"هذا أقلّ ما يمكنني فعله"

تبادلا أرقام الهواتف، ثمّ ودّعته بمصافحة قصيرة قبل أن تجلس وتوافيها مِيا بوجهها المتعرّق ووجنتيها الحمراوين، فضحكت روبى برقّة: "ما

الذي حدث لك يا ابنتي؟"

زفرت ميا وهي متحمسة: "لعبت مع الأصدقاء الذين تعرّفت عليهم، تخيلنا أنفسنا في الأدغال. كنتُ مِيا في الأدغال!"

تذكّرت روبي اللقب وابتسمت لابنتها قبل أن تمسح على وجنتيها وتقول: "هل تعلمين أنّي أحبّك؟"

"بالطبع أعلم! وأنتِ تعلمين كم أحبّك أيضاً"

"نعم... أعلم"

***

وبعد نزهة لطيفة وممتعة، عاد بهما لورينزو إلى الفندق، حيث جهّزت روبي الحقائب وكلّ الأغراض استعدادًا للمغادرة، وقامت بحمل الأرنب المحشوّ الكبير ذي اللّون الورديّ الفاتح الذي

أصرّت ميا على شرائه ووضعه بجانبها في السيارة، فلم تملك والدتها خياراً سوى الجلوس في الأمام بجوار لورينزو

قال بنبرة هادئة وهو يحكم حزام أمانه: "هل نسيتما شيئاً؟"

"لا آمل ذلك. تحققت من أغراض ميا ثلاث مرّات"

نظرت روبي إلى يده وهو يدرج موقعاً ما على نظام ملاحة السيارة، وكان عنوان منزلها السّابق، لتبتسم ابتسامة خفية وممتنّة لكونه لم ينسَ خطّة التي وضعتها. أخذت تراقب الشوارع من النافذة وهي متحمّسة، تأمل أن تسمح لها العائلة أو الشخص الذي يمكث في المنزل بدخوله

احتضنتها ذكريات منزلها القديم الذي

كان عالمها رغم ضيق مساحته. كانت غرفتها مسرحها، مقرّ نومها ودراستها، وكان المطبخ الفوضوي حيث يُصنع السّحر ويطبخ فيه والدها طبخة جديدة كلّ مرة، أو يحاول إتقان الذي لم يتقنه سابقاً بينما هي لا تعدّ سوى الأطباق البسيطة لفشلها الذّريع في الطّبخ

وكانت غرفة المعيشة هي السينما الخاصة بهما، إلى جانب كونها غرفة الاعترافات والفضفضة وأحياناً البكاء؛ فقد كان والدها ينام على الأريكة في بعض الأوقات، أو يشتكي من عمله المتعب، وتتذكّر روبي جيداً كيف بكت عندما انفصل عنها أوّل حبيب لها وكيف انتظر رحيل صديقتها ليأتي ومعه الكثير من الشوكولا والحلوى ليواسيها ويعطيها النصائح، ثمّ يتعاونا معاً للانتقام من الصّبي

"أظنّنا وصلنا"

قاطع صوت لورينزو شريط الذكريات، فنظرت خارج النّافذة بحماسة سرعان ما تحوّلت لإحباط عندما لم تجد منزلها، أو أيّ علامة تدلّ على وجوده، وكذلك المنازل المجاورة؛ لقد تمّ هدمها وتحويل المنطقة إلى مجمع سكني حديث

"كان يجب أن أتوقّع ذلك... خسارة"

نظرت للخلف وامتنّت لكون ميا تنام بعمق، ثمّ قال لورينزو: "هل ننطلق؟"

"أجل، فلا شيء هنا، وأعني..." أطبقت شفتيها؛ لم ترغب أن تثرثر وتبرّر، ثمّ قالت: "لننطلق"

استرقت نظرة أخيرة للموقع قبل أن تعدّل جلستها وتنظر إلى الأمام، وحينها سأل لورينزو وهو يستأنف

القيادة: "هل هناك قبر؟"

"ماذا؟"

كرّر سؤاله ببطء وصوتٍ بدا فيه الملل: "هل هناك قبر لوالدك كي تزوريه؟"

نظرت إليه قليلاً قبل أن تجيب: "أنا لا أزور قبر والدي. لم أقبل حتى أن أشاهدهم وهم يدفنونه... هو لا يزال حيّاً في ذاكرتي وقلبي. هذا مكانه، وليس قبراً"

"حسناً"

قالت بعفوية: "شكراً على مبادرتك"

أومأ لورينزو بلا مبالاة فقط، ثمّ انتظر قليلاً قبل أن يسأل: "هل عمّك صالح أم فاسد؟"

"هل سمعت محادثتنا؟"

أجاب بكلّ صراحة: "لم أكن أستمع. كان صوتك عاليًا"

أجفلت روبي قبل أن تفرّ ضحكة ساخرة منها: "ليست أوّل مرة أسمع فيها هذا الكلام" تنهدت تنهيدة مختلطة المشاعر، ثمّ قالت: "العم فلويد رجلٌ صالح، ولكنّه اقترف فعلاً قاسيًا بالنسبة لي. وعد بإخراجي بعد تنظيم أوضاعه، وانتظرته سنة كاملة. كان يراسلني في الأعياد عوضاً عن القدوم لأخذي من الدّار للاحتفال مع العائلة ثمّ إعادتي، وكانت رسائله مختصرة وكذلك مكالماته، لم يكن يتحدّث سوى عن نفسه دون التطرق إلى تفاصيل البقية"

مسحت على ذراعها متابعةً: "أظنّ أنّه لم يرد ذلك خوفاً من أن أتعلّق بهم وأرفض العودة للدّار، أو أغار من الهدايا

التي جمع مالها ليحضرها لبناته. كان يراني عبئًا وربّما كان ذلك رغماً عنه، ربمّا أراد المساعدة لكنّه لم يستطع، ومع ذلك أصابني الحزن، فقد كنت بحاجتهم. كنتُ محطمة ووحيدة، احتجتُ شخصاً ليواسيني، ليخبرني أنّه لن يتركني وأنّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام... ولكن كانت أحزاني وهمومي عبئاً على أحد آخر كما يبدو"

"ألم تجرّبي العيش مع عائلة عندما كنتِ في الدّار؟"

نظرت إليه مجدداً؛ تتعجّب من كونه لأوّل مرة يطيل الحديث معها، ولكنّها أجابته على أيّ حال: "جرّبت ثلاث عوائل. أعادتني الأولى بعد أسبوع ولم يفصحوا عن السبب، وأجبرتني الثانية على العمل كخادمة في المنزل للتنظيف وكيّ الملابس، تحمّلت الأمر

في البداية ولكنّهم تمادوا، لذا غادرت منزلهم"

"والثالثة...؟"

تنهّدت محدقةً بالطريق، ثمّ أجابت: "كان الزوج من العائلة الأخيرة يتحرّش بي بنظراته، وأحياناً يساعدني في غسل الأطباق ليلمس يدي. كان يحوم أمام باب غرفتي في الليل أيضًا، وكانت مسألة وقت حتى يقدم على ما هو أسوأ، لكنّ زوجته منعت ذلك وأعادتني إلى الدّار قائلةً إنّي أؤثّر على مستوى ابنتها الدّراسي"

"ألم تخبريهم بالحقيقة؟"

"فعلت، ولم يكن لدى المديرة شيءٌ لتقوله سوى الاعتذار... وهكذا بقيتُ في الدّار حتى سنّ الثامنة عشرة، ثمّ انطلقت للعالم الخارجي"

أومأ دون أن يبدي الاهتمام، ثمّ قال: "لم أسأل... متى مات والدك بالضبط؟"

"عندما كنتُ في الرابعة عشرة. أخرجني المدير من الحصّة وأخبرني أنّ حادثاً قد وقع في موقع البناء حيث كان يعمل، وأنّه تلقى ضربة قوية على رأسه أنهت حياته على الفور" اهتزّ صوتها قليلاً وفركت يديها ، ثمّ تابعت: "تجمّدت مكاني لحظة سماع الخبر، وبدأ عقلي يتذكر آخر لقاء لنا. لقد أعددت له طعام الإفطار، تحدّثنا، قبّلته قبل ذهابي للمدرسة وعانقني. أخبرته أنّي أحبّه... وكان هذا كلّ شيء. آخر حادثة، آخر عناق وقبلة، وآخر كلمة"

أومأ لورينزو فقط، ثمّ عمّ الصمت الغريب السيارة، لتلتفت روبي إليه وهي تعقد حاجبيها وتشعر بالرّيبة:

"ما الذي يحدث بالضبط؟ لم تتحدث

معي هكذا من قبل"

ردّ بهدوء: "إنّها رحلة طويلة، وأشعر بالنّعاس. انتظري حتّى أجد مكاناً محترماً يبيع قهوة حقيقية ولن تسمعي صوتي. إضافةً إلى ذلك، لقد سألتك أسئلة وتوقعت إجاباتٍ مباشرة ولكنك أسهبتِ بها"

"يا إلهي.." مسحت على ذراعيها: "لقد قشعرت بدني بصراحتك"

"أكره الكذب أكثر من أيّ شيء، وكذلك المفاجآت"

"المفاجآت؟"

"أجل. يمكنكِ أن تقولي إنّها عقدة نفسية لو أردتِ، فلا أهتمّ"

ردّت بنبرة ساخرة: "معك حق في جزء الكذب، ولكن يجب أن تتغلّب على الجزء المتعلّق بالمفاجآت، فالنساء

تحبّ ذلك سواءً لها أو لشريكها... ستبقى عازبًا لفترة طويلة يا لورينزو"

عقد حاجبيه بشكلٍ طفيف: "ومن أخبركِ أنّي أعزب؟"

"ألستَ كذلك؟"

"أنا متزوج منذ ثلاثة عشر عاماً ولديّ ابنتان في السابعة والخامسة"

فتحت فمها بشهقة، وبقيت هكذا حتى استرق نظرة إليها وارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه، فصرخت بهمس: "أنت تبتسم أيضاً؟ آه يا إلهي... أنا مصدومة!"

"يبدو أنّ أندرياس لم يخبرك بهذا"

"لم نتطرق للأمر، ولم أشكّ بشيء، فأنت بجانب الدّون دائماً ولا تضع خاتم زواج، ولم يكن أندرياس يهوى التحدث عنك كثيراً لأنّك تكرهه"

هزّ رأسه مرّة واحدة وبدأ يصحّح لها: "أوّلاً، لست بجانب الدّون طوال الوقت. ثانياً، لا أضع خاتم زواج لأنّي سأخلعه لعملياتي على أيّ حال، وثالثاً... لا أكره أندرياس بل أنا وهو لا نتفق فقط"

"هو يظنّ أنّك تكرهه"

"دعيه... فالتلاعب بذلك الرّجل ممتع"

أطبقت روبي المتعجّبة شفتيها وكتمت ضحكتها، ثمّ سألت عندما توقفوا في إشارة مرورية: "أنت جرّاح قلب إذاً...؟"

"جرّاح قلب وصدر، هذا المسمى الصحيح"

أومأت ملوّحةً بيدها: "حسناً آسفة، لنتابع... أنتَ متزوج أيضاً ولكن أين

زوجتك؟ لماذا لم أرها؟"

"تعيش بين أستراليا والمكسيك"

"أوه..." لمعت عيناها بفضول: "هل يمكنني أن أسأل كيف التقيتما ووقعتما في الحب؟"

أجاب بتململ: "لم نلتقِ ونقع في الحبّ. تزوجتها دون أن أراها بتوقيعي لعقد مع والدها. لقد كان زواج مصلحة بين عائلتينا"

اتسعت عيناها في صدمة أخرى: "حقّاً؟ وكيف الأمور بينكما؟"

ّ ببرود: "هذه خصوصية"

"أعتذر، لم أقصد التطفل! أريد أن أعرف كيف توافقتما بالضبط، فأنتما معاً منذ سنوات طويلة"

"حدث الكثير، ولكنّنا توافقنا

في النهاية"

وجدت ذلك مبهماً فسألت بتردد: "هل تحبّها؟ هل هناك حبّ في هذا الزواج؟"

رمقها بنظرة سريعة فاعتذرت مجدداً، والتزمت الصّمت حتّى توقّف في إحدى المحطّات، وابتاع كوباً من القهوة التي استنشق رائحتها قليلاً قبل أن يتأفّف ويشربها على أيّ حال

"أنتم الإنجليز لا تبرعون بالقهوة بقدر الشّاي"

"لا بدّ أن ذوقك في القهوة رفيع"

"جدّاً."

ضحكت بهمس كي لا توقظ ابنتها، ثمّ قالت: "لقد اكتشفت جوانب وحقائق كثيرة عنك في يوم واحد"

ردّ ببرود: "وهذا كلّ ما ستعرفينه،

فقد شربت قهوتي"

"وستعود للصمت فهمت فهمت... ولكن أخبرني قبل الصّمت عن المكان الذي سنمكث فيه عندما نصل إلى الساحل"

"البيت الزجاجي"

21: ميمو

"مذكرتي العزيزة، أكتب وأنا أشعر أنّي أغرق في اليابسة... لم يراودني هذا الشعور منذ مدة طويلة، وظننت أنّي تخلصت منه أخيراً، لكنّه عاد ليعذّبني، وبين جدران المنزل الزجاجي هذه المرّة

تفاجأت عندما أخبرني لورينزو أنّنا سنمكث هنا، وأنّ هذه هديّة الدّون لِميا، وصُعِقت أكثر عندما أخبرني أنّ مارسيل قد باعه قبل ثلاث سنوات، فقاموا بشرائه والاحتفاظ به. لقد كان شديد التّعلّق بهذا المكان، وبيعه يعني أنّه لا ينوي العودة.. اختفى ولن يعود أبداً!

لم أحزن لإدراكي تلك الحقيقة، لأنّي أعرف مارسيل حقّ المعرفة وتوقعت

ذلك، لكن لا يسَعني سوى أن أشعر بالحزن والشفقة على مِيا التي انبهرت بالمنزل ووقعت في حبّه. استكشفت كلّ ركن فيه بفضول، وراقبت الخارج عبر الزّجاج علّها تلمحه، ما تزال تأمل أنّها ستراه، وأنّه سيأتي من أجلها، ولا أعرف كيف أوضّح لها الحقيقة أكثر دون أن أكسر قلبها البريء

رغبت بالاعتراف لها عدّة مرّات منذ قدومنا لهذا المنزل، حتّى تعذرني ونغادر المكان، لكن كيف لها أن تفهم وتتقبّل ما سأقوله؟ كيف أخبرها أنّي لا أطيق البقاء هنا بعد الذي فعله والدها بي؟ أنّي أشعر بوجوده حولي مثل دخان سامّ يعذّبني ويقتلني ببطء... لن تفهم شيئًا كهذا بعد، حتّى لو تمكنت من ملاحظة مزاجي المضطرب عندما ينزلق قناعي قليلاً دون أن أدرك..

على كلّ حال، استيقظنا مبكراً اليوم وتنفست الصعداء عندما غادرنا المنزل واتّجهنا إلى مطعم هيغنز لتناول الطّعام. لم يتغير كثيراً، لكنّه رحّب بي بحنان وعطف، وشكرني على الهدية التي حرصت ألّا أنساها طوال هذه السّنوات بعد علمي بهوايته المفضّلة. تحدثنا عن أحوالنا قليلاً وسألني ما إن كنتُ سعيدة في المكسيك، لذا أجبته إجابةً صادقة لا أقولها لأيّ أحد لأنّهم قد يغضبون ويستاؤون. أخبرته أنّي ممتنّة لكوني بجوار ابنتي فقط، ما أزال أشعر أنّي لست في موضع ترحيب هناك رغم المعاملة الحسنة التي أتلقّاها... لا أشعر أنّ المكسيك موطني!

لم يعلّق على إجابتي ولم نتطرّق إلى الأمر مجدداً، تناولت الطعام اللذيذ مع ميا وشعرت براحة نفسية قليلاً، لذا

أخذتها لاستكشاف السّاحل وقضاء اليوم كلّه خارجاً وبعيداً عن هذا المنزل قدر المستطاع. أردت التنفس بأريحية دون الشعور بالاختناق، ولكن مع الأسف، اضطررنا للعودة بسبب تحذيرات الأرصاد من عاصفة رعديّة قادمة... كان يجب أن أتوقّع ذلك، فالغيوم داكنة، والرّياح هائجة منذ قدومنا، و—"

توقفت روبي عن الكتابة عندما هتفت مِيا أنّها خائفة مجدداً، ولا تستطيع النّوم بسبب صوت الرّعد العالي والأمطار الغزيرة التي تضرب بزجاج المنزل، لذا أغلقت هاتفها، ثمّ استلقت على الفراش أكثر واحتضنت ابنتها قائلةً: "لا بأس يا عزيزتي، أنتِ لا تخافين من المطر أو الرّعد. هل نسيتِ؟"

أجابت بملامح بريئة ومنزعجة: "لا، ولكنّ صوت الرّعد عالٍ ومخيف هنا. ليس مثل ڤيراكروز"

ضحكت روبي برقّة: "لا يوجد اختلاف ولكن لا بأس، ستنقضي هذا العاصفة بسرعة لذا حاولي النّوم ولا تقاومي النعاس"

"هل يمكنكِ إخباري بقصّة أخرى كي أنسى التفكير بالصوت وأنام بسرعة؟"

تنهدت بتعب: "ستكون هذه رابع قصّة لليلة"

"آسفة"

ضحكت ميا بهمس، وتأمّلت روبي وجهها البريء، ثمّ قالت بصوتٍ ناعم وهي تمسح على رأسها بحنان: "كان يا ما كان في قديم الزمان... سمكة، ذكر، يدعى ميمو"

سخرت ميا من الاسم قائلةً: "مثل نيمو؟"

"أجل... كان ميمو صغيراً جدّاً وبين عائلة لطيفة، وفي أحد الأيّام وبينما كانت عائلته في رحلة، ضلّ طريقه وضاع في المحيط لسنوات"

همست مِيا بصدمة: "سنوات...؟"

أومأت روبي وتابعت: "ثمّ وجده قرش يدعى جاريد. كان سمكة قرش شريرة وقاسية، قام بتربية ميمو ليكون مثله. أجبره على تقليده وممارسة الأعمال السيئة، مثل أذية الأسماك وبقية مخلوقات البحر، ولم يجد ميمو خياراً سوى أن يفعل ذلك"

"لماذا؟"

ازدردت بثقل، ثمّ أجابت: "لأنّ جاريد كان يعامله بقسوة ويعاقبه إن لم ينفّذ

ما يقوله"

قالت بصوتٍ مشفق: "المسكين... وما الذي حدث بعد ذلك؟"

"أصاب مرضٌ خطير جاريد، ومات تاركاً ميمو خلفه"

شهقت بهمس: "حقّاً؟ وما الذي فعله ميمو؟"

"ترك منزل جاريد وبات يجول المحيط وحده. يتساءل عمّا يجب أن يفعله تالياً، ما إن كان يجب عليه أن يستمرّ بالأفعال السيئة، أو يبحث عن عائلته وذاته الحقيقية... وهكذا فقط"

عقدت حاجبيها: "هل هذه النهاية يا ماما؟ إلى أين ذهب ميمو؟"

أجابتها بذهن شارد: "لا أعلم. ربّما لا يزال وحيداً وضائعاً، وربّما لا يزال يؤذي الآخرين... لا أحد يعلم"

زفرت مِيا نفساً طويلاً وهي تفكّر، ثمّ قالت: "أظنّ أنّه سيصبح سمكة صالحة ويجد طريقه إلى عائلته، سيحظى بنهاية سعيدة مثل كلّ القصص"

همست روبي وهي تلمس وجه ابنتها: "قد تفاجئك هذه المعلومة يا عزيزتي... لا تنتهي كلّ القصص بالسّعادة، هناك قصص لا يستطيع السّحر الذي تؤمنين بوجوده أن يغير نهايتها"

تأمّلت ميا وجه والدتها لبرهة طويلة. لم تقتنع بكلماتها بل رفضت تصديقها ايضاً، لإيمانها القويّ أنّ كلّ القصص يجب أن تحظى بنهاية سعيدة، وأنّ أموراً مثل سحر الحبّ والتفاؤل قادرة على تغيير كلّ شيء وأيّ شيء...

***

هدأت العاصفة وانسحبت الرّياح برفقة قطرات المطر. تسللت أشعة الشمس واخترقت الغيوم لتبثّ الدفء بعد ليلة باردة، وأيقظت ميا التي غادرت الفراش لتراقب الشّروق، وترى ما إن كان هناك سيّارة أو أيّ شيء يدلّ على مجيء والدها، لكنّها لمحت شيئاً جعلها تفرك عينيها وتنظر إلى الشاطئ مجدداً بعدم تصديق. شهقت شهقة كبيرة عندما اقتربت لتحصل على رؤية أوضح، ثمّ أسرعت وأيقظت والدتها التي نهضت وهي فزعة، ظنًّا منها أنّهما في خطر، أو أنّ مكروهًا قد أصابها

ـالت وهي تتفقدها: "ما الأمر يا مِيا؟ ما الذي حدث؟ هل أنتِ بخير؟"

قالت بأنفاس متسارعة، وعيناها تعكسان الخوف والصدمة: "أنا بخير ولكنْ... هناك ولد ميت على الشاطئ!"

22: ذو العيون الزرقاء

يقولون إنّ البحر غدّار، وإنّ المحيط مليء بالمفاجآت والعجائب، يجرف الكنوز للشاطئ أحياناً، وأحياناً أخرى يجرف الأجساد...!

***

خرجت روبي بخطواتٍ متسارعة لتتفقد الصّبي الذي جرفه البحر، ولم تصدّق الأمر حتّى بعد رؤيته أمامها. ابتلعت ريقها بتوتر وطلبت من ميا ألا تقترب، لتومئ بطاعة وتقف مكانها، تراقب المشهد بخوف وقلق حتّى تحرّك الصّبي فهتفت بصوتٍ عالٍ: "إنّه حي!"

جثت روبي على الرّمال الرّطبة فوراً، ثمّ قلبت جسده وتأمّلته للحظة. كان وجهه منهكاً وشاحباً، ملابسه رثّة

ومبللة، رأسه ينزف، وهناك كدمات على ذراعيه أيضًا، وكأنّه عاد من معركة شرسة

هزّت كتفيه محاولةً إيقاظه، ثمّ صفعت خدّه بخفّة، وأخيراً نظرت لابنتها وقالت: "اذهبي وأحضري هاتفي بسرعة"

أسرعت ميا دون تردّد، وحينها فتح الصبي عينيه فجأة وانتفض من مكانه فزعاً! تلفت حوله بجنون ودفع روبي وهو يصرخ بصوتٍ جافّ ومبحوح

حاولت تهدئته قائلةً: "لا بأس! لن يك."

لكنّه لم يستمع إليها، بل قام بعضّ يدها والزّحف بثقل مبتعداً عندما أمسكت به مجدداً، لتصرخ صرخة مكتومة وتتراجع إلى الخلف بعد أن

بدأ يقذفها بالطّين وهو يرتجف ويصرخ بكلماتٍ غير مفهومة

رفعت يديها وحاولت التواصل معه مجدداً: "لا بأس، لن أؤذيك! أنت مصاب لذا لا تتحرك كثيراً ودعني أساعدك"

نظر الصبي إلى البحر بذعر ودموعٍ منهمرة، ثمّ لمس رأسه الذي آلمه كثيراً، وبكى منكمشاً على نفسه وعيناه على روبي لخوفه الشديد أن تقترب منه أو تؤذيه

"أعلم أنّك خائف، ولكني أريد مساعدتك لذا ثق بي، أنت بخير هنا"

عادت ميا ومعها هاتف روبي التي قامت بمهاتفة لورينزو على الفور دون إعلامه بالتفاصيل، بينما الصبي يجول بعينيه بينهما بتوتّر وخوف

"إنّ رأسه ينزف يا ماما"

"أعلم، وهو خائف أيضاً" أردفت روبي مخاطبةً الصبي: "ما اسمك؟ هل تفهم لغتي؟" اقتربت خطوة أخرى منه، لينتفض ويصرخ في وجهها وكأنّه يخبرها ألّا تقترب، فقالت: "حسناً، لن أقترب لذا لا تخف. لن نؤذيك"

ولم تمضِ لحظات حتى وصل لورينزو وزاد خوف الصّبي الصغير أكثر، ينظر حوله بحثًا عن مهرب قريب، ولكنّ ساقيه لا تزالان ترتعشان وقواه خائرة ليركض ويختبئ...

كيف وصل إلى هنا يا ترى؟"

"لا بدّ أنّ البحر قد جرفه، ولكن من أين؟" تنهدت: "هل نتصل بالشرطة؟"

تأمل لورينزو الصبي قبل أن يقول ببرود: "لا. سوف نحقق بالأمر، وعلينا

معالجته أولاً"

"ولكنّه يأبى أن يدعنا نقترب منه"

ردّ بجمود واضعاً يده في جيبه: "حاولي محادثته مرة أخيرة"

نظرت روبي إلى الصبي وقالت بصوتٍ ناعم وملامح ليّنة علّها تطمئِنه: "أيّها الصغير، لا أعرف من أنت ولكني أودّ أن أقدّم لك المساعدة. هل تفهمني؟" ثبّت الصبي نظراته عليها، فتابعت: "أنت تنزف. صديقي طبيب وسيعالجك، لذا هيا.. تعال"

مدّت يدها، فصاح الصبي مستنكراً وزحف إلى الخلف، ليزفر لورينزو بضيق ويقترب منه بخطوات حازمة متجاهلاً رعبه

"مهلًا! إنّه خائف يا لورينزو"

لم يكترث لذلك، بل أمسك بالصّبي ثمّ

وجّه له ضربة قوية جعلته يفقد الوعي، لتخرس روبي وميا تماماً وتحدّقا به بأعين مصدومة

حمله بين ذراعيه وقال بهدوء: "سآخذه إلى الطوارئ"

هزّت رأسها لتعود إلى الواقع، ثم قالت بإصرار: "سوف نذهب معك!"

***

فتح الصبي عينيه ببطء وتعب، رمش عدّة مرّات محاولاً إدراك ما حدث وأين هو الآن حتّى تسلّل الذّعر إليه، فنهض بسرعة كي يهرب، ولكنّ يديه كانتا مقيدتين إلى سرير المشفى كما لو أنّه سجين. لهث أنفاسه المتسارعة وحاول سحب يديه حتّى أصابه اليأس وانهمرت دموعه، ثمّ نظر إلى ميا التي تنظر له ببراءة وقلق، ولروبي التي

اقتربت منه بهدوء، وجلست على طرف الفراش ومعها مرآة صغيرة لتريه وجهه

"انظر... لقد عالجوا إصابتك. أنت بخير"

استرق نظرة سريعة إلى المرآة، ثمّ نظر ليديه وحاول تحريرهما مجددًا وهو يئنّ ويهزّ رأسه، حتّى احتضنته برفق وضمّته إلى صدرها في حركة فاجأته

"أرجوك اهدأ" حاول دفعها عنه بضعف، فمسحت على رأسه بلمساتٍ ـه، وقالت بصوتٍ يحمل الحنان: "أنت بأمان فلا تخف... أنا هنا ولن أدع أيّ أحد يؤذيك، لذا أرجوك لا تؤذِ نفسك"

ظلت تردد تلك الكلمات التي تسلّلت

إليه بنجاح حتّى هدأ أخيراً واسترخت عضلاته المشدودة قليلاً، لكنّه ما يزال حذراً؛ ينظر إليها بعينين ملؤهما الشّك والقلق، لا يعلم ما إن كان يستطيع الوثوق بها أم لا

كان الصبي جميل الملامح رغم حالته الرّثة، يبدو بعمر أندريه وقد يكون بطوله أو أطول منه بقليل، شعره أسود كالفحم، لديه نمش بسيط يزين أنفه، وعيناه زرقاوان مثل روبي بالضبط، وكانتا حزينتين جدّاً، وكأنّهما تعكسان ما عايشه

"لا يعجبني هذا" قالت بهدوء مشيرةً بالقيود "سأحرّرك، ولكن أرجوك لا تحاول الهرب أو إيذاء نفسك. اتفقنا؟"

خفض الصّبي بصره وراقب تحريرها ليديه، ثمّ رفع رأسه إليها مجدداً، فمسحت على وجهه بيديها الدافئتين

وسألته ما إن كان يفهمها أم لا. شاهد الرّاحة تغزو عينيها وتتضح في لغة جسدها عندما أومأ بإيماءة خفيفة، ثمّ أومأ مجدداً عندما سألته ما إن كان يشعر بالعطش، وكانت ميا من قامت بإحضار الماء وتقديم المساعدة

انتظرت روبي حتى روى عطشه وأعارها انتباهه، ثمّ قالت: "سأعرّفك بنفسي، اسمي روبي وهذه ابنتي مِيا"

لوّحت له ميا بابتسامة صغيرة مترددّة: "مرحباً"

"وأنت؟ ما اسمك؟"

أشاح بعينيه رافضًا الإجابة أو الحديث، ثمّ تجمّد عندما دخل لورينزو للغرفة ونظر إليه بنظرات متفحّصة وخالية من العاطفة: "هل ما يزال يرفض الكلام؟"

روبي بإشفاق وهي تربّت على يد الصّبي: "مع الأسف، ما يزال تحت تأثير صدمة ما حدث له"

"سنأخذه ونهتمّ به إذاً حتى يتحدّث، لذا..."

صمت لورينزو عندما خاف الصّبي وأمسك بذراع روبي وهو يهزّ رأسه بالرّفض، وكانت نظراته تترجاها ألا تتركه ليذهب معه، مما جعلها تشعر بالشفقة عليه أكثر

"إنّه خائف ولا يريد الذهاب معك. دعني آخذه معنا إلى المنزل. سأهتمّ به وأعلمك بكلّ جديد"

"لست واثقاً باستقرار حالته العقلية، ماذا لو آذاكما؟"

"إنّه مجرّد صبي صغير ومذعور، لن يؤذي أحدًا"

تنهد بتململ: "حسنًا"

***

وقفت روبي بجانب لورينزو في مطبخ البيت الزّجاجي بعد العودة، يتهامسان بصوتٍ خافت حول الصّبي الذي يجلس على الأريكة، يحدّق بالفراغ وكأنّه يرى مشهداً لا يستطيع أحدٌ سواه رؤيته، وبجواره مِيا التي تحاول أن تجد طريقة تجذبه بها، وتدفعه إلى التفاعل والحديث

"هل رأيتَ علامات التعذيب على جسده؟ في أيّ جحيم كان يا ترى؟"

"حاولي جعله يتحدّث فذلك سيفيدنا"

"سأحاول" فتح فمه ليقول شيئاً آخر فسبقته روبي قائلةً: "وسأتصل بك"

مضى لورينزو في طريقه وأغلق

الباب، ثمّ انشغلت روبي بتحضير شطيرتين، بينما ميا ما تزال تبذل ما بوسعها، حتّى ضحكت برقّة عندما التفتَ باتّجاه المطبخ وظلّ يراقب والدتها بصمت كسره صوت معدته الجائعة. أمسكت يده وسحبته معها لمائدة الطّعام، وحالما وضعت والدتها الشطيرة الشهيّة أمامه انقضّ عليها بنهم وأكلها بطريقة فوضوية وسريعة، مثيراً استغراب مِيا التي نظرت إلى والدتها باحثةً عن تفسير

مسح فمه بمعصمه بعد أن أنهى فتات الشطيرة وارتشف الماء جرعةً واحدة، فسألت روبي بابتسامة صغيرة: "هل ما زلت جائعاً؟" خفض بصره في حرج، ثمّ رفعه عندما لمست وجنته وسألت: "هل تحبّ الفواكه؟"

تأمّل وجهها قليلاً قبل أن يومئ مرة

واحدة، وعندها هتفت ميا بحماسة:
"هل سنأكل أرانب التفاح يا ماما؟"

ردّت بابتسامة تواكب حماسها:
"بالطبع. اجلسا وشاهدا التلفاز ريثما أنتهي"

نظرت ميا إلى الصبي وسحبته معها مجدداً حتّى الأريكة، ثمّ أمسكت جهاز التّحكّم وهي تقول: "لنشاهد فيلماً ريثما تعدّ ماما الأرانب لنا. ستعجبك!"

عقد حاجبيه بعدم فهم، ثمّ التقت عيناه بروبي التي تبسّمت له بسرعة، فأشاح ببصره وهو محرج حتّى انضمّت إليهما ومعها طبق فواكه متنوّعة، وشرائح تفّاح على شكل أرانب مع رشّة قرفة، وحينها فهم ما قصدته ميا...

***

وبعد أن استقرّ القمر المضيء في السماء، وحوله النّجوم المتلألئة. عمّ السكون أنحاء المكان إلا من صوت الرياح الخفيفة والموج الذي يغفو على الشاطئ...

قامت روبي بتجهيز الأريكة للصبيّ الصغير كي ينام عليها. وضعت الوسادة بعناية، ثمّ غطّته جيدًا ببطانية ناعمة كي لا يشعر بالبرد، وهمست له بصوتٍ دافئ تطمئنه: "لو احتجت لأيّ شيء فتعال و أيقظني. اتفقنا؟ لن أستاء أو أغضب فلا تقلق أو تتردّد"

أطال التحديق بها، فزفرت بابتسامة ناعمة وهمست: "إنّ ميا محقة، لون عينيك مثلي بالضبط"

لم يقل شيئاً، لكنّه تأمّل عينيها حتى مسحت على رأسه، وتمنّت له أحلاماً سعيدة قبل أن تنصرف إلى ابنتها

وتقصّ على مسامعها قصّة ما قبل النّوم، متعمّدةً رفع صوتها ليصل إليه بعد أن لاحظت مراقبته لهما بفضول، ثمّ نامت ميا، ولم تمض دقائق حتى غلب النعاس روبي أيضاً ولحقت بها، لكنّ نومها لم يدم طويلاً؛ استيقظت في منتصف الليل على صوت أنين الصبي وبكائه المكتوم. أسرعت لتتفقّده بقلق. فوجدته يبكي وهو يحاول تنظيف الأريكة بالمحارم، ثمّ تراجع خطوة كبيرة عندما رآها، خافضاً رأسه في ذلّ، متوتّرًا وخائفًا، يشدّ على ملابسه بدموع منهمرة

مدّت يدها إليه، فتأوّه وحمى نفسه لا إراديّاً، لتنحني أمامه وتهمس: " لا بأس، لن أضربك... هل رأيتَ كابوساً يا ترى؟"

حدّق بتردّد، ثمّ خفض يديه ببطء،

وتنقّلت نظراته بينها وبين الأريكة حتّى قال بصوتٍ هامس ومتقطّع: "آ.. سف"

زفرت روبي وهي تكاد لا تصدّق أنّه نطق بكلمةٍ أخيراً، وسرعان ما انتابها الحزن لأنّ الاعتذار كان أوّل كلماته لها...

"لا بأس، فلم تعجبني الأريكة قط، لكنّ رفيقي السابق كان له رأي مختلف" ابتسمت محاولةً رفع معنوياته: "على كلٍّ، أنا سعيدة أنّك نطقت بكلمة أخيراً، وحزينة أنّ الأمر حدث بهذه الطريقة. لا أريدك أن تقلق فأمورٌ كهذه تحدث ولن أغضب عليك أو أعاقبك... والآن هيا لننظّفك"

أمسكت بيده وأخذته للحمّام، حيث جهّزت الحوض بمياه دافئة وطلبت منه أن يدخله، ثمّ حملت ملابسه

المتسخة وأوصته أن يناديها إن احتاج إلى شيء، وخرجت لتمسح الأريكة التي أعادت لها ذكرى مضحكة وسوداوية في الوقت ذاته. عادت بعد ذلك إلى الصّبيّ الذي كان شعره مبتلاً وغارقًا برغوة الصابون، فكبحت ضحكتها قائلةً: "هل انتهيت؟ لأنّي لا أظنّ ذلك!"

ساعدته بإنهاء حمّامه، ثمّ جفّفت شعره وأخذته معها لخزانة الملابس كي تبحث له عن ثياب أخرى مناسبة ريثما تجفّ ملابسه، وانتهى بها الأمر بإعطائه قميصًا من قمصانها وصل لركبتيه، وبنطالًا قطنيًّا لميا يرتفع عن كاحليه...

تنهدت تلمس جبهتها وهي تتأمّل شكله: "أنا اسفة حقّاً، سأحلّ الأمر غداً فلا تقلق"

نظر إلى الملابس، ثمّ قال بتردّد: "شكراً"

"لا شكر على واجب يا..." سألت بهدوء: "ما اسمك يا صغيري؟" أطبق شفتيه بتحفّظ ورفض الإجابة، فأضافت: "أعلم أنّك لا تثق بي بعد، ولكني أريدك أن تفعل ذلك. أريدك أن تخبرني باسمك وبما حدث معك، وعن الندبات في جسدك. أريد مساعدتك، لكنّي لن أضغط عليك. ستخبرني عندما تكون مستعدّاً وآمل أن يكون ذلك قريباً"

أومأ الصبي فقط، ثمّ احتضنته قليلاً ليشعره بالأمان قبل أن تأخذه معها لغرفة النوم كي ينضمّ إليهما في الفراش. أمسك بطرف قميصها وأشار للأرض فهزّت رأسها رافضةً: "الأرض باردة، والفراش يتسع لثلاثتنا. سأحرّك

ميا قليلاً وسأكون في المنتصف بينكما"

أصدرت ميا النائمة أصواتاً محتجة عندما حرّكتها والدتها، لكنّها هدأت عندما قبّلتها وغطّتها جيداً، ثمّ مدّت يدها للصّبي الذي انضمّ إلى جوارها في الفراش وهو محرج

"سألقي عليك تعويذة ولن ترى كوابيس الليلة" ضحكت ضحكة خافتة: "قد تكون كبيراً على هذا ولكن لا ضرر من المحاولة" لوحت بيدها فوق رأسه وهي تردِّدُ: "يا أحلام سعيدة اقتربي، ويا كوابيس تعيسة ابتعدي"

وأخيراً، طبعت قبلة طويلة على جبينه قبل أن تتمنى له أحلاماً سعيداً، ولأوّل مرة على الإطلاق، نام الصّبي وهو يشعر بالدّفء والأمان...

ولكن إلى متى سيستمرّ هذا الشعور؟ ما هو سرّ الضّبي المثقل بالنّدوب؟ وما الجحيم الذي تمكّن من الهرب منه؟ هل سيظلّ بأمان؟ أم أنّ وجوده هنا قد يجلب الخطر إلى روبي وميا؟

23: رُوبِن

"هل تحدّث؟"

تنهدت روبي ووضعت كوب الشاي جانباً، ثمّ استرقت نظرة إلى الصبي الذي تحاول ميا جذب انتباهه كلّما سرح بالبَحر أمامه وكأنّه يفتّش عن شيء ضائع بين أمواجه. عيناه ذابلتان، وتعابيره تجسّد معنى اليأس والحزن بطريقةٍ تفطر القلب...

"بضع كلمات بسيطة. ما يزال خائفاً ولا يثق بنا ليبوح باسمه وبما حدث معه، سأحاول كسب ثقته أكثر"

"هل تدركين أنّ لدينا طائرة للمكسيك اليوم؟"

ردّت بإحباط: "أعلم"

أضاف بتحفّظ: "سيتولّى رجالنا أمره.

سيكون بأمان معهم حتى نعلم ما حدث له ونعيده لأهله... لو كان لديه أهل"

عضّت على شفتها بتردّد، ثمّ قالت: "كنت أفكّر بأخذه معنا. يمكنك الترتيب لذلك بالتّأكيد، وإن استجدّ شيء فبإمكاننا العودة أو—"

قاطعها بنظرة حادّة: "سيبقى الصّبي هنا"

رفعت روبي صوتها قليلاً باعتراض: "سنبقى معه إذًا!"

"لا أكترث لمشاعر الأمومة والشفقة التي تحملينها. يتوقّع الدّون فيرناندو عودتكما اليوم وهذا ما سيحدث"

"دعني أتحدث إليه. سأخبره عن الصّبي، وأنّه لا يستطيع أن يثق بأحد بسهولة"

ردّ بنبرة حادّة: "لا تحكمي على إمكانيات صبِيٍّ التقيتِ به للتّو لأنّك تعلقت به أو قررتِ جعله مسؤوليتك. سنكسب ثقته ونهتم به، وأنتِ حضّري الحقائب"

خرست لردّه القاسي وتراجعت إلى الخلف مبتعدةً عنه، وبعد لحظات قصيرة، أتى رجلٌ ومعه امرأة ليصطحبا الصّبي معهما فدَبّ الرّعب في قلبه، وتنقلت عيناه الزرقاوان بينهم بحذر حتى اقتربت روبي الحزينة وأمسكت يده، ثمّ قالت: "اسمعني يا صغيري، يصعب قول ذلك ولكن... يتوجّب عليّ الرحيل مع ميا والعودة إلى منزلنا. هذان الاثنان سوف يعتنيان بك، ويساعدانك لـ"

هزّ الصبي رأسه وهو يمسك معصمها بقوّة، عيناه تتوسّلان مجدداً وتزيدان

من ألم روبي التي ضاعت كلماتها، ثمّ اقتربت المرأة وحاولت أن تطمئنه بابتسامة صغيرة: "ستكون بخير معنا، فلا تخف"

تشبّث الصبي بروبي أكثر، وغادرت الكلمات فمه بصعوبة: "أرجوكِ.. لا تدعيهم يأخذونني.. أرجوكِ!" نشج، ثمّ تابع بصوتٍ مختنق: "سأكون مطيعاً. لن أخالفك.. لن.. أبلّل الفراش. مجدداً. آسف."

استسلمت عندما رأت دموعه وضمّته إليها، ثمّ انضمّت ميا إليهما أيضًا حتى توقّف الصبي عن الارتجاف، لكنّه أبى أن يتركها، فنظرت إلى لورينزو بحزم وقالت بنبرة لا تحتمل النقاش: "سآخذه معي، فأخبر الدّون بذلك."

تبادلوا النظرات مع لورينزو الذي تنهد بلا مبالاة وأشار لمعاونيه أن يغادرا، ثمّ

نظر إليهم وقال: "سنغادر خلال ساعة"

أطلقت روبي تنهيدة طويلة عندما رحلوا وشعرت بالرّاحة، ثمّ مسحت دموع الصّبي وهمست: "لا تبكِ.. سنأخذك معنا" نظرت لابنتها: "صحيح يا ميا؟ ما رأيك؟"

أجابت ببراءة: "هو ليس لديه منزل لذا سأشاركه شقّتنا لأنّنا يجب أن نعامل الناس بطيبة كما تقولين يا ماما"

ابتسمت روبي وداعبت خدّها: "هذا صحيح.." ثمّ نظرت للصبي: "سوف نسافر إلى المكسيك، وستبقى معنا إلى أن نجد عائلتك ونعيدَكَ إليهم سالمًا"

خفض الصبي عينيه وأطبق فمه ليمنع كلماته من الخروج، فقفزت ميا أمامه وهتفت: "ألا ترغب بالذهاب؟" ظلّت تقترب منه وتغزو مساحته الشخصية:

"لديّ ألعاب كثيرة، إنّها للفتيات بالطّبع ولكن يمكننا أن نجد لعبة مشتركة، لذا تعال معنا. لن تندم فنحن ممتعون جدّاً!"

استمرّ بالتراجع إلى الخلف وهو ينظر لها بريبة؛ إذ كانت تبتسم ابتسامة عريضة وماكرة، لا يعلم ما نواياها، ثمّ حوّل نظراته لروبي التي طلبت منه أن يرتدي الملابس الجديدة التي جلبها لورينزو، فتملّص من ميا وأسرع بفعل ذلك

"ميا...؟ حاولي ألا تخيفيه اتفقنا؟"

ضحكت ميا ضحكة مشاكسة، ثمّ قالت: "سأحاول"

خرج الصبي بعد لحظات وهو يمسح على ملابسه الجديدة بابتسامة صغيرة، سعيدًا بها وكأنّه لم يرتدِ مثلها في

حياته قطّ، ثمّ نظر إليهما بخجل وانتظر تعليقاً، فصفقت ميا وهتفت: "تناسبك كثيراً! صحيح يا ماما؟"

وافقتها والدتها الرّأي بتعابير مماثلة، لتحمرّ أذنا الصّبي خجلاً ويقول بصوت خافت: "شكراً"

ميا بنبرة فضولية ومرحة: "بما أنّك تتحدّث أخيراً، فما هو اسمك؟ سئمت من مناداتك بالصبي"

عبست ملامحه والتزم الصّمت مجدداً، وعندها قالت روبي: "لديّ فكرة، بما أنّك لا تريد أن تخبرنا باسمك بعد، فسنعطيك اسماً. ما رأيك؟"

"فكرة رائعة!"

قفزت لجانب والدتها التي فكّرت بصوتٍ مسموع وهي تتأمّله: "ماذا يجب أن نطلق عليك يا ترى...؟ ماذا

عن كيني؟ أو مايلز؟"

رفعت ميا سبابتها وكأنّها توصلت لفكرةٍ أروع: "لنسمّه روبن! فلون عينيه مثلك، لذا هو يتشارك معكِ في شيء وأنتِ تحبين هذا الاسم أيضاً يا ماما"

نظرت إليه بابتسامة دافئة: "هذا صحيح. كنت أفكر بهذا الاسم لو أنجبت صبياً... ما رأيك؟ هل نناديك روبن؟"

لانت ملامحه أخيرًا، وبدا مرتاحًا للفكرة وللاسم، فاكتفى بإيماءة بسيطة تعبّر عن قبوله، ثمّ تأمّل سعادة مِيا بردّة فعله، وسعادة روبي بفكرة ابنتها التي احتضنتها وقبّلتها بحب، فشعر أنّه يشاهد مشهدًا غريبًا وغير معتاد، وكأنّه أتى من عالمٍ آخر لا وجود فيه لهذا المشهد الدافئ بين أم وطفلتها...

عاد للجلوس بهدوء إلى جوار ميا، ريثما تحضر روبي الحقائب. لم يهتمّ بالوجهة، بل كان يرغب بالهرب فقط، بعيداً عن الأهوال التي رآها، والخطر الذي كان يطارده... وربّما ما زال يطارده!

***

كان كل شيءٍ غريباً ومفاجئاً بالنسبة إلى روبن... ابتداءً من الطائرة الخاصّة التي توتّر لرؤيتها والصعود على متنها وحتّى الرّجال الذين استقبلوهم بعد الهبوط. أمورٌ رآها في التلفاز أو قرأ عنها فقط، جعلته يشكّ بكون روبي وميا من عائلة ثرية وربّما خطيرة؛ فالرّجال حولهما يبدون أقوياء، مثل لورينزو الذي امتلك هالة أخافته وجعلته يتجنّبه طوال الرّحلة

وفي المجمع، في شقة لورينا.. كان

أندريه قد تجاوز موعد نومه وهو يجلس أمام النّافذة، يراقب مدخل البوّابة كالصّقر منتظرًا عودتهم بنفاد صبر، لتتنهد والدته وتقول: "يمكنك أن ترى ميا غداً يا عزيزي"

"لا! لا أريد الانتظار للغد"

ابتسمت بمكر وسألت: "ما السبب خلف هذا الإصرار يا ترى؟"

اضطرب أندريه مجيبًا: "لا شيء!"
هتف عندما لمحهما: "لقد وصلوا!"

أسرع أندريه بالخروج من الشقة، مستقبلاً روبي التي تسير مع خوليو وتهتمّ بالحقائب معه. ألقى التحية عليها بسرعة وتلهّف لرؤية ميا خلفها، لكنّه تجمّد عندما رآها تضحك وتسير بجوار صبيّ لم يره من قبل

"مرحباً يا أندريه"

عاد من شرود ذهنه المليء بالأسئلة، ثمّ قال بابتسامة متوثرة: "آه مرحباً! كيف كانت رحلتك؟" رفع يده: "أحضرت الحلوى المفضلة لديك"

التقطت الحزمة وشكرته، ثمّ لاحظت نظراته لصديقها الجديد، فتولّت مهمة تقديمه وهي تمسك يده بتملّك: "هذا روبن. وجدناه على الشاطئ وأحضرناه معنا، وهو صديقي أيضاً، يتحدث باللغة الإنجليزية ولا يفهم الإسبانية بعد ولكني سأعلّمه" نظرت إلى روبن وقالت: "هذا أندريه الذي حدّثتك عنه"

حملق الصبيان في بعضهما للحظة، ثمّ تصافحا بهدوء فقط دون قول شيء، وحينها أتت لورينا لترحّب بعودة روبي، ولم تستطع ألّا تسألها عن روبن، فتنهدت بتعب وهمست: "قصة طويلة. سأقصّ عليك كلّ التفاصيل لاحقاً فأنا

متعبة جداً من الرحلة"

أومأت لورينا بتفهّم ومسحت على كتفها، ثمّ تقدّمت ميا وسألت والدتها ما إن كان بإمكانها تناول الحلوى مع روبن، فاتّسعت عينا أندريه وهمّ بالاعتراض؛ فالحلوى لها وحدها، لا لتشاركها مع صبيّ لا يعرفه، لكنّه لم يملك الشجاعة للبوح بذلك. كان ما يزال متعجبًا من أمر روبن الذي ظهر في حياتها فجأة وأسر اهتمامها في وقتٍ قصير. لم يرتح له رغم هدوئه الواضح؛ إذ وجد ذلك الهدوء مريبًا ومزعجًا

"بني...؟ لقد رحلوا، فلماذا تحدّق بالفراغ هكذا؟"

هزّ رأسه دون إجابتها وصعد إلى مسكنهما، ولم يستطع تذوق طعم النوم المريح لانشغال تفكيره بروبن والتهديد

الذي يمثّله، وكأنّه ظهر ليسلبه شيئًا عزيزًا عليه دون سابق إنذار، ومع ذلك، استيقظ مبكرًا وأفزع والدته في المطبخ قائلاً: "أمي! متى ستذهبين لشرب القهوة مع العمة روبي؟"

"لا بدّ أنها ما تزال متعبة من السفر يا عزيزي"

لوّح بيديه بدرامية: "وكيف تعرفين ذلك إن لم تسألي؟ سأذهب وأتفقدهم نيابةً عنكِ!"

"مهلاً... وها قد رحل" همست بضحكة: "مثل والده بالضبط"

اتّجه أندريه إلى شقة ميا بخطواتٍ متردّدة، ثمّ أخذ شهيقاً وأطلق زفيراً متكررًا قبل أن يطرق الباب وترحّب به روبي. وجد ميا على الأرض، تلعب مع روبِن لعبة ثنائية بالجهاز اللوحي،

ويأكلان الحلوى التي أحضرها في الوقت ذاته، فاشتعلت عيناه بغضبٍ طفوليّ وبات الضيق واضحًا على وجهه مهما حاول إخفاءه

"مرحباً أندريه"

"مرحباً.." تبادل النّظرات مع روبن، قبل أن يسأل بفضول: "ماذا تلعبان؟ هوكي؟"

"أجل! وروبن بارع جدّاً. غلبني ثلاث مرات"

"هل أستطيع اللعب؟"

"بالطبع. يمكنكما البدء، وسألعب مع الفائز"

ردّ بنبرة مغرورة: "لا تقلقي، سأفوز وألعب معك بعد قليل"

عدّل روبن الذي لم يرق له أندريه

كذلك جلسته؛ إذ شعر بنفورٍ خفي منه منذ أن رآه، وكأنّ روحيهما تعاندان بعضهما بعضًا أو تخوضان معركة خفية، كما استشعر منه نوعًا من التحدي، فقبله واستعدّ لمواجهته لا شعوريًّا...

وفي هذه الأثناء، فتحت روبي الباب للورينا بابتسامة ترحيب، ثمّ جلستا معًا في ركن غرفة المعيشة، تشربان القهوة وتغوصان في حديث جانبيّ بعيدًا عن أجواء التوتر بين الصبيين اللذين دخلا في منافسة شرسة للفوز بانتباه ميا

همست لورينا بشفقة بعد أن علمت بقصة روبن: "يا له من مسكين..."

"إنّ قلبي ينفطر لحاله حقّاً، وقد تكون عائلته كذلك أيضاً. آمل أن نستطيع فعل شيء"

ارتشفت لورينا من القهوة: "لا تقلقي، سيجد لورينزو حلًّا بالتأكيد"

التفتتا عندما هتفت ميا بين الصبيين بضحكة: "تعادلتما مجددًا!!"

ابتسمت روبي قبل أن تنظر إلى لورينا وترفع حاجبيها: "بالحديث عن لورينزو، اكتشفت أنّه متزوج"

"حقّاً؟ لم يخبرني أندرياس بذلك"

"قال إنّه زواج مصلحة، وأظنّها أسترالية أو شيئًا ما، أي أجنبية"

لورينا بسخرية: "أنتِ أجنبية أيضاً"

قلّبت ناظريها متذمّرةً: "وأتساءل ما إن كانت تتلقى مثل معاملتي، أم أنّي الوحيدة التي يعاملها الدّون هكذا"

أومأت لورينا فقط، ثمّ همست: "احزري من عاود مراسلتي؟ دييغو! لقد

اعتذر عن تصرفاته آخر مرّة، ولكنّي كنت باردة وتصرفت بلا مبالاة"

"ولماذا فعل ذلك باعتقادك؟"

"لا أعلم، ولكني لن أسمح له أن يقترب منّي ما لم يفصح عن نواياه وبشكل واضح"

هزّت روبي رأسها بانبهار، ثمّ رفعت كوبها في تحية: "أحسنتِ!"

تابعتا الشّرب، ثمّ سألتها لورينا بملامح مهتمة بعد استراق نظرة للصغار: "لم يظهر صحيح؟"

أجابت دون اكتراث: "لا... ولا أريده أن يظهر. أعلم أنّ هذا تصرّف أناني منّي تجاه ميا ولكن... لا أعلم" هزّت رأسها دون المتابعة

"ليس تصرفًا أنانيًّا، فأنت تحاولين حمايتها من حقيقةٍ أقوى من كون

جدّها الدّون فيرناندو مينديز، وأنّها من آل كورتيز. شرح الأمر ليس سهلاً، فقد أرهقني أندريه عندما كان يسأل عن الرجال والأسلحة وما إلى ذلك"

"تظنّ ميا أنّ جدها رجل أعمال كبير ولديه أعداء وأناس لحمايته. لا تزال تنظر لجزء صغير من الصورة فقط، ولا أعلم ماذا سيحدث عندما تنضج وتصبح فضولية أكثر"

"لا يمكننا حمايتهما من كلّ شيء يا روبي، يجب أن نكون معهما فقط ونقوم بعملنا كأمهات"

همّت بموافقتها الرّأي لولا مقاطعة أندريه الذي نهض بعد خسارته المحرجة ووصف اللعبة بالمملة، ثمّ عرض على ميا أن يلعبا في الحديقة عوضاً عن ذلك، فتقدمت لتطلب الإذن من والدتها

نظرت لورينا عبر النافذة ونادت: "بنيتو! هل يمكنك مرافقة الأولاد إلى الحديقة؟" أردفت عندما أشار لها بالموافقة: "شكراً، أنت الأفضل"

همست روبي بسخرية: "لا تطريه وإلا فسيحمرّ خجلاً!"

ضحكت لورينا، ثمّ أشارت للصغار بالذهاب. تحرّك أندريه وأمسك يد ميا أولاً ليقود الطريق، فأمسكت بيدها الحرّة روبن مغادرين معاً

جلست على الأرجوحة، ثمّ قالت بإحباط: "آه لا يمكنني دفع نفسي جيداً"

ردّ الصبيان في الوقت ذاته: "سأدفعك"

سبقه أندريه بالنهوض، فأشاح روبن بناظريه بهدوء وتأرجح بمفرده قليلاً،

ثمّ انتظره حتّى عاد للجلوس على أرجوحته قبل أن ينهض ويشير لميا: "الأرجوحة مملة، لنذهب للزّحلوقة الحمراء هناك"

وافقت ميا دون اعتراض وأوقفت أرجوحتها بقدميها، ثمّ نهضت خلف روبن الذي ابتسم لأندريه ابتسامة خفيفة وماكرة، زادت من غضبه ونفوره!

علت ضحكات ميا المستمتعة باللّعب. تجهل الحرب التي تدور حولها، لا تلاحظ نظرات أندريه المحبطة كلّما اختارت روبن أو اقتربَت منه، ولا تلاحظ هجوم روبن المضادّ عليه كلّما حاول سلبها منه، ثمّ توقّف الأوّل عن اللعب فجأة عندما رأى أصدقاءه من المدرسة، فهبط على الفور وتظاهر بفعل شيءٍ آخر. توقفت ميا عن اللعب

أيضاً وأخذت تنظر إليهم فقط، مثل روبن الذي لا يفهم ما يجري بعد

قال أحد الصبية بسخرية: "أندريه؟ هل كنت تلعب مع الصغار بألعاب الأطفال؟"

أجاب باضطراب: "بالطّبع لا، كنت أراقب فقط"

"ومن ذاك الولد؟"

"إنّه صديق لميا وأتى للزيارة"

ضحك أصدقاؤه، ثمّ تحدّث أحدهم مجدداً: "يبدو في مثل عمرنا ويلعب مع الأطفال، يا للسخرية! على كلٍّ، هيا لنلعب بالكرة معاً ودع الصغار يلعبوا هنا"

انطلق أصدقاؤه قبله، ثمّ نظر إلى ميا بوجه المذنب وقال: "يجب أن أذهب. سألعب معك في وقتٍ لاحق."

هتفت ميا بغضب: "لا! لا أريد أن ألعب معك مجدداً أبداً يا أندريه"
نظرت إلى روبن: "لنعد"

"ميا!"

"لا تتبعنا، اذهب وامرح مع أصدقائك الذين تحبّهم"

عادت للفناء مع روبن وهي مغتاظة، لا تكفّ عن التذمّر ونعت أندريه وأصدقائه بالحمقى المتكبّرين، ثمّ ابتهجت عندما رأت أندرياس، وتخلّف روبن ليتأمّلها وهي تركض نحوه، ويتأمّل اندرياس الذي ابتسم بوهن كما لو كان مرهقًا، لكنّه حملها رغم ذلك ودار بها كالأميرة الصغيرة حتّى لا يكسر فرحتها برؤيته

شدّت عناقها حول عنقه قائلةً: "لقد اشتقتُ إليك كثيراً"

"وأنا أيضاً، كيف كانت رحلتك؟"

أنزلها على الأرض، فأجابت بابتسامة عريضة: "رائعة! سأقصّ عليك كلّ شيء"

قرص خدها بلطف: "حسناً ولكن غداً. لأنّي مرهق وسأنام طوال اليوم"

أومأت ميا بتفهّم، ثمّ طبعت قبلة على خده قبل أن تودعه وتعود مع روبن للشقة، حيث أعلمت والدتها بلقائه، لتسأل لورينا باستغراب: "أين أندريه؟"

أجابت بوجه مستاء: "يلعب بالكرة مع أصدقائه" ثمّ نظرت إلى والدتها بملامح لينة: "سنشاهد التلفاز يا ماما"

عقدت روبي حاجبيها بشكوك، ثمّ نظرت إلى لورينا وسألت: "ما الذي يحدث؟"

"مشكلات على الأرجح، فأندرياس

يحرص على المرور وتفقّدي أنا وأندريه بعد عودته من السّفر، وتبدو ميا مستاءة مما يعني أنّ شيئًا قد حدث بينهما في الحديقة" تنهدت بتعب: "يجب أن أرحل، لديّ يوم حافل مع الابن ووالده!"

"أعلميني إن احتجتِ إلى مساعدة"

تبسمت لورينا وأومأت قبل رحيلها، ثمّ التفتت روبي إلى ميا وروبن وتأملتهما للحظة. أرادت أن تسأل عمّا حدث معهما، ولكنّها لم تشأ أن تقاطع اندماجهما مع التلفاز، لذا نهضت ورتبت الطاولة قبل أن تنشغل بالأعمال المنزلية حتّى موعد العشاء الذي ساعدها روبن في تحضيره بما استطاع، خاصةً بعد أن رآها مرهقة قليلاً...

"ماما؟ هل يمكننا مشاهدة فيلم آخر

بعد العشاء؟"

"لا سهر، فسيبدأ ترمك الثاني ويجب أن ينتظم نومك، لذا اذهبي واغسلي أسنانك.. وأنتَ أيضاً يا روبن"

تنهدت ميا بإحباط ونهضت لتنفذ الأوامر، بينما استرقت روبي نظرة من النافذة عندما سمعت ضوضاء مقلقة، لترى لورينا تدفع بأندرياس وتطرده خارجًا وهي تشتاط غضبًا، فتنهدت تنهيدة طويلة، ثمّ أخبرت الصغيرين أنّها ستعود بعد قليل وقصدت شقّة لورينا في الجهة المقابلة

"لن أفتح الباب إلى أن تعود وأنت واعٍ!"

"هذه أنا.. روبي"

زفرت لورينا الغاضبة وفتحت الباب، لتسأل روبي بقلق: "ما الأمر؟ ما الذي

حدث؟"

"إنّه محطم وتحت تأثير شيء ما، يثرثر بأمورٍ غبية وذكر الزواج مجدداً! مما يعني....؟"

تابعت روبي عنها وذكرت السّبب المعروف: "حدث شيءٌ مع إيزابيل"

تأففت لورينا وقالت بازدراء: "لم أقابل هذه المرأة بعد، ولكن إن كان هذا تأثيرها عليه فسأحجز تذكرة طيران وأقتلها ثمّ أعود، وربما أقتل أندرياس معها لأرتاح وهكذا أكون جمعتهما معًا!"

"هذا قاسٍ... لا بدّ أنّه أفقدك صوابك"

"أجل. أكره أندرياس عندما يكون في هذه الحالة!"

سألت روبي بوجه مشفق: "وكيف أندريه؟ هل سمعكما تتشاجران؟"

"إنّه يحبس نفسه في غرفته، وطردت أندرياس قبل أن يتفاقم الأمر. سأذهب وأتحدث معه بعد أن أهدأ قليلاً"

"حسناً، ليلة سعيدة" أمسكت بيدها: "أعلميني لو احتجتِ إلى أي شيء، يمكننا ضرب أندرياس معاً"

ابتسمت لورينا بامتنان رغم أعصابها التالفة، ثمّ ودّعتها روبي ومضت في طريقها عائدةً لشقتها، لكنّها تنهّدت في آخر لحظة وقرّرت التوجّه إلى السطح، لتجده جالسًا على الأرض وبفمه سيجارة غريبة... كما توقّعت

جلست بجواره، ثمّ تأمّلت السماء الدقيقة كاملة قبل أن تقول: "ليس لديَ وقت طويل لأنتظرك حتى تتحدّث من تلقاء نفسك" انتشلت السيجارة من فمه وألقت بها بعيدًا: "واتفقنا أن تقلع عن هذا السّم نهائيًّا من أجل صحتك

فلماذا أصابك الضعف وعدت إليه؟"

تنهد تنهيدة طويلة وفرك وجهه المرهق: "انفصلتُ عن إيزابيل..."

"ولماذا؟ ما الذي حدث؟"

تذمّر بكلماتٍ مغمغمة: " لا تريد ترك حياتها القديمة حتى بعد أن علمت أنّي اشتريتُ الفندق!"

رمشت وهي مصدومة: "اشتريت الفندق؟"

"انخفضت الحجوزات منذ رحيلها، ويبدو أنّ الاستثمار فيه مشروع فاشل، والدّون يحاسبني على ذلك"

وبّخته قائلةً: "الرجال يبتاعون المجوهرات، المنازل، أو السيارات وليس الفنادق! تستحق ما سيفعله بك الدّون يا أندرياس" انتشلت السيجارة الجديدة التي وجدها في جيبه

وقذفتها بعيدًا، ثمّ سألت: "ولماذا فاتحت لورينا بموضوع الزواج مجدداً؟"

تذمّر مجيبًا: "لأنّي محطم ووحيد وأحتاج إلى امرأة بجانبي، وهي والدة ابني وحبّي الأوّل، ولأنّ الدون يريدنا أن نتزوّج"

"يا لك من طفل!" رمقها بنظرة منزعجة قبل أن يعقد ذراعيه ويعبس للفراغ، فقالت: "لا تعبس، فهذه ليست المرة الأولى لك. تعلّم ألا تقع في الحب بسرعة وستجد امرأةً مناسبة في المستقبل"

"لا، لقد اكتفيت من الحبّ والمواعدة والبحث عن المرأة المنشودة! سأعود للعيش على طريقة جورج كلوني وأتزوج عندما أبلغ السبعين"

"لقد تزوج في الخمسينيات، وبعد قصة حبّ مع زوجته"

ردّ باستنقاص: "تمثيل! لم يرد أن يموت وحيداً وبشعر أبيض وبطن كبيرة ولهذا تزوجها"

ضحكت روبي ضحكات مكتومة وتركت الجدال، ثمّ نظرت إلى السماء مجدداً وقالت بنبرة مرحة: "أظنّني سأعود إلى عالم المواعدة قريباً"

نظر إليها بحاجبٍ مرفوع، ثمّ انفجر ضاحكاً: "هل أنتِ جادّة يا سنيوريتا؟"

رفعت ذقنها بغرور: "ولم لا؟ أيحرم عليّ ذلك يا ترى لأنّي أمّ عازبة؟ لدي إمكانيات تمكنني من المواعدة والعودة إلى الساحة!"

"ليس لهذا السبب، ولكنك أم حفيدة الدّون فيرناندو، وهذا سيجعل أيّ رجل

يفكر قبل مواعدتك لا مرتين بل ثلاث مرات!"

"قد يفلح الأمر إن لم يعلم بشأنه"

"وهل تظنين أنّ الدون لن يحقق بأمر الرّجل الذي ستواعدينه وتحضرينه بالقرب من ميا؟"

تأوّهت بانزعاج: "يا إلهي! سأبقى عازبة لبقية حياتي على هذا النحو بسبب الدّون" أردفت بسرعة عندما فتح فمه: "لا تقل أيّ مزحة عن كوني حملت وربطت نفسي بمارسيل ودراما عائلته!"

ردّ بنبرة ساخرة: "لم أكن لأقول ذلك... بتلك الطريقة"

رمقته بنظرة تهديد: "أعلم وأحذّرك!"

قهقه أندرياس بصوتٍ عالٍ: "آي آي.. أحبّك عندما تفهمينني دون قول

شيء"

ضحكا قليلاً بعد، ثمّ تنهدت روبي وأسندت رأسها على كتفه، فرحّب بذلك. أخبرته بكلّ ما حدث في الرّحلة، وعن لورينزو الذي لم يصدّق أنّها انسجمت معه

"لم تخبرني أنّه متزوج"

"لم ألقِ بالاً للموضوع، ولكن نعم حسبما أذكر. لقد زوّجه الدّون فيرناندو بامرأة من أصولٍ أسترالية وإيطالية من أجل المصالح المشتركة. عمّها هو مورينو مايورانو، وهذا أحد أسباب كوننا حلفاء مع المافيا الإيطالية"

"أوه، هذا يعني أنّها ابنة عمّ ذلك المتلاعب ماتِيو... عجباً، الإيطاليون في كلّ مكان في هذا العالم"

"صحيح، الأكثر من حيث العدد

والأقوى أيضاً"

صمتت روبي وشردت بذهنها قليلاً، ثمّ سألت بتردّد وحذر: "ماذا عن... الرّوس؟"

فرك وجهه المرهق مجددًا وأجاب: "البراتقا أقوياء، ولا يتفقون معنا أو مع الإيطاليين"

سألت وهي تحاول ألّا تبدو فضولية: "ولماذا؟"

"هناك عرش واحد ولا يتّسع للجميع، إمّا الإيطاليون أو الرّوس. كلاهما يطمح للسيطرة والقوّة، ولهذا السّبب العلاقات بين الطرفين متوتّرة"

نظر إليها عندما طال صمتها وشردت بذهنها مجدداً، ولو علِمَ بما يدور في رأسها، والحقيقة المتعلّقة بماضي والدتها لصُعِق!

"لماذا تسألين عن ذلك؟"

هزّت كتفها وتصرّفت بعفوية: "مجرّد سؤال عشوائي" حاولت تشتيت انتباهه، لذا سألت سؤالًا آخر تعلم إجابته مسبقاً بعد محادثة مع لورينا قبل سنوات: "ما هي الأعمال التي تقوم عليها إمبراطورية آل كورتيز؟ سمعت أنكم تمارسون كلّ شيءٍ تقريبًا"

انتابه الشّك قليلاً، لكنّه تجاوز الأمر بسرعة ووضّح: "عدا المخدرات وتجارة البشر، فالدّون ضد ذلك وخاصةً المخدرات. نحن حتّى لا نشتريها من الإيطاليين أو نسمح لهم ببيعها في أراضينا"

"وهل هناك سبب لذلك؟"

"مؤكد أنّ هناك سببًا ولكنّي لا أعرفه"

تابع: "على كلٍّ، تقوم هذه الإمبراطورية التي نتحدّث عنها على القهوة، النبيذ، والأسلحة.هذه هي الأسس منذ أجيال، ثمّ تأتي بعد ذلك الأعمال الأخرى"

أومأت مزيفةً الانبهار بعدم معرفتها لذلك مسبقًا: "رائع"

ابتسم بفخر وغرور: "أجل"

امتدّ الصّمت بينهما مجدداً، ثمّ كسرته روبي عندما سألت بهمس: "لو... مات الدون فجأة، فما الذي سيحدث لكلّ هذا؟"

تنهد تنهيدة طويلة مغمضًا عينيه، ثمّ فتحهما ببطء وأجاب: "سوف تستمرّ الأعمال بالطّبع، لكن بالنسبة لي؟ سيكون الأمر مثل خسارة أبي مجدداً، أمّا الجميع فسيكونون محطّمين لا محالة، فالدّون ليس مجرد رئيس بل

أبٌ لنا جميعاً.. نحن عائلة"

رفعت رأسها عن كتفه دون التعليق على ما قاله، ثمّ لمست يده وشدّت عليها قائلةً: "لقد تركت ميا وروبن وحدهما لذا يجدر بي العودة، وأنت عدْ إلى شقتك ولا تنم هنا"

"حسنًا... وشكرًا لك"

ردت بتهكم: "اشكرني بفندق"

غادرت على صوت ضحكته، ثم دخلت إلى شقتها بهدوء لتجد روبن مستيقظًا، فاقتربت ومسحت على شعره وهي تهمس: "لماذا لم تنم بعد؟"

أجاب بوجه خجول وبريء: "كنت أنتظر عودتك بسلام"

ابتسمت بامتنان وحبّ، ثمّ قالت: "هل الأريكة مريحة بشكلٍ كافٍ لك؟ يمكنني أن أجعل ميا تنام معي حتى

تنام على فراشها"

"إنّها مريحة، فلا تقلقي"

"سعيدة لسماع ذلك... تصبح على خير"

***

وفي العاصمة مكسيكو، يجلس لورينزو أمام الدّون في مكتبه للتحدّث عن العمل وتحرّكات آل ريڤيرا التي بدأت تثير الريبة، واحتكاك آل بيرو بهم مجددًا وكأنّهم يجددون التحالف بينهم، ويخططون لأمرٍ ما خطير وربما مميت!

"سنتولى الأمر كالمعتاد أيّها الدّون، فهل لديك أوامر أخرى؟"

نقر على طاولته الخشبية العتيقة، ثمّ قال بنبرة عميقة وجادّة: "أجل... سأقوم بتزويج أندرياس من روبي، لذا

حضّر لذلك"

24: دعوة مفاجئة

في أحد المستودعات المهجورة في إنجلترا...

يترأس تشرشل طاولة الاجتماع مع رجاله، يناقشون العمل والخطوات القادمة بدقّة تفادياً للأخطاء التي ارتكبها أحدهم وحصل على جزائه، إذ كان على الأرض بعد أن سقط عن مقعده إثر الرصاصة التي أنهت حياته دون تردّد!

كان الجميع يحاولون التركيز وادعاء اللا مبالاة، لكنّ أياديهم كانت ترتعش خفيةً، يخشون أن يلاقوا المصير ذاته، لذا أنصتوا، وخططوا بعناية بينما تشرشل يشعل سيجارته ليطرد رائحة الدّماء عن أنفه

قال ببرود مشوّب بالتهدِيد: "لا أريد

أيّ أخطاء أخرى، لا تفقدوا أيّ طفل وإلا فستكون العواقب وخيمة. مفهوم؟"

ردّدوا بصوتٍ واحد: "مفهوم"

نفث سحابة دخانية كبيرة، ثمّ أضاف: "وضعت خطّة بتحركات ومواعيد جديدة. سيحرص عملائي على أن يتمّ كلّ شيءٍ كما أريد، لذا لا تفسدوا عملهم وعملي... والآن اغربوا عن وجهي"

قاد الحارس الشخصي تشيب الرّجال خارجًا، ثمّ التقط تشرشل هاتفه واتّصل بعميلته كوِين التي أجابت على الفور: "سيدي...؟"

"مواقعكم؟"

أجابت بنبرة متزنة وكأنّها تسرد تقريراً عسكريًّا: "يراقب كينغ المزرعة

في أمريكا، ويحضّر دوق لنقل السّلع في البرازيل. ماركيز، إيرل وڤيكونت في مهامهم، وأنا مع بارون الآن"
أردفت: "بالنّسبة لنايت فهو—"

قاطعها قائلاً: "لدَيّ علم بموقع نايت، ضعي البارون على الهاتف"

امتثلت للأمر على الفور، ووضع البارون السّماعة على أذنه منتظراً سيده أن يتحدّث

"ما المستجدات؟"

"كلّ شيءٍ يسير وفق الخطة"

تشرشل بنبرة حادّة: "قلتَ ذلك المرة السابقة" تابع: "طلبتَ منّي تكليفك بهذه المهمّة وأخبرتك أنّها اللعبة الأكبر والأخطر! ماذا قلتَ حينها...؟"

أجاب البارون ببرود: "إنّي أهل لهذه المهمّة، وما أزال كذلك. أحتاج القليل

من الوقت بعد، وسأحضر لك الأطفال وروبي سميث في مقدّمتهم. ستصبح ثريّاً جدّاً يا سيدي"

زفر تشرشل ببطء، لكنّ أعصابه ما تزال مشدودة: "حسناً، سأنتظر ولكن ليس لوقتٍ طويل. لو انقلب الأمر ضدّنا فتعلم مصيرك، صحيح؟"

"أجل"

***

"مذكرتي العزيزة، مضى أسبوع تقريباً منذ عودتنا إلى المكسيك...

عادت ميا إلى روضتها، وعدتُ أنا إلى عملي، وبتّ أصطحب روبن معي. أحياناً يجلس ويراقبني مع الأطفال، وأحياناً أخرى يحاول تقديم المساعدة لي، لكن لم يتقبّله الأطفال لهدوئه وخجله مع الأسف

حاولت أن أرفع من معنوياته وأواسيه عندما لاحظت أنّه تحسّس من الرّفض بعض الشيء، وحاولت سؤاله عن ماضيه مجدداً ولكنّه ما يزال متحفظاً ويأبى البوح بشيء، ولم أرد أن أجرحه وأضغط عليه أكثر

بدأت أشعر بشيء تجاهه... مشاعر أعمق من الشفقة والتعاطف. تقول لورينا إنّ ما أمرّ به مجرد اندفاع عاطفي، وربما تكون محقّة، لكن قلبي يخبرني بعكس ذلك! أرى نفسي فيه كلّما نظرت لعينيه... أرى الفتاة التائهة والمتألمة التي تبحث عن الأمان بيأس، ولا ترغب بأيّ شيء آخر عدا ذلك، وآمل أن أستطيع منحه إيّاه كما فعل والدي من أجلي..."

***

"إنّه يوم الشاطئ!"

هتفت ميا بسعادة كبيرة وهي ترقص أمام روبن الذي لم يفهم أيّ شيء، فنظر إلى روبي التي تملك كلّ الإجابات المتعلقة بها وسألها عن هذا اليوم، لتخبره أنّ يوم الجمعة يسمّى بذلك لأنّهم يذهبون للشاطئ كلّ أسبوع بعد المدرسة، وميا تعشقه بشدة ولا تفوته

"آمل أن ينتهي اليوم الدراسي بسرعة حتّى أقفز في الماء وأسبح حتّى أتعب"

أطبق روبن شفتيه مانعاً الابتسامة الساخرة، بينما ضحكت روبي برقّة وأمسكت بيديهما ليغادروا معاً، ثمّ ودّعت ميا بعناق سريع قبل الاتّجاه إلى الحضانة واستقبال الأطفال بحماسة مثل كلّ يوم، وكأنّها لا تملّ من رؤيتهم أبدًا

وقف روبن في زاوية غرفة الألعاب، يشاهدها تحضّر لمسرحية الدمى التي حكت قصة عن فتًى مشاكس وآخر مهذّب، لتعلّم بعض القيم والسلوكيات للأطفال الذين كانوا يتفاعلون، يضحكون ويصفقون ببراءة. يتساءل كيف لها أن تكون طيبة إلى هذه الدرجة، لا تملّ من التكرار أو الاستماع لثرثرة الأطفال، لا تملّ من طلباتهم الغريبة أو تغضب من المشاكسين الذين يختبرون صبرها، كيف للابتسامة أن تجد طريقها لشفتيها دائماً...

وفي وقتٍ لاحق، خفتت الأضواء وغادرت روبي غرفة القيلولة خلسةً معه، ثمّ تنهّدت تنهيدة طويلة ومرهقة: "تمت المهمة بنجاح"

ابتسم مجاملاً، ثمّ رافقها إلى جناح الرّضع حيث زميلتها التي تستنجد بها

وهي تحمل طفلة رضيعة لا تكفّ عن البكاء، وحالما رأتها أسرعت إليها واشتكت: "لا تحبني! قلدتك ولكن بلا جدوى. ستوقظ الآخرين، وأنا على حافة الانهيار فساعديني أرجوكِ"

ضحكت روبي قائلةً: "هاتي عزيزتي بولين"

حملت الرضيعة برفق وأخذتها لمكانٍ هادئ، ثمّ احتضنتها وتمايلت معها مثل ورقة تراقصها النسمات الرقيقة. همهمت بتهويدة خاصّة، بينما روبن يراقب بتركيز كما لو أنّه يبحث عن معنى هذه اللحظة الحميمة، والتي بثّت في قلبه شعوراً دافئًا ومربكًا في الوقت ذاته

تنفست رائحة الرضيعة بعد أن نامت بسكينة، ثمّ وضعتها في مهدها وهمست له: "أشتاق إلى ميا عندما

كانت في هذا السّن"

"أنت تحبين الرّضع..."

"أحبّ كلّ الأطفال. كان حلمي أن أحظى بأكبر عدد ممكن منهم، وأؤسس عائلة كبيرة"

لم تسهب بالحديث، لكنّه استطاع رؤية شبح الحزن يمرّ من عينيها قبل أن تبتسم وتأخذ بيده ليتناولا الكعك في الخارج، حيث جلسا إلى طاولة وحدهما، وتنعّما بنسمة الهواء اللطيفة...

"الجوّ جميل اليوم، أليس كذلك؟"

"بلى"

"سنحظى بوقتٍ ممتع على الشاطئ، وسأشتري لك ملابس سباحة من أحد البائعين هناك"

ردّ بإحباط خافضاً بصره: "لن أسبح"

تأمّلت روبي وجهه، ثمّ سألت باهتمام: "هل أنت خائف؟ بسبب ما حدث لك؟"

أجاب بنبرة متردّدة: "نوعاً ما"

"هلّا أخبرتني...؟" غزا الحزن عينيه، فخفض رأسه أكثر، لتقول روبي: "لقد هاتفني لورينزو يا روبن، وقال إنّهم حققوا بالأمر، ولم يكن هناك بلاغٌ عن قارب ضاع في البحر بالقرب من المنطقة، أو عن عائلة غرقت. لقد أراد المجيء بنفسه ليتحدث إليك ويسألك ولكني أخبرته ألا يفعل ذلك وأنّي سأتصرّف" أردفت: "نريد أن نعلم ما إن كنت تملك عائلة تبحث عنك، فقد يكونون قلقين عليك حاليًّا"

شدّ على قبضته حتّى برزت عروق يده، ثمّ اختنق بغصّة الحزن وهو

يقول: "لن يبحثوا عنّي.. لقد تخلّصوا منّي لذا لا تسألي عنهم... أرجوك"

تنهدت باستسلام، ثمّ احتضنت وجهه بين يديها وأجبرته أن ينظر لعينيها. ابتسمت ابتسامة مشرقة امتزجت بالشفقة، مثل أشعة الشمس التي تخترق الغيوم الداكنة وقالت بصوتٍ ناعم: "أتعلم؟ أظنّ أنّك ابني ولكن من بعدٍ آخر"

رمش بدهشة، ثمّ سأل باستغراب: "كيف؟"

"لدينا نفس العيون، وبات لديك ندبة في جبهتك مثلي، ونتشارك خوفنا من البحر!"

"هل تخافين من البحر؟"

سحبت يديها وهمّت بالإجابة لولا طنين هاتفها، فاعتذرت مجيبةً

الاتّصال، وراقب روبن الملامح العديدة التي ارتسمت على وجهها حتى ساوره القلق، فسأل: "ما الأمر؟"

"يقولون إنّ ميا لا تشعر أنّها بخير وترغب بالخروج مبكراً. تعال معي لنحضرها"

أومأ روبن وتبعها حتّى بوابة الروضة، حيث المعلمة التي تنتظر بجوار ميا المحبطة، والتي حالما رأت والدتها ركضت إلى حضنها والدموع تنهمر من عينيها

"صغيرتي؟ ما بك؟"

لم تحلّ ميا العناق واستمرت بذرف الدموع والبكاء بصمت، لذا انتظرت روبي قليلاً حتّى أبعدتها بلطف ومسحت دموعها:

"لماذا تبكين يا ميا؟"

نظرت للأرض مجيبةً: "إنّها سيسيل"

تنهدت روبي، وكذلك روبن الذي يعلم قصة ميا وتلك الفتاة جيداً؛ إذ أعلمته بكلّ التفاصيل مسبقًا حتى كرهها دون مقابلتها

"ماذا قالت تلك المشاكسة هذه المرة؟"

مسحت ميا الدمعة على خدّها، ثمّ قالت بصوتٍ متحشرج: "قالت إنّ بابا مزيّف و ليس أباً حقيقيّاً لأنّه لم يأتِ إلى حفلاتي أو أنشطتي الصفية ولم يجلب لي الهدايا، وسخرت منّي أمام الجميع!"

تمسّكت روبي بهدوئها وكبحت الغضب الثائر داخلها، ثمّ أمسكت بيدي ابنتها قائلةً: "هذا ليس صحيحاً، فوالدك حقيقي وليس مزيفاً. هو في

رحلة عمل فقط، وسيسيل هذه كاذبة ولا تفقه شيئاً!"

"وهل عمله أهمّ منّي؟ لماذا لا يأتي لرؤيتي يا ماما؟ لماذا لا يرسل رسالة على الأقلّ؟"

خرست روبي أمام هذه الأسئلة وشعرت بانقباض قلبها، ثمّ مسحت على كتفي ابنتها بارتعاش طفيف وقالت محاولةً رفع معنوياتها: "دعينا لا نتحدث عن هذا اليوم، فسنذهب للشاطئ! سأطلب الإذن من مديرتي وسنذهب الآن"

ردّت ميا بوجه محبط: "لا أشعر برغبة بالذهاب"

أصرّت روبي بنبرة مرحة: "هذا يومنا ويجب أن نذهب، كما أنّ روبن معنا وسيحظى ثلاثتنا بوقتٍ ممتع،

صدقيني! ادخلا وانتظراني حتى أنتهي من التحدث مع المديرة"

جلس روبن بجوار ميا المكتئبة في زاوية هادئة داخل الحضانة، حيث تسلّلت أشعة الشمس عبر النوافذ الكبيرة وانعكست على الأرضية الملوّنة وحقيبة ظهرها المزركشة التي تركتها على الأرض بإهمال. تأمّل صور الحيوانات الكرتونية على الجدار دون قول شيء، حتّى سألته ميا بهمس: "هل لديك أب وأمّ؟"

حدّق بوجهها البريء، ثمّ أجاب بهدوء: "بالطّبع"

"وأين هما؟"

"لا أعلم"

شهقت بحزن: "هل هما ميتان؟"

"ربّما، وربّما لا" زفر بعد اكتفائه من

الأسئلة التي لا يملك لها إجابة دقيقة ونهض عن مقعده، ثمّ قال: "سأحضر زجاجة ماء من البرّاد. هل تريدين؟"

أومأت ميا لا أكثر، ثمّ التفت روبن ومضى في الممر حتى استوقفه صوت بكاءٍ مكتوم، فاختبأ واقترب بحذر ليرى روبي وظهرها المنحني للأمام، تطبق يدها على فمها خشية أن يسمعها أحد، وتهزّ رأسها وكأنّها تحاول منع نفسها من البكاء، أو طرد الأفكار المؤلمة!

كان روبن يدرك أنّ جميع البشر معرضون للحظات الضعف والانكسار، وشهِدَ انكسار الكثير منهم من قبل دون أن يتأثّر، لكنّ انكسار روبي أثار حزنه وقبض على قلبه؛ رأى في انحناءة ظهرها وفي كتمها للبكاء وجعًا يعرفه جيّدًا، وجعًا قد عاشه من قبل حتى

بات جزءًا منه، كوّن شخصيته وجعله هادئًا وانطوائيًا، لا يظهر مشاعره للآخرين...

استمرّ بمراقبتها حتّى أخذت شهيقاً وأطلقت زفيراً عدّة مرّات، ثمّ مسحت وجهها جيداً ورسمت الابتسامة والوجه المرح قبل العودة لابنتها الوحيدة، والسؤال عن مكانه، فأتى من خلفها بخفّة، ورفع زجاجتي الماء قائلاً: "ذهبتُ لإحضار الماء"

أومأت بفهم، ثمّ قالت بابتسامة متحمسة: "لقد سمحت لي المديرة بالخروج مبكراً، فهل أنتما جاهزان؟"

نظرت إلى ابنتها بلهفة، تنتظر أيَ ابتسامة ولو كانت صغيرة، ثمّ زفرت بارتياح عندما أومأت ميا بطيف ابتسامة صغيرة، ورأت بصيص أملٍ في إعادة الحيوية إليها ...

****

عادوا إلى المنزل أولًا، وسارعت روبي بتحضير الحقيبة وبعض الوجبات الخفيفة ليتشاركوها، ثم انطلقوا برفقة بنيتو الذي أوصلهم إلى الشاطئ المكتظّ بالنّاس، حيث توقفوا عند كشكٍ صغير لشراء الملابس، واختارت لباسًا كاملًا لروبن، يغطي جسده ويستر ندباته التي يخجل منها، مما جعله يشعر بامتنانٍ لم يعرف كيف يعبّر عنه

وضعت الحقيبة على الرّمال، ثمّ مدّت المفرش الذي سيجلسون عليه بمساعدته، وحينها تجمّد مكانه فجأة عندما رأى الندبة الكبيرة والمخيفة على فخذها، فتبعت أنظاره باستغراب قبل أن تغطّي جسدها برداء البحر الحريريّ وتقول: "تأذيت في حادث قبل سنوات"

عقدت حاجبيها قليلاً: "وهل فعلت هذا من قبل؟ هل قتلت شعورًا؟"

فتح فمه ليجيبها قبل أن تباغته ضربة من تيّار ماءٍ بارد، فضحكت ميا المندهشة، والتفتا ليجدا روبي تمسك بمسدس مائي كبير وعلى وجهها ابتسامة ماكرة

"الجوّ بديع، ولن أسمح لكما بالجلوس هكذا دون فعل شيء"

ألقت بسلاحين مائيين أمامهما، ثمّ تراجعت للخلف وحضّرت نفسها وهي تضحك ضحكة شريرة وتهدّد بالقضاء عليهما إن لم يستعدّا بسرعة، فصرخت ميا الضاحكة وهي تلتقط المسدس، بينما تردّدت يد روبن المتعجب للحظة حتى سحبته معها وبدأت المعركة

تآمر الصغيران معًا، ثمّ انطلقا نحو

روبي كفريق واحد. يضحكان ويطلقان الماء بلا توقف حتّى تبللت تماماً، وعلت ضحكاتها وسط صرخات النصر، ثمّ ركضوا مجددًا على الرمال الرطبة التي التصقت بأقدامهم حتى انقطعت أنفاسهم، تناثرت المياه في كل مكان، وتعالت أصوات ضحكاتهم الجميلة لتملأ أرجاء الشاطئ وتجذب الأنظار المتعدّدة، والتي كان أحدها سبباً في توقّف روبي المفاجئ للحظة قصيرة تلفّتت فيها حولها بحذر!

همست لنفسها: "ما الذي أفعله؟ لا يوجد أحد مريب هنا"

شهقت عندما شعرت بضربة مائية على وجهها، وسعلت قليلاً معلنةً الاستسلام، لتقفز ميا بسعادة وتحتضن روبن الذي ضحك بسعادةٍ أيضًا...

***

استرخت روبي في مكانها بينما الصغيران يلعبان بالقرب منها، وبينما كانت منسجمة في القراءة، أتاها صوت أندرياس الساخر: "ستبتلع الرواية رأسكِ في أيّ لحظةٍ فارحميه!"

استلقى بجوارها فأغلقت الكتاب وضربته به قائلةً: "ليس من شأنك"

رفع حاجبيه مهددًا: "لا تضربي"

ردّت باستهزاء: "وما الذي ستفعله؟"

قلّب ناظريه ومدّ يده لتناول شطيرة من الشطائر التي حضّرتها، ثمّ قال بفمٍ ممتلئ: "هل تحاولين قتل الصغيرين؟ تحتاجين إلى دروس مكثفة في الطبخ بحقّ يا سنيوريتا"

"لا تأكل طعامي إذاً"

"أنا جائع جدًّا وسآكل أيّ شيء"

"اقتليه.."

نظرت إليه باستغراب: "ماذا؟"

ردّ محدقاً بالبحر وكأنّه يرى شيئاً لا تراه: "اقتلي ذلك الشعور السيئ ولا تدعيه يتمكن منك"

قالت ببراءة: "أقتله؟ لكنّي لست مجرمة، ولا أودّ أن أصبح كذلك!"

فرّت ضحكة خفيفة منه، ثمّ نظر إليها وقال بنبرة ساخرة: "لا تملك المشاعر روحاً مثل البشر لذا لن تصبحي مجرمة يا ميا"

سألت بفضول: "كيف أقتل شعوراً إذًا؟"

"بالتجاهل ثمّ النسيان. تجاهلي سيسيل وكلامها، ومع الوقت ستنسين لماذا انزعجت منها أصلاً"

اضطرب وجهه واحمرّت أذناه، فقال بإحراج: "أعتذر، لم أقصد أن أطيل النظر أو أتطفل"

ضحكت ضحكة خافتة وتجاهلت الأمر، ثمّ التقطت واقي الشمس والتفتت لابنتها التي تنظر لموضع قدميها والرمال التي تغطيها فقط. طلبت منها الاقتراب ففعلت ذلك بخطوات بطيئة يملؤها الإحباط والحزن اللذان قضت والدتها عليهما عندما بدأت بدغدغة جسدها وإرغامها على الضّحك

ضحكت ميا رغماً عنها واحتجت: "توقفي!"

ادعت روبي البراءة قائلةً: "أنا أدهن واقي الشمس فقط"

"وتجعليننني أضحك!"

"حسناً حسناً، أنا آسفة" نظرت إلى روبن: "تعال.. دورك"

دهنت روبي المادّة على ما كُشِف من جسده، ثمّ مسحت على وجهه وابتسمت بحنان جعل صدره يثقل بمشاعر لا يعرف لها اسماً قبل أن تلتفت لابنتها التي عادت للتجهم، فقررت النهوض لإحضار شيء قد يبدّل مزاجها...

جلس روبن إلى جوار ميا، يتأمّل الأهالي الذين يضحكون ويلعبون على الشاطئ بشيءٍ من الفضول، ثمّ نظر إليها وسأل: "تحاول والدتكِ إبهاجك، فلماذا ما تزالين محبطة؟"

تنهدت ميا وكأنّها تحمل عبئاً أكبر منها: "إنّه شعور لا يقبل أن يزول. أريد أن ألعب وأبتهج، ولكني لا أزال أسمع كلام سيسيل الغبية في أذني"

سكبت له العصير، ثمّ سألت: "هل اعتذرت إلى لورينا؟"

تذمّر مجيبًا: "أجل، وكلّفني ذلك محاضرة طويلة وخاتماً ثمينًا. ستقودني تلك المرأة للإفلاس!"

علّقت بنبرة ساخرة: "ظننتك أفلست بعد شراء الفندق. لأيّ درجة أنت غني؟"

رفع سبابته قائلاً: "لن أخبرك، فإحدى وصايا أبي ألّا أخبر امرأة كم أملك من مال في حسابي بالضبط"

"كان والدك رجلاً حكيماً وصاحب نصائح كثيرة، ولكنّه لم يعرف لورينا"

أومأ يوافقها الرأي، ثمّ قال: "لقد خطرت ببالي فكرة بعد شراء الخاتم ولكي أتجنّب الخسائر المستقبلية. يجب أن أعثر لها على رجل لتواعده

وتنشغل به وربما تتزوجه، وعندها لن تطلب منّي سوى هدِيّة الأمومة السنوية، ولا تسأليني ما هي فقد ابتكرتها بنفسها ولا حقّ لي في الاعتراض"

ابتسمت بسخرية، ثمّ التقطت هاتفها قائلةً: "على ذكر ذلك، لقد أنشأت حساباً على أحد تطبيقات المواعدة. انظر إلى ملفي وأخبرني ما رأيك"

أخذ هاتفها وقرأ ما كتبته بصوتٍ مسموع: "أم، حاضنة أطفال، أحبّ الشوكولا والقراءة... فهل تنضمّ إليّ؟"

سألت بتلهّف: "ما رأيك؟"

"هذا أسوأ تعريف قرأته في حياتي! وما هذا الاقتباس الذي وضعته؟ ((عندما تمنح الحب فأنت الرّابح دائمًا)) هل تؤمنين بهذه المقولة التي لا

أعلم من قالها حقّاً؟ إنّها كذبة.. انظري إليّ وخذيني كأكبر دليل. منحت الحبّ لأربع نساء ولا أرى ربحاً" رفع يده: "لو استثنينا ابني"

زفرت بانزعاج وانتشلت هاتفها قائلةً: "لم أقتنع بها أيضاً ولكنّها أعجبت الكثيرين"

"هذه ليست لأمثالنا يا عزيزتي، فأنتِ أيضاً منحت الحبّ لذلك اللعين، وماذا ربحتِ؟"

ردّت بعد أن عبس وجهها: "لا شيء سوى الكذب والدموع.." أشارت تقلّده: "لو استثنينا ميا"

تنهّدا في الوقت ذاته بعد لحظة صمت تذكّرا فيها الماضي، ثمّ ابتسما لبعضهما حتّى نبّهته إلى وجود حبيبات الرّمل على شعره، فهزّ رأسه مثيراً

ضحكاتها

"لست كلباً أيّها الأحمق"

خلخلت أصابعها في شعره الكثيف لتزيل الرّمال التي علقت به، فأغمض عينيه باسترخاء، وانتظرها حتّى انتهت وصفعت خدّه بلطف:

"لا تنم هنا فأنت تشغل حيزاً كبيراً"

أمسك معصمها مهدّداً بعفوية: "ماذا قلت عن الضرب؟"

قلّبت ناظريها قائلةً: "حسناً، أنا آسفة"

جلس وأدار ظهره لها مستغلًّا الموقف: "سأسامحك لو دلّكت كتفيّ"

وضعت يديها على كتفيه باستسلام وبدأت تدلّكه، ثمّ نظرت باتّجاه روبن وميا التي نادتها لترى القلعة الصغيرة التي عملا على بنائها معاً، وقبل أن

يتسنّى لها أن تطلب منها الهاتف لتصورها، أتى صبيٌّ يدعى ماني، وكان الشقيق الأكبر لسيسيل وقائد مجموعة الفتيان المتكبّرين الذين من ضمنهم أندريه، وسخر منهما

"يا لها من قلعة بشعة!"

تنهد أندريه وتقدم خطوة قائلاً: "لنتركهما يا ماني"

"ليس بعد" رمق روبن بنظراته ثمّ سأل: "كم عمرك؟ هل تفهم الإسبانية؟"

ردّ روبن ببرود عندما كرّر ماني سؤاله بلغة مفهومة: "عشرة أعوام"

ماني باستهزاء: "وتلعب مع فتاة صغيرة؟"

ضحك أصدقاؤه خلفه، عدا أندريه الذي كان ينظر إلى ميا الغاضبة بوجه حزين ينهشه الذّنب، وحينها قالت

روبي: "سأذهب إليهم وأسمع ما يقولون. أكره ذلك الفتى وأخته وكلّ العائلة!"

ثبّتها خلفه قائلاً: "لا يا سنيوريتا. لن نتدخل الآن. دعي الأطفال يسووا ما بينهم"

تأففت روبي واستمرت بالمراقبة، ثمّ ردّ روبن بهدوء مجدداً: "وهل هناك مشكلة في كوني ألعب مع فتاة أصغر منّي؟"

"الفتيان لا يفترض بهم اللعب مع الفتيات الأصغر منهم سنًّا بأعوام كثيرة. لا تزال في الروضة"

"ما أزال لا أرى المشكلة، فكلّنا أطفال"

اعترض ماني بازدراء: "غير صحيح، نحن صبية صغار ولسنا أطفالاً يا هذا!"

هتف بامتعاض: "ماذا قلت؟"

رفع روبن كتفيه بتهكّم: "والآن أنت أصمّ..رائع"

تقدّم ماني خطوة للأمام محاولاً إخافة روبن الذي لم يتزحزح من مكانه، وخلفه ميا التي تشدّ على ملابسه وهي تراقب ما يحدث بتوتّر

"أنا لست جاهلاً أو غبيّاً أيّها المخنّث الذي يلعب مع الفتيات!"

شهق من حوله لكونه قال كلمة سيئة وممنوعة لمن هم في سنّه، لكنّ روبن ابتسم بسخرية فقط وقال: "بل أنت كذلك، لأنّك لو كنت ذكيّاً فسوف تكون ملمًّا بأنّ كلمة أطفال تُطلق على الذين تتراوح أعمارهم من العام حتى أحد عشر عاماً، وفي بعض الدّول حتى سنّ الثامنة عشرة..

لم تعرف لأنّك لا تقرأ ولست ذكيّاً، وهل تعلم ماذا تكون أيضاً إلى جانب كلّ تلك الصفات؟ طفلًا يتباهى بالعنف واللسان السليط. كسبت مكانة بين الأغبياء أمثالك الذين يظنون أنّك قويّ بينما أنت ضعيف الشخصية، والدّليل هو أنّك لا تتنمّر سوى على من هم أصغر منك ولا تمشي إلّا مع جماعتك"

انزعج ماني وتفاجأ من حوله بردّ روبن، أمّا ميا فقد ضحكت وتشجعت لتهتف في وجوههم وتأمرهم بالابتعاد، فاغتاظ المتنمّر أكثر وهتف: "لن نضيع الوقت معكما يا غريبي الأطوار، وهذا ما تستحقه قلعتكما!"

داس ماني الغاضب على القلعة ودمّرها، ثمّ أمسك بسلة الأصداف التي جمعتها ميا ونثرها على كومة الرّمال، لتدمع عيناها بحزن شديد دفع أندريه

للتقدّم والوقوف في وجهه أخيرًا:

"اعتذر إليها فورًا!"

"لن أعتذر إلى أحد!" رمقه بنظرة استعلاء: "وهل قررت أن تأخذ صفهما فجأة؟"

ردّ أندريه بوجه غاضب: "ميا صديقتي ونحن عائلة! وأنت متكبر بغيض، ولن أسمح لك بإيذائها أو السخرية منها مجدداً"

ضحك ماني ساخرًا من تهديده، ثمّ نظر إلى ميا وقال: "أنتِ فتاة قبيحة والدها!" حوّل نظراته لأندريه: "ما الذي ستفعله الآن؟"

وقبل أن يتسنّى له قول شيء، قام روبن بقذف سلة الأصداف على وجه ماني مباشرةً! لم يسبب ضربة خطيرة ولكنها كانت موجعة وجعلته يتراجع،

لينقضّ عليه أندريه ويشتبك معه في عراك انضمّ إليه روبن كذلك ليعترض أصدقاءه الذين يرغبون بمعاونة ماني

"والآن يجب أن نتدخل يا سنيوريتا!"

نهضت معه وأسرعا لفكّ اشتباك الأطفال. قامت بسحب روبن بينما سحب هو ابنه، وأتى شقيق ماني الأكبر ليسحب شقيقه ويستمع إلى محاضرة أندرياس التي شملتهم جميعًا قبل أن يتفرقوا

[illegible] لابنه وتبادلا النظرات قليلاً قبل أن يرفع كفّه ويقول: "كان هذا عراكاً جيدًا. كدت تفوز"

زفر أندريه بابتسامة صغيرة وضرب كفّ والده، لتتنهد روبي وتهزّ رأسها باستسلام ثمّ تسحب صغيريها معها:

"هيا بنا إلى المنزل"

***

جلست ميا بجوار روبن في غرفتها، ريثما والدتها تتفقد الطّرد الذي وصلها. فتحت صندوقها الخشبيّ المزيّن بملصقات متنوعة عن البحار والمخلوقات البحريّة، وبدأت ترتب الأصداف والقواقع التي جمعتها اليوم بسعادة، ثمّ التقطت صدفة مميزة، ذات لون عاجيّ وخطوط وردية باهتة وقدمتها إلى روبن بكلّ امتنان

قالت بابتسامة: "هذه صدفتي المفضلة... وأريدك أن تحظى بها كعربون شكر"

"لم أفعل شيئاً يذكر"

"بلى فعلت. لقد دافعت عنّي مثل أخٍ كبير"

في تلك اللحظة، شعر روبن بدفء غريب يتسرّب إلى قلبه؛ إذ كانت أوّل مرّة يتلقى فيها هدية، وليس أيّ هدية، بل واحدة تحمل تقديرًا ومكانة في قلب أحدهم

"هل أنت واثقة من قرارك؟"

أومأت بابتسامة عريضة، ليتأمّل روبن الصدفة قبل وضعها في جيبه، ثمّ سمعا صوت روبي وهي تناديهما فأجابا النّداء، وجلسا على الأريكة كما طلبت منهما. تبيّن له أنّ شخصاً يدعى فلويد قد أرسل صندوقاً يحتوي على صور ديمة لروبي ووالدها، مع متعلقاتٍ أخرى فضّل أن تمتلكها عوضًا عنه

"انظري يا ميا. هذا جدّك توبي، وهذه أنا"

تأمّلت ميا الصورة بفم مفتوح: "لديه

ابتسامة جميلة مثلكِ تماماً، وهو يبدو طيباً ومرحاً"

"لقد كان كذلك وأكثر.." التفتت إلى روبن وأرته صورة أخرى: "هذه أنا عندما كنت بعمرك تقريباً"

تأمّل الصورة مليّاً، ثمّ راقب روبي وهي تريهما صوراً أخرى ومجموعة من التحف الخزفية التي جمعها والدها. لقد كانت تمسك كل صورة وكأنّها كنز، تقصّ قصص التقاطها ثمّ تتأمّلها باشتياق وحنين كما لو كانت تتمنّى العودة إلى تلك الأيّام...

"ماذا عن والدتك؟ لماذا ليس لديك صورٌ معها؟"

باغتها سؤاله، لكنّها رسمت الابتسامة وأخبرته أنّها توفيت فور ولادتها ولا تملك أيّ صورة لها، ثمّ شتّتت انتباههما

بإحدى التحف، وحكت قصّة طريفة عنها حتّى وصلت البيتزا التي طلبوها للعشاء، فقالت ميا: "هل يمكنني دعوة أندريه لتناول البيتزا معنا؟ فهو يحبّها"

"بالطبع يمكنكِ. اذهبي واستأذني والدته أيضاً"

خرجت ميا من الشقة بخطوات متلهفة، وراقبتها روبي من النّافذة حتى وصلت وطرقت باب لورينا، ليفتح أندريه الباب ويتفاجأ لرؤيتها

"أحضرنا البيتزا، فهل ترغب بتناولها معنا؟"

سأل بتوتّر: "هل هذا يعني أنّك تسامحينني؟"

ابتسمت بلِين: "لقد اعتذرت ودافعت عنّي اليوم مع روبن، وتقول ماما إنّ العائلة مهمة ويجب أن لا نغضب من

بعضنا "

ابتسم أندريه بسعادة وخجل: "حسناً سآتي"

"يجب أن نعلم العمة لورينا"

أغلق الباب خلفه قائلاً: "لا عليكِ، فهي في شقة أبي"

***

رحّبت روبي به وطلبت منه الجلوس، ففعل ذلك بأدب وتبادل الإيماءة الصامتة مع روبن فقط، ثمّ شرعوا بتناول البيتزا ومشاهدة التلفاز بينما هي تتراسل مع أحد الأهالي عن حالة طفلهم، وتأكل في الوقت ذاته حتّى كادت تختنق بلقمتها عندما رأت إشعار رسالة من لورينزو

عرضت رسالته لترى دعوة إلكترونية جميلة التصميم لحفلة ما، فقرأت

بهمس: "يسرّ السيد فيرناندو مينديز، دعوتكم لحفلة خطوبة كلٍّ من أندرياس غارسيا و... روبي سميث؟"

لوهلة، ظنّت أنّ هناك امرأة أخرى تحمل اسمها، ولوهلة أخرى ظنّت أنّهم أخطؤوا في كتابة الاسم، حتّى صفعها الواقع صفعةً قوية جعلتها تتجمّد مكانها وهي مصعوقة! خرجت من شقتها على الفور مثيرة قلق الصغار، ثمّ رأت أندرياس المصدوم يخرج من شقته أيضاً، وخلفه لورينا التي فقدت كلّ كلماتها لهذه المفاجأة الكبيرة

فرت روبي أنفاسها بصعوبة عندما قرأت وجهه، ثمّ قالت من بين أسنانها المطبقة: "أخبرني أنّ هذه مزحة"

فقد كلماته في البداية، بدا مشوشاً ولا يعلم ماذا يجري بالضبط، ثمّ قال: "أظنّ أنّ هذا حقيقي"

صرخت في وجهه بانفعال: "هل كنت تعلم؟"

"لا! أقسم لك"

تجمهر الصغار عند الباب بعد الصراخ الذي سمعوه، وكذلك بعض الجيران الذين لم تكترث لهم روبي؛ إذ كانت ثائرة مثل بركان، تمسك رأسها وتدور في حلقات وهي تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة

"لورينزو اللعين لا يجيب على هاتفه!" صرخت وهي تشدّ على هاتفها: "لا يجيب!"

اقترب أندرياس ولمس كتفها: "اهدئي"

أبعدت كتفها بعنف وهتفت بحدّة: "لا تخبرني أن أهدأ فلا يمكن لهذا أن يحدث. لن أسمح بذلك!"

"أفهم أفهم، لندخل إلى شقتك ونتحدث فالجميع يراقبون"

دفعها بلطف إلى الداخل وتبعتهما لورينا التي أشارت للصغار أن يدخلوا لغرفة ميا، فامتثلوا لذلك وتجسسوا عليهم من خلف الباب الذي لم يغلقوه بالكامل

"لماذا فعل ذلك؟ ما الذي فعلته؟ هل لأنّي سافرت أم ماذا؟ كنت أتجنّب المشكلات وانصعت لكلّ أوامره! لذا ما الذي يحدث؟"

فرك وجهه بعد تنهيدة: "أظنّ أنّ هذا بسببي. أنا من كان يسبب المشكلات في الآونة الأخيرة"

"وما شأني أنا؟" تأففت وهي غاضبة: "ستذهب وتتحدث معه! هل فهمت؟ أنا لن أتزوج ولن أسمح له بالتحكم

بحياتي، فقد فعل ما فيه الكفاية!"

أمسك بكتفيها عندما اضطربت أنفاسها وأومأ محاولاً تهدئتها: "حسنًا حسناً. سأفعل ما تريدين، سأسافر الآن وأتحدث معه لأفهم الأمر أكثر لذا اهدئي من فضلك"

هزّت رأسها بحزم: "لن تتفاهم معه، بل ستخبره أنّنا لن نتزوج وحسب"

اندفع أندريه مع ميا وهما مصعوقان، ثمّ هتفا في الوقت ذاته: "هل ستتزوجان؟"

ندريه بقلق: "أبي! هل هذا صحيح؟"

"ماما؟ هل ستتزوجين العم أندرياس؟ ماذا عن بابا؟"

"هل سنصبح أخوين؟"

"هل سيكون العم أندرياس هو

بابا الجديد؟"

تنهد الكبار ولمست روبي رأسها وهي تشعر بصداع رهيب، ثمّ صفقت لورينا: "هذا يكفي! الأب والابن، هيا بنا"

احتج أندريه: "أمي!"

"ليس الآن يا بني" نظرت إلى روبي بشفقة: "تصبحون على خير"

أطلقت روبي تنهيدة طويلة بعد مغادرتهم، ثمّ اقتربت ميا بوجهها القلق وسألت: "ماما؟ هل ستتزوجينه حقّاً؟"

"لا يا عزيزتي، لن أتزوّج بأيّ أحد، لذا اذهبي واغسلي أسنانك استعداداً للنوم"

"ولكن.."

قاطعتها روبي بتعب: "أرجوكِ يا ميا. أنا آسفة ولكنّي متعبة حقّاً ولا أريد

التحدث الآن"

انصرفت ميا المحبطة لتنفذ ما قالته، ثمّ دفنت روبي وجهها بين كفيها وهي تجلس على الأريكة وتفكّر بما حدث. ترتعش يداها بشكلٍ طفيف ويقاوم جسدها نوبة هلع محتملة، فأمسكت عنقها وهي تنظر إلى الأرض التي شعرت بها تهتزّ تحتها، ثمّ اضطربت أنفاسها وكادت أن تفقد السيطرة لولا يد روبن التي أمسكت بيدها وشدّت عليها

نظرت إليه بفزع؛ إذ نسيت وجوده حولها. تأمّل وجهها والدموع المحبوسة في عينيها، ثمّ همس: "هل أنتِ بخير يا روبي؟"

ازدردت بصعوبة ثمّ همست بكلماتٍ متقطعة: "روبن. أجل. أنا.. بخير. الأريكة. سأحضرّها لك"

"لا بأس. يمكنني فعلها بنفسي، لذا اذهبي وارتاحي" أضاف بصوتٍ مُطَمئِن: "سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام"

لمعت عيناها بالدموع مجدداً، لكنّها ابتسمت هذه المرّة واحتضنته بمشاعر ممتنّة، ثمّ همست: "آمل ذلك يا صغيري... آمل ذلك"

25: شارتزموجيل

"مذكرتي العزيزة... لا يمكنني النوم! لا أستطيع التوقف عن التفكير بالدعوة، ولا أصدّق مدى الوحشية والقساوة الذي وصل له الدّون فيرناندو! وكأنّي أحتاج إلى سبب آخر لأكرهه أكثر. إنّه يتحكم بحياتي منذ البداية، والآن سيقوم بتزويجي ورغماً عنّي!

لن أطيعه في ذلك.. لا أستطيع! ولكن ماذا لو هدّد بسلب ميا بعيداً عني؟ ماذا لو طردني ونفاني مثل دييغو؟ سحقاً لم أتمنى موته. لم أعد أستطيع التحمّل..."

وبعد الأرق المتواصل، وانتظارِ أيّ رسالة من أندرياس الذي مضت ساعات على رحيله، نهضت تاركةً فراشها المثقل بالأفكار والهموم، لإحضار الماء

من أجل ابتلاع حبّة تُخرِسُ عقلها وتجبرها على النّوم، لتتفاجأ بظلٍّ ينزلق بخفّة من باب الشقة

وضعت يدها على قلبها بقلق: "روبن...؟ إنّها الثالثة فجراً. أين كنت في هذا الليل؟"

توقف روبن مكانه للحظة موتِّرة للأعصاب، ثمّ أجاب بصوتٍ متردّد: "أنا آسف"

"أنا لا أعاتبك بعد، لذا أخبرني لماذا خرجت في هذا الوقت وماذا كنت عل؟"

مسح على بنطاله بتوتّر، ثمّ مدّ يده لتمسكها روبي وتتبعه خارجًا، إلى زقاقٍ خلف المبنى، تحتضنه الظلال وينيره القمر الخافت. يختبئ في زاويته قطّة سوداء مع صغارها الحديثي

الولادة، وأمامهم علبة تونا ووعاء حليب صغير

قال بصوتٍ خافت: "وجدتها البارحة. كانت متعبة وجائعة لذا جلبت لها الطّعام من مطبخك... آمل ألّا تمانعي" نظر لها والندم يعتريه: "أنا آسف حقًّا، لن أكررها لو كنتِ غاضبة، لذا لا تطرديني!"

تأثرت روبي لرؤية القطة وصغارها، ثمّ لمست وجنتي روبن وقالت بصوتٍ ناعم يبث الطمأنينة: "لن أطردك أبداً... ا لا تضع هذا الوجه الحزين وتكسر لبي"

"ألستِ غاضبة؟"

"بالطبع لا، بل أنا سعيدة وفخورة بك. لن أطردك أو أتخلّى عنك لهذا الفعل"

حدّق بها للحظات، ثمّ همس: "حتى

لو أخبرتك بحقيقتي؟"

أجفلت روبي لردّه، ثمّ حاولت طمأنته: "حتى لو أخبرتني بحقيقتك"

ارتجف صوته وهو يقول: "ولن.. تعيديني إليهم؟"

تبدلت ملامحها للقلق، لتنهمر دموع روبن على الفور ويلقي بجسده في حضنها، يترجّاها ألّا تعيده وتتخلّى عنه وكأنّها الملاذ الذي لم يصدّق أنه وجده، فما كان من روبي سوى أن تطمئنه وتقوده معها للجلوس على المقعد القريب

احتضنت يده بكلتا يديها، وقالت بوجه جادّ: "سأقولها مجدداً قبل أن تبدأ بالحديث...: لن أطردك مهما كانت قصتك"

"وهل ستخبرين ذلك الرجل لورينزو؟

هل سيأخذني؟"

"حتى لو أخبرته، فلن أدع أحداً يقترب منك أو يجبرك على فعل شيءٍ لا تريده"

تأمّل عينيها ووجهها الذي حمل كلّ التعابير الصادقة، ثمّ نظر ليده المحتجزة وبدأ بسرد قصّته للمرة الأولى...

"كنت أعيش في قرية صغيرة تدعى برايستون، على الساحل الغربي لإنجلترا... في ميتم السيد والسيدة كامبل"

"أنت يتيم...؟"

أومأ ببطء: "لقد أخبرني السيد كامبل أنهما وجداني على باب الميتم مع رسالة من عائلتي. قالوا إنّهم لا يستطيعون تربيتي ولا يرغبون بي.

أراني الرسالة عندما كبرت، كانت قديمة وغير واضحة، لكنّها كانت صحيحة" ابتلع غصته مكملاً: "لقد كان ذلك الميتم كالكابوس، وكان السيد والسيدة كامبل قاسيين، يعاقبان على كلّ شيء"

"هل هما من ضرباك وسببا تلك العلامات؟"

نظر إليها بعينيه الدامعتين: "ليس هما فقط، بل الأولاد الآخرون أيضاً. كانوا يضربونني، يسرقون طعامي عندما أحصل عليه ولا تعطيني السيدة كامبل طعاماً آخر بل تنعتني بالكاذب وتحبسني في العلية المظلمة!

حاولت تجنّب المتنمرين، ولكنهم كانوا يمسكون بي ويقومون بتعذيبي وحبسي في المكتبة قائلين إن هناك وحشاً يظهر من الكتب ويأكل الأطفال.

كانوا يخافون من تلك المكتبة، لذا اتخذتها مخبئي، أجلس وحيداً وأحاول القراءة، فقد كان التعليم ضعيفاً هناك، وبالكاد تعلمنا الحروف والأرقام لكني علمت نفسي في تلك المكتبة... حتى أحرقوها"

تمالكت صوتها المرتعش وهمست: "هل تأذيت في الحريق؟"

"لا، لكنّ الميتم تضرّر، وتمّ حرمان الجميع من وجبتي الغداء والعشاء كي يوفّر السيد كامبل مبلغ التصليحات، يوماً ما..."

اختنق روبن بكلماته فجأة، وأغمض عينيه متذكراً الرّجل الذي كان السّبب في كلّ شيء. تركت روبي يده ولمست وجهه بقلق، ففتح عينيه وقال: "أتى رجلٌ غريب ومريب إلى الميتم، يطلق على نفسه اسم البارون. تحدّث مع

السيد والسيدة كامبل لبعض الوقت، ثمّ قاما بجمعنا حتّى يفحصنا بعناية وكأنّه يبحث عن أطفال بمواصفات معينة. لا أعلم ماذا أراد بالضبط لكنّه أخذ عشرة منّا، وكنت من ضمنهم"

"وماذا حدث بعد ذلك؟"

هربت دموع روبن الذي تابع بصوت متحشرج: "أطعمنا وكسانا، ثمّ نمنا وفتحنا أعيننا لنجد أنفسنا داخل حاوية شحن مظلمة مع الكثير من الأطفال. كنّا على متن سفينة كبيرة! وكان الأمر مخيفاً جدّاً...

لم نكن نعلم موقعنا بالضبط، ولكن كنّا في البحر حتماً. كان هناك صبيّ يكبرني بثلاثة أعوام وهو من اقترح علينا الهرب، لذا انتظرنا حتى فتحوا الحاوية من أجل إعطائنا الوجبات وانطلقنا دفعة واحدة لمهاجمة الرّجال.

أمسكوا بالبعض، وباتوا يطاردوننا على السفينة!"

وضعت روبي يدها على قلبها المتألّم، لا تشعر أنّها مستعدة لسماع الآتي أبدًا، ولكنها لم تشأ أن توقفه عن الحديث بعد أن فتح قلبه لها أخيرًا

"استطعت أنا واثنان من الأولاد الهرب والاختباء داخل زوارق الطوارئ، ولم نهدر الوقت. استغللنا انشغالهم بمطاردة البقية وتعاونّا معاً على إطلاق أحدها إلى البحر، واستطعتُ تشغيل المحرّك لأنّي قرأت عن ذلك ذات مرّة"

يا إلهي..."

"كشفونا بالطّبع، وطاردونا وسط المحيط المظلم! حاولوا إطلاق النّار وقتلنا أيضاً، ولكننا نجحنا بالابتعاد وفقدانهم، وهنا بدأ كابوسٌ آخر...

كنّا ضائعين، لا نرى شيئاً ونتحرك باتجاه واحد فقط باحثين عن أيّ ضوء ليخت أو ما شابه، كما حاولنا البحث عن جهازٍ لاسلكي أو أيّ شيءٍ يمكّننا من التواصل مع أحدهم، لكن لم يكن هناك إرسال بسبب الطقس"

استسلم روبن للبكاء وسدّ أذنيه كما لو كان يسمع صوت الأمطار الغزيرة، والصوّاعق التي أرعبتهم تلك الليلة

"انقلب الزورق بفعل العاصفة ووقعنا في البحر. كنت أسمع نداءات استغاثتهما وصرخاتهما اليائسة! وبتّ أصرخ بهلع مثلهما، لا أرى شيئاً في الظّلام. شعرتُ أنّه ابتلعني وأنّي متّ... ولكنّي فتحتُ عينيّ لاحقاً على الشّاطئ ورأيتكِ"

شهقت روبي شهقة باكية قبل أن تضمّ رأسه إلى صدرها وتبكي بحرقة،

فبكى روبن معها وعانقها بقوة رافضاً إفلاتها

"كنت خائفاً من قول الحقيقة. خفت أن تعيدوني إلى الميتم أو لأولئك الرجال مجدداً يا روبي!"

هزّت رأسها ومسحت دموعها، ثمّ قالت: "لن أعيدك إليهم. لن أتركك يا روبن، ولن أتخلى عنك. أعدك!"

انكمش وجهه واحتضنها مجدداً قائلاً: "شكراً.."

"بل شكرًا لك على إخباري بقصتك... ستكون بخير من الآن فصاعدًا"

شدّت على جسده وقلبها يحترق مثل عينيها، وظلّا هكذا لبضع دقائق حتى كسر روبن الصّمت وهمس: "شارتزموجيل..."

حلّت روبي العناق ونظرت إليه

بتساؤل: "ماذا؟"

ردّ بانكسار وإحراج: "الاسم الذي منحوه لي في الميتم. إنّه بشع وصعب وأكرهه! لذلك لم أخبركم به.."

"هل تحبّ اسم روبن إذًا؟"

مسح وجهه ثمّ أجاب: "أجل، إنّه جميل وأفضل من شارتزموجيل"

"سعيدة لسماع ذلك... وسعيدة لوجودك بيننا"

ابتسمت بلين قبل أن تطبع قبلة على خدّه، فابتلع ريقه وهو محرج لتداعب روبي شعره بضحكة قصيرة، ثمّ نظر إليها وسأل بفضول: "هل يمكنني أن أسألك؟"

"عن ماذا؟"

"أين والد ميا؟"

تنهدت ثمّ أجابت: "لا أملك أدنى فكرة"

"هل هو طيّب مثلك؟"

تبسّمت مداعبةً خدّه: "هل أنا طيبة؟"

"جدّاً! أنتِ أطيب امرأة قابلتها"

ضحكت ضحكة خافتة، ثمّ قالت وهي تسرح بعقلها: "يستطيع أن يكون طيباً لو أراد ذلك"

أومأ رغم إجابتها المبهمة، ثمّ سأل بتردّد: "روبي..؟ هل... يمكنني الذهاب إلى المدرسة؟"

أمسكت يده وأجابت بوجه ملؤه الثقة: "بالطبع! سأتحدث مع أندرياس ونرى ما يمكن فعله بخصوص ذلك، فلا تقلق"

ابتسم وكأنّها أضاءت قلبه بكلماتها،

ثمّ نهض معها ليعودا إلى الشقة ويكملا نومهما، ولم تخطُ روبي سوى بضع خطوات قبل أن تتوقف وتلتفت إلى الزّقاق المظلم الذي خرجا منه، لرجفة مفاجئة ألمّت بقلبها. شعرت بوجود أحد هناك، يراقبها من الظلام، يختبئ نفسه وكأنّه وحش مفترس يخشى أن يتمّ كشفه سريعًا

سأل روبن بعدم فهم: "ما الأمر؟"

ازدردت بخفّة وفضّلت ألا تبوح له بشعورها؛ لم ترغب أن تثير قلقه خيلاتها وهو بالكاد يشعر بالأمان: "لا شيء... هيّا بنا"

استرق روبن نظرة إلى الخلف. تلمّست عيناه ظلًّا غامضاً، لكنّه اختفى في غمضة عين وكأنّه كان خيالاً ابتكره عقله المرهق، ثمّ التفت للأمام، شدّ على يد روبي ليستمدّ منها الطمأنينة

والأمان، وتابع طريقه

26: خطوبة مؤكدة

"مذكرتي العزيزة، مضى يومان لم أسمع فيهما خبراً من أندرياس. انتابني القلق والتعب لدرجة أنّي مرضت ومكثت في المنزل..

كان روبن يتفقدني في الصباح عندما تذهب ميا إلى الروضة، يعدّ لي الشاي ويذكّرني بتناول الدواء... ما أطيب قلبه! لقد عانى الكثير ولا أصدّق أنّه نجا ممّا حدث معه..

ومن جهة أخرى، تحاول لورينا جعلي أهدأ وأسترخي، لكنّها لا تعلم ماذا تقول أو تقترح، فنحن نتحدث عن قرار للدّون فيرناندو. ننتظره وكأنّنا ننتظر مرور عاصفة حتمية ستدمّرنا لا محالة، لكن يجب أن نرحّب بها!"

***

تنهدت روبي للمرّة الألف وهي تنظر عبر النّافذة تارةً، ولهاتفها تارةً أخرى. تنتظر أيّ خبر بفارغ الصّبر، حتّى وصلت ميا مع بنيتو وعانقتها لتزرع الابتسامة على شفتيها وتخفّف توتّرها قليلاً، ثمّ اتّجهت إلى روبن وعانقته أيضاً قبل أن تضع حقيبتها جانباً وتخرج منها ورقة لرسمة جديدة:

"انظري يا ماما، لقد رسمت عائلتنا، وقالت لي المعلمة إنّها جميلة وكبيرة"

تناولت روبي الورقة وهي تبتسم مجاملةً: "هذا لطيف جدّاً يا ميا. هل أعلّقها على الثلاجة؟"

"أريد أن أريها لروبن أوّلاً، وأعرّفه على أسماء الجميع" التفتت إليه ورفعتها مشيرةً: "انظر، لقد رسمتك هنا يا روبن، بجانبي بالضبط!"

تركتهما روبي عندما سمعت ضوضاء الرّجال خارجًا. تتعالى أصواتهم المبتهجة بالتهنئة، يباركون لأندرياس كما لو أنّه فاز بجائزة أو رهانٍ من رهاناتهم، لكنّ وجهه لا يشبه الفائزين بل الخاسرين؛ لم يبتسم أو يردّ التهاني، بل اكتفى بإيماءات متعبة، وشقّ طريقه للأعلى بخطوات ثقيلة وكأنّه يحمل جبلًا فوق ظهره!

لم تنتظر روبي ثانيةً وخرجت إليه، وسرعان ما شعرت بوخز في قلبها عندما رأت خيبة الأمل واضحة في وجهه المنهك، وعينيه اللتين تجنّبتا النظر إليها. تيقّنت أنّه لا يحمل الأخبار التي تريد سماعها، ولا أيّ خبرٍ سعيد، لكنّها مع ذلك تبعته بصمت إلى شقته، تتمنى وقوع المعجزة التي تغير كلّ شيء...

لكنّ أندرياس تنهّد، ثمّ قال بصوت خافت يكاد يُسمع: "لم أستطع تغيير رأيه..."

جملة واحدة بأربع كلمات كانت أثقل ممّا احتملته روبي التي كادت أن تسقط أرضًا لولا غضبها الذي تفجّر خلالها وجعلها ترفع صوتها بامتعاض: "ما الذي تعنيه بذلك؟ ألم تخبره أنّ كلينا لا يرغب بهذا الزواج؟"

نظر إليها بحاجبين مثقلين من شدّة الإرهاق: "أخبرته... ولكن لا أستطيع أن أخالف رغبته"

تقدمت خطوة كبيرة نحوه وقالت بانفعال: "هل أنت بعقلك يا أندرياس؟ هل هدّدك بشيء؟"

زفر متمسكاً بأعصابه، ثمّ ردّ محاولاً إبقاء نبرته متزنة: "لم يهدّد، بل رأى

أنّنا مناسبان لبعضنا، وعلاقتنا قوية و
_"

قاطعته بنبرة ساخطة: "تبّاً له! ماذا عن لورينا؟ هي أم ابنك وأنا أم حفيدته! كيف يأتي ببساطة ويفعل ذلك وكيف تسمح له بالتّحكم بحياتك وحياتي هكذا؟"

ردّ بوجه جادّ: "لا أريد أيّ مشكلات معه.."

صاحت في وجهه: "لن أقبل بذلك ولن أتزوّجك!"

فقد أندرياس أعصابه وارتفع صوته مثلها: "لا أريد الزواج بكِ أيضاً ولكن هذا الواقع ولا يمكنني أن أرفض. أمي وجدتي في طريقهما، وهناك تجهيزات، وستقام الحفلة الملعونة نهاية الأسبوع!"

عضّ على شفته عندما انكمشت على نفسها متراجعةً للخلف ويداها ترتجفان، ثمّ تمالك غضبه واعتذر لصراخه بنبرة أكثر خفوتًا وندمًا...:

"أعلم أنّك تكرهينه، ولن تفهميني عندما أقول لك إني لا أستطيع مخالفته. لا أستطيع أن أشرح لك ولن تفهمي العلاقة التي بيننا أو الضغط الذي أشعر به من كلّ النواحي! لن تفهمينا يا سنيوريتا لأنّك..."

شتم بهمس ولم يتابع، فكتمت روبي أنفاسها لثانية، ثمّ أكملت عنه وهي تحارب الدّموع في عينيها: "قلها... لأنّي أجنبية، دخيلة، غريبة، وغيرها من المرادفات"

تنهد أندرياس والذنب يعتريه، ثمّ اقترب ولمس كتفيها بلطف محاولا طمأنتها: "سيكون زواجنا على الورق

فقط، كما أنّ الدون لم يذكر شيئاً عن احتمالية الطلاق لذا يمكننا أن نهرب من هذا المأزق مستقبلاً. يمكنكِ أن تعيشي حياتك كما يحلو لك، واعدي من تريدين واخرجي مع من تريدين. لا يوجد التزام ولن أجبرك على التصرف كزوجة!"

حدّقت به بعينين مجروحتين، وكأنّ كلماته طعنة لم تكن تتوقّعها، ثمّ قالت بصوتٍ خافت: "هل تعلم ماذا تُسمّى الزوجة التي تفعل ما قلته للتو؟ لا أحتاج إلى هذا اللقب ليضاف إلى قائمتي... بالكاد أتحمّل ما يُقَال عنّي"

صفعته كلماتها وجعلته يدرك خطأه، فمدّ يده ليمسك بكفّها المرتجفة، وقال بندمٍ واضطراب: "أنا آسف، لم أقصد إيذاءكِ بكلماتي بل أردت التخفيف عنكِ فقط و..."

شتم نفسه وكرّر الاعتذار، لكنّ روبي ابتعدت عنه وقالت بنبرة هادئة: "لا يهمّ..."

"ما الذي ستفعلينه؟"

"سأتحدث إليه بنفسي"

عادت إلى شقتها وهي متجهّمة لتشعر ميا بالقلق وتهمّ بالسؤال، لولا أن منعها روبن وأخبرها أن تنتظر. التقطت هاتفها واتّصلت بهاتف لورينزو الذي أجاب بعد ثالث رنّة، ثمّ قالت دون تردّد: "أريد لقاء الدّون فيرناندو حالاً"

"أنتِ لا تقررين الالتقاء به، بل هو من يقرّر"

كرّرت بنبرة تحذيرية: "لورينزو... أريد رؤيته"

ردّ بنبرة باردة: "لا تشهري أنيابك يا امرأة، فلست متفرغاً لأيّ أحد. خذي

خوليو وأخبريه أن يوصلك إلى المطار. وداعاً."

أغلق لورينزو الخطّ دون انتظار، ليزداد غضب روبي الذي كان واضحًا في لغة جسدها وطريقة سحبها لحقيبة يدها الصغيرة استعدادًا للذّهاب، وحينها سألت ميا القلقة أخيرًا: "ماما! إلى أين تذهبين؟"

"لديّ موعد مهم مع جدّك يا عزيزتي. سأعود خلال ثلاث ساعات لا أكثر، وسيأتي دانتي ليجالسكما، اتفقنا؟"

أمسكت ميا بيدها وشدّت عليها: "هل كل شيءٍ على ما يرام؟"

"آمل ذلك.." قبّلت رأسها ثمّ أوصتهما: "اعتنيا بنفسيكما وبالمنزل"

أسرعت لتلتقي بخوليو الذي أقلّها إلى المطار دون تحقيق، ورافقها في رحلة

استغرقت ساعة تقريباً للعاصمة مكسيكو، لكن لا هذا الوقت ولا الذي استغرقته للوصول إلى منزل الدّون كانا كافيَينِ لتهدئة الاضطراب داخلها؛ إذ كان قلبها ينبض بتوتّر، وكلماتها تتبعثر كلّما راجعتها، فتمسكت بالعزيمة هذه المرّة وعقدتها على الوقوف في وجهه مهما كان الثّمن، لكنّها لم تدرك بعد أنّها تخوض معركةً أخرى خاسرة، وضدّ خصمٍ قويّ خضع له الكثيرون!

انتظرته حتى أنهى مكالمته، ثمّ عاد للجلوس خلف مكتبه الفاخر قائلاً بجفاء: "أسرعي وقولي ما لديك فلديّ عمل كثير"

أبت الكلمات أن تنساب من فمها بسهولة في البداية مما جعلها ترتبك للحظة، فرمقها بنظرة أحدّ!

"هل ستنطقين أم ستبقين هكذا

وتضيعي وقتي؟"

استجمعت شجاعتها أخيراً، ثمّ جمّدت ملامحها وقالت: "لن أتزوج بأندرياس"

سأل بنبرة قاسية: "هل تقابلين أحدًا؟ هل هناك من سيتقدّم لخطبتك؟"

"لا ولكن—"

قاطعها وأنهى النّقاش وكأنّ لا فائدة منه: "إذاً ليس لديك خيار آخر. يمكنك أن تتفضّلي بالخروج فأنا مشغول جدّاً"

أشار لأحد الرجال كي يرافقها، فاعترضت بغضب: "لا يمكنك أن تجبرني على الزواج!"

"أنا لن أجبرك، بل ستمضين في ذلك طواعيةً"

"لا يمكنك أن تتحكم بحياتي، أنا لست أسيرة!"

"لستِ كذلك، ولكنك تعيشين بين عائلتي وتحت حمايتي، لذا ستنفّذين ما أقول وإلّا فبإمكانك الرحيل"

رفعت ذقنها وهي ترمقه بحقد: "حسناً، سأرحل وآخذ ميا"

ردّ ببرود مشوّب بتهديد خطير: "لا أظنّك فهمتِ... قلت إنّه يمكنك الرحيل، ولم أشمل ميا معك. رحيلك سيكون على مسؤوليتك، أمّا حفيدتي فلن تغادر المكسيك"

شعرت بكلماته تشدّ على عنقها كحبل مشنقة ينتظر تنفيذ حكم الإعدام، فقالت بصوتٍ مختنق: "لا يمكنك أن تفرّقني عن ابنتي!"

"بل يمكنني" ثبّت نظراته الحادّة وأكّد كلامه: "تستطيعين أن تسألي صديقك دييغو ريڤيرا، وسيؤكد لك ذلك أيضًا"

هزّت رأسها باضطراب: "لن أسمح لك"

نظر لها باستعلاء وكأنّها لا شيء أمامه: "لا أحتاج إلى إذنك يا روبي سميث. لو أردت تفريقك عن ابنتك فسأفعل ذلك وفي أيّ وقت. حتى الآن! يمكنك العودة إلى ڤيراكروز ولن تكون موجودة"

اتسعت عيناها بفزع: "هل تهدّدني بها؟"

"أنا أطلعك على ما أستطيع فعله. أذكّرك بحدودك وأنّك تقفين أمامي، وآمل ألا أضطر لأن أريك ما أستطيع فعله على الواقع" ثمّ تابع بصوتٍ حازم: "ستقام حفلة الخطوبة يوم الجمعة فكوني مستعدة... والآن اخرجي، فلدي عمل"

هربت الدموع من عينيها بعد العجز

الذي شعرت به؛ لم تعد تستطيع التحمّل أكثر، فكلّ شيءٍ يتداعى بسرعةٍ لا تجاريها. كان العالم يغرقها دون رحمة في مياه فوضاه، يمنعها من التقاط أنفاسها، يمنعها من المناضلة وحتّى الهرب والسعي للسلام والطمأنينة، فاختارت الذّل والتوسّل كحلٍّ أخير مثلما تفعل في كلّ مرّة تُقفل فيها كلّ الأبواب وينقطع الأمل، علّها تجد مخرجًا...

"أرجوك.. لا تفعل هذا بي. أتوسّل إليك"

ردّ بامتعاض: "آل كورتيز لا يتوسّلون لأحد!"

هتفت بصوتٍ باكٍ: "لست من آل كورتيز!"

"أنتِ أمّ حفيدتي، لذا تصرّفي وفقًا

لذلك على الأقلّ، وفّري دموعك لشيءٍ آخر واغربي عن وجهي!"

***

طرقت لورينا باب أندرياس قبل أن تفتحه وتدخل لتراه على الأريكة، يدفن وجهه في كفّيه من فرط الهموم التي تتراكم عليه ولا يستطيع التخلّص منها، فاقتربت بهدوء وحذر ثمّ حاولت أن تلطّف الجوّ حوله بسؤالها: "هل أبارك؟"

ردّ بصوتٍ أجش مكتئب، يميل للتهكّم: "أظنّ ذلك"

لكمت كتفه بلطف وقالت بنبرة ممازحة: "يجب أن تبتهج إذاً يا عريس"

"لو فكرت بذلك فهناك احتمالٌ أن تمزّق روبي وجهي"

ردّت بتعاطف وشفقة: "إنّها معذورة يا أندرياس، فلم تعتد عالمنا بعد"

أسند رأسه إلى الخلف وضغط على جفنيه مقاومًا الصداع: "أمّي وجدتي قادمتان يا لورينا.. تريدان رؤية العروس والمكوث إلى حين الحفلة" تذمّر بدرامية: "وكلّما زاد عدد النساء، زاد الضغط!"

نهض من مكانه وأخذ يدور حول نفسه في قلق حتّى ثبّتته لورينا أمامها وقالت: "لا تقلق بشأن راكيل"

"والدتي مسالمة ولطيفة، لن تشكّل مشكلة مثل جدتي نينا التي ستحلل روبي من رأسها إلى أخمص قدميها!"

علّقت لورينا بتهكم: "وربما سأسمع محاضرة منها أيضاً... لذا ما رأيك؟ هل نتزوج؟"

جذبها إليه ببطء قائلاً: "موافق، لنتزوج وننهِ هذه المعاناة"

أسندت يديها على صدره، محافظةً على المسافة بينهما، ثمّ قالت: "لو أنهينا هذه المعاناة فستبدأ أخرى بيننا، وقد نكره بعضنا في النهاية، ولا أستطيع تخيّل الاستيقاظ على وجهك كلّ يوم حتّى تصبح عجوزاً يثير الأعصاب"

فرّت ضحكة منه قبل أن يسند رأسه على كتفها ويطلق تنهيدة طويلة: "أتمنى لو أنّك وقعتِ بحبّي كليّاً.."

ذبلت ابتسامتها وشردت بذهنها للحظة قصيرة، ثمّ قالت: "وأنا أتمنّى لو فعلتُ ذلك أيضاً"

قالا في الوقت ذاته: "ولكن شكراً..."

ضحكا قليلاً، ثمّ تابعت لورينا بنبرة

مرحة: "لا أعرف ما هي إجابتك لذا سنقولها في وقتٍ واحد بعد الرقم ثلاثة"

نطقا باسم أندريه معًا، ثمّ نظر إليها أندرياس بابتسامة دافئة تمنّت ألا تزول أبداً، وبادلته الابتسامة حتّى لفت انتباهها صوت روبي المضطرب وهي تنادي ميا!

"هناك خطبٌ ما..."

***

خرجت روبي المرعوبة من شقتها على الفور عندما وجدتها فارغة. نادت ميا مجدداً لكن لا مجيب! ارتجف قلبها، فتفقَّدَت الفناء، ثم أسرعت إلى الحديقة، وحالما رأتها تلعب مع أندريه وروبن ركضت لتضمّها إليها بكلّ قوّتها وهي تبكي وترتجف، ممّا جعل الجميع

في حيرة وقلق

"ماما؟ ما بك؟"

لم تستطع روبي بشهقاتها المكتومة أن تجيب ميا التي سرعان ما انتابها الخوف وبكت أيضًا وهي تتشبث بوالدتها وتردّد: "ماما...! لا تبكي! أنا قلقة!"

تنفست روبي رائحة ابنتها وهي تحاول أن تستمدّ القوة منها لتثبت ولا تنهار، ثمّ ابتعدت ومسحت دموعها قبل أن تجبر ابتسامة على شفتيها، وتخبرها أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، لكنّ ابنتها لم تقتنع...

"ما الذي يجري يا ماما؟"

ازدردت روبي بصعوبة، ثمّ قالت بصوتٍ متّزن قدر المستطاع: "لا شيء، لقد اشتقتُ إليك فقط"

"ولهذا تبكين؟"

أومأت والدتها وحسب، ثمّ انتقلت أعينهم لأندرياس الذي أتى ليتفقدها بصحبة لورينا. استطاع قراءة كلّ شيء على وجهها بسهولة، مثلما استطاعت قراءة الاعتذار الصامت الذي انساب من بين شفتيه

"ميا... هناك شيءٌ يجب أن تعرفيه"

شعرت مِيا بالقلق مثل أندريه الذي كان يتمنى ألا تقول ما يفكّر فيه، ولكنّها فعلت وصعقتهما لدرجة أنّهما بدأا بالاعتراض بطريقة فوضوية مجدداً، حتّى تفرّقوا وابتعد كلّ منهم عن الآخر

"لا يمكنك الزواج يا ماما!"

تنهدت روبي وهي تجلس على الأريكة، ثمّ قالت بصوتٍ غزاه الحزن: "ولكنك تحبين أندرياس"

ضربت قدمها بالأرض وهي محبطة: "وأنتِ لا تحبينه، لذا لا تتزوجيه"

"عزيزتي.." أمسكت بيديها الصغيرتين، ثمّ قالت رغم البؤس في عينيها: "هناك أمور أكبر وأهمّ من الحب، وستفهمين كلامي عندما تكبرين. إنّ أندرياس رجلٌ رائع ونحن نحبّه، وهذا الزواج سيكون جيداً لنا"

"ماذا عن بابا؟ ألا تريدين أن يكون زوجك؟ ربما لا يزال يحبّك ويريد الزواج بك"

روبي بصوتٍ واهن: "لكنّي لا أريد ذلك يا مِيا.."

هزّت رأسها باستنكار: "تريدين الزواج بالعمّ أندرياس؟"

"أجل... أرغب بالزواج به"

تراجعت ميا للخلف وهي مصدومة:

"ولكن... يجب أن لا تكون قصتكِ مع بابا هكذا. يجب أن تجتمعا معًا مثل القصص والأفلام حتى نعيش في سعادة أبديّة!" هزّت رأسها: "لا يمكنني قبول هذا!"

نظرت روبي إلى ابنتها التي هربت لغرفتها بقلبٍ مفطور، ثمّ تنهدت تنهيدة طويلة وخفضت رأسها لتخفي دموعها على روبن الذي احتار في ما يجب عليه فعله هذه المرّة، حتّى تحرّك جسده لا إراديًّا وكأنّ قلبه قد قرر أن يتحرك قبل عقله. جلس بجوارها، ثمّ وضع يده على يدها بحنان دون النطق بشيء، كما لو كان يوجّه رسالة صامتة لا تحتاج إلى الكلمات، رسالة بها نوع من الأمان والمواساة التي تحتاج إليها روبي في هذه اللحظة...

***

وفي شقّة أندرياس، كان أندريه ما يزال يتذمّر ويحتجّ بكلّ ما لديه من قوّة دون أن يتوقّف، مسبباً الصدّاع لوالدته ووالده الذي تنهّد بتعب عدّة مرّات!

"لا تتزوجها يا أبي، فلا أريد أن أصبح أخًا لميا!"

"ولماذا؟ هل تشاجرتما؟"

"لا، ولكني لا أريد ذلك" اعترف ببراءة مضطربة: "أحبها وأريد الزواج بها عندما أكبر، ولهذا لا يمكنك أن تتزوج والدتها!"

أجفل أندرياس ونظر إلى لورينا التي أومأت فقط، ليدرك كلّ شيء ويتنهد مجددًا قبل أن ينحني ليحادث ابنه عن قرب: "اسمعني يا بني، أتفهّم أنّك غاضب ومستاء، ولكن هذه رغبتنا نحن

الاثنين. أراعي مشاعرك البريئة، ولكن لن تكون ميا الفتاة الوحيدة التي ستحبها. هناك الكثير من الفتيات، وأنت لا تزال صغيراً لتقرر بمن تريد الزواج"

ردّ أندريه بنبرة مشمئزة: "وهناك الكثير من النساء حولك أيضًا، فلماذا اخترتها؟ هل أجبرك الدّون على ذلك يا ترى؟"

رمقه بوجه جادّ: "لم يجبرني أحد، وإيّاك أن تذكره أو تحدّثني بهذه النبرة مجدداً يا ولد!"

شدّ أندريه على قبضته قبل أن يهتف بوالديه: "أكرهك! أكرهكما أنتما الاثنين! كان من الأفضل لو تزوجتما"

دخل لغرفته وصفع الباب بقوة، ثمّ ألقى أندرياس بجسده على الأريكة بعد

أن أنهكه الجدال وهمس: "هل كانت ميا الفتاة التي يحبّها؟"

"أجل، والآن تلقى صدمة كبيرة، ومنك يا عزيزي"

فرك وجهه باستياء وتمتم: "سحقاً..."

***

في غرفة هادئة تتنفّس السكينة والطمأنينة، ذات ألوان دافئة تحتضن من فيها، وجدران تتزيّن بلوحات للطبيعة وأخرى تحمل اقتباساتٍ ملهمة تترك أثراً في القلوب، يجلس الطّبيب النفسي تُود ذو الملامح الرصينة على مقعده، يراقب من أمامه وبيده كوب قهوة حارّة، يتصاعد البخار منه وتفوح رائحته في الأرجاء كعطر طبيعي يداعب أنف كلّ محبٌّ للقهوة...

"أتيت قبل الموعد بكثير،

فبماذا تفكّر؟"

"هل تظنّ أنّي مستعد للذهاب؟"

ردّ الطبيب بهدوء: "هذا يعتمد عليك. هل ترى أنّك مستعد؟"

تنهد مفكراً بالأمر، ثمّ قال بنبرة هادئة تخلّلها الانزعاج والغضب: "لا أعلم ولكنّي أريد أن أكون مستعدّاً، فالعجوز يودّ تزويجها من ذلك اللّعين"

تنهد الطبيب تُود: "ذلك العجوز هو والدك يا سبيل، هل عدنا إلى نقطة البداية بعد كلّ هذا الوقت؟"

رمقه مارسيل بنظرة حادّة: "أعلم من يكون"

رفع تُود يده وقهوته بخضوع: "حسنٌ أستسلم لذا لا تطلق غضبك المميت ولنعد إلى السؤال الأصلي" سأل بوجه جادّ: "هل ترى نفسك مستعدّاً؟"

"وأخبرتك أنّي أريد أن أكون مستعدّاً. كم مرة سأكرر ذلك؟"

اعتذر الطبيب مجدداً، ثمّ قال بنبرة ألطف: "لا تخلط بين الرغبة وظروف الواقع، ولا تخاطر وتتخذ قراراً سيجعلك تنتكس. فكّر جيداً ثمّ قرّر بدون أن تجعل الأمر عنها بل عنك"

هزّ مارسيل رأسه مرّة واحدة معترضاً: "كلّ شيءٍ عنها..."

"أعلم كم هي مهمة بالنسبة إليك، وأعلم أنّها السبب الرئيس في كونك هنا، ولكنّها ليست السبب الوحيد، فأنت أردت هذا أيضاً"

"بسببها"

رفع تود حاجباً، واختار كلماته بعناية بعد أن لاحظ التوتّر بينهما: "وليس بسبب أنّك تعبت من كونك 005؟ ألم

تذكر ذلك في أوّل جلسة، أم أنّي مخطئ؟"

تنهد مارسيل تنهيدة طويلة من أنفه ولم يقل شيئًا، فتابع الطبيب: "أنا لا أمنعك من الذهاب، لكنّي أريدك أن تجلس مع نفسك لتفكّر بالأمر جيداً، ثمّ تعلمني بقرارك"

27: خاتم

"لقد وصلت لقد وصلت!"

"اهربوا"

"لا يمكننا الهرب، يجب أن نستقبلها!"

"آه خوليو المسكين! قام بإحضارهما من المطار، لذا لا بدّ أنّه تجرع الكثير طوال الطريق"

"أنا رجل ولكني خائف منها"

تهامس الرجال بهلع وهم يراقبون السيارة التي تقترب من مواقف المجمّع، وكأنّها تحمل أسوأ كوابيسهم بداخلها، ثمّ ترجّل منها خوليو وفتح الباب الخلفي ليساعد الجدّة نينا على النّزول أوّلاً قبل راكيل -والدة أندرياس-

رمقتهم الجدّة نينا بنظراتها الحادّة قبل أن تصيح بصوتها الخشن:

"أستقفون مثل تماثيل موايَ؟ أحضروا حقائبي يا حمقى!"

"حاضر!"

هتفوا كما الجنود في وقت واحد، ثمّ اندفعوا مرحبين بها أوّلاً بتقبيل يدها أو رأسها. أحضروا الحقائب من السيارة بينما اقترب منها أحدهم ومعه كرسي متحرّك، فأشارت بازدراء: "وما هذا؟"

"أحضرته كي لا تُرهقي نفسك بالمشي يا جدّة"

ضربت ركبته بعكازها: "قد أكون عجوزًا ولكني أستطيع المشي أفضل منك! كما أنّ المجمع خلفك أيها الأحمق... جيلٌ كسول"

ضحكت راكيل برقّة وربّتت على كتفها: "ارحميهم قليلاً يا جدة"

رفعت الجدّة نينا ذقنها بثقة وبدأت

بالمشي إلى مدخل المجمّع وحولها الرّجال، تعاين كلّ شيءٍ تراه بدقّة ونقد، حتّى وقعت عيناها على حفيدها أندرياس الذي ابتسم وفتح ذراعيه مرحّبًا بها. سمحت له بذلك ثمّ ضربت ساقه بالعكّاز قائلةً: "تحتاج الجدران إلى دهان جديد يا ولد"

فرك أندرياس مكان الضّربة بألم، ثمّ ابتسم لوالدته وعانقها بحرارة للحظة طويلة لم يقولا فيها شيئًا، وكم تمنّى لو أنّه ينكمش في حضنها أكثر، يشتكي ويبكي كما كان يفعل في صغره...

لمست وجهه بحنان وقالت: "اشتقتُ إليكَ كثيرًا.."

"وأنا أيضاً يا أمي.."

***

جلست روبي على فراشها، تنظر إلى

الصفحة الفارغة وبيدها القلم الذي لم تخطّ به شيئاً؛ لا تعلم ماذا تكتب، ماذا تريد أن تقول، أو كيف تعبّر عمّا تشعر به بالكلمات المكتوبة. كيف تصف الوخز الذي يعذب قلبها؟ كيف تصف خوفها مما هو آت، كيف تصف العجز والرّهبة وكلّ المشاعر التي تناثرت مع أفكارها ولا تعرف طريقة لجمعها

أطلقت تنهيدة طويلة عندما سمعت صوت الباب، ونهضت لترى روبن يستقبل أندرياس الذي ربّت على رأسه بعفويّة، ثمّ نقل عينيه المهمومتين إليها وتبادلا النظرات لبرهةٍ ثقيلة؛ باتت علاقتهما مختلفة منذ تلك المحادثة. كانا كالأخ والأخت، يتحدثان ويتعاركان، يتشاركان المشاعر والقصص وأحياناً النصائح، لكنّهما غريبان الآن... وعلى وشك الزواج!

"مرحباً"

ردّت بصوتٍ خافت: "مرحباً"

قال بنبرة خالية من الحماس: "أمّي وجدتي هنا، وهما يريدان مقابلتك، فهل أنتِ متفرّغة؟"

أرادت الرفض، ولكنّها باتت تعلم أنّ كلمة لا لن تفيد ولن تؤخّر المحتوم، فأومأت على مضض وقالت: "ستأتي ميا بعد قليل، ثمّ نوافيكم"

أومأ بفهم مطيلاً النّظر: "حسناً، سنكون بالانتظار"

أغلق روبن الباب خلفه، ثمّ نظر لروبي التي لم تقل شيئاً وجلست على الأريكة فقط، تنتظر وصول ابنتها بذهن شارد حتّى وقف أمامها ومعه حلوى هلامية، لتعقد حاجبيها بشكلٍ طفيف:

"اشتريتِ هذه قبل ثلاثة أيّام، لكنك

لم تأكليها. افعلي ذلك الآن فقد تبهجك"

لم تستطع روبي ألا تبتسم وتداعب خدّه: "يا لكَ من مراعٍ يا روبن... شكراً"

هزّ كتفه بخجل: "العفو. لم أفعل شيئاً"

"بل فعلت. لا تستهن بالأمور الصغيرة التي تفعلها من أجل الآخرين، فقد تعني لهم الكثير"

أومأ بفهم، ثمّ سأل بتردّد: "هل... بإمكاني البقاء هنا حينما تقابلينهما مع ميا؟"

"ألا ترغب بالقدوم؟"

"لن أشعر بالراحة لوجودي بينكم كالمتطفل"

أمسكت بيده وقالت: "أنت واحدٌ منّا

ولن تكون متطفّلاً أبدًا... ولكن إن كنت تفضّل البقاء فلن أمنعك"

***

عبرت روبي الباب المفتوح مع ابنتها وهي تستمع لضحكات عالية ومحادثات تبدو شيّقة، تملأ المكان ببهجة ودفء لم يستطيعا إيجاد طريقٍ إليها. رأتهم مجتمعين في صالة المعيشة، وبينهم لورينا التي جلست بجوار راكيل، تتبادلان أطراف حديثٍ خاصّ ومشوّق...

اضمحلت ابتسامة أندرياس العريضة ما أن رآها، وكأنّه تذكّر فجأة سبب وجودها. نهض بخفّة ووقف جانبها، ثمّ قال بصوتٍ هادئ امتزج بالتوتّر: "أمّي وجدّتي، هذه روبي... خطيبتي"

كان للكلمة الأخيرة التي انسابت من

شفتيه تأثير غريب ومخيف عليه، وكذلك على روبي التي شعرت أنّها صفعة أخرى تؤكّد لها أنّ ما يحدث لا مفرّ منه. لا تستطيع أن تسبح عكس التّيّار والأمواج عاتية وقوية، لذا كلّ ما عليها فعله هو جعل التيّار يجرفها، وإلا غرقت للأسفل!

ابتسمت برسمية: "مرحباً، سررت بلقائكما. لقد تحدّث أندرياس عنكما كثيراً"

نهضت راكيل ورحبّت بها بابتسامة ناعمة، لكنّ الجدّة تفحصتها بنظراتها لبرهةٍ طويلة ومربكة حتّى أومأت مرحّبةً بتحفّظ، ثمّ نقلت نظراتها بعد ذلك إلى ميا المحبطة وقالت: "لا بد أنّكِ حفيدة ابن عمّي فيرناندو"

انحنت روبي إلى مستوى ابنتها ولمست كتفها قائلةً: "حبيبتي؟ هيا

ألقي التحية وعرّفي بنفسك كما علّمتك، لا تكوني خجولًا"

أومأت ميا قبل أن تنظر إليهما بوجهها البريء وتقول بصوتٍ خالٍ من المرح: "مرحبًا، أنا ميا كورتيز"

راكيل بابتسامة: "ما أجملها!"

شكرتها روبي بأدب، ثمّ أشار لها أندرياس بالجلوس جواره، تاركاً مساحة بينهما لميا التي رفضت ذلك وجلست عن يمين والدتها متجاهلةً رغبته. لم يقل شيئاً، لكنّ حركتها البسيطة تلك جرحت قلبه الذي يكنّ حبّاً كبيراً لها

قاطعت الجدّة نينا أفكاره عندما سألت روبي: "تعيشين هنا كما سمعت"

"أجل يا سيّدة غارسيا"

"وماذا تعملين؟"

"أعمل في حضانة الأطفال"

أومأت الجدّة ببطء، ثمّ اكتفت بقول: "فهمت.."

"جدّتي!"

هتف أندريه بحماسة فور دخوله عندما علم بقدوم جدّته، لكنّ ابتسامته اضطربت عندما شاهد الجميع مجتمعين؛ إذ تذكّر الحقيقة التي كانت السبب الرئيس في كوابيسه الأخيرة

عانقته راكيل بحرارة: "حفيدي الجميل، لقد كبرت وأصبحت رجلاً صغيراً"

ابتسم مجاملاً جدّته، ثمّ ذهب وقبّل الجدّة الكبرى قبل أن يتّخذ مقعداً بجانب والدته التي احتضنته من جانبه ومسحت على شعره بحنان، وبعدها استأنف الكبار أحاديثهم عن حفلة

الخطوبة فشعر بالإحباط يغزوه أكثر، يتبادل النظرات الحزينة مع ميا التي تبدو مثله تماماً، يفكّر بحبّه البريء والطفولي، وكيف سيصبح مستحيلاً...

نهض دون تفكير قائلاً: "لنلعب معاً في الخارج يا ميا!"

أجفلت ميا والتفت إليه الجميع باستغراب، فتوتر قليلاً حتى ابتسمت روبي لابنتها: "اذهبي للعب معه، ولكن لا تبتعدا كثيراً"

نهضت من جانب والدتها بهدوء، وحينها ابتسم لها أندرياس ابتسامة صغيرة، فانكمشت على نفسها وتجاهلته مجدداً قبل أن تمسك يد أندريه الذي سحبها جانبًا وبعيدًا عن الأنظار، ثمّ همس: "نحتاج إلى مكان لنتحدث دون أن يسمعنا أحد"

همست: "عن ماذا؟"

"أتريدين لهذا الزواج أن يتم؟"

"بالطّبع لا! ماذا عنك؟"

"أنا أيضاً، ولهذا السبب سنفكّر بخطّة"

أومأت ميا مبديةً اهتمامها: "لنذهب إلى شقتنا، فلا يوجد أحد سوى روبن"

زفر أندريه بامتعاض: "لا نريده أن يعلم، ماذا لو أفشى السّر؟"

هزّت رأسها ودافعت عنه ببراءة: "لن يفعل فأنا أثق به، كما أنّه ذكي وقد يساعدنا بأفكاره"

تنهد أندريه مستسلمًا، ثمّ صعد معها الدّرج وهو يقول: "حسناً، ولكنّي سأتولّى القيادة والحديث"

عقد روبن حاجبيه عندما رآهما يوصدان الباب ويسحبان الستائر،

يتفقدان الحجرات كلّها بعناية للحرص على عدم وجود جواسيس من أيّ نوع، فسأل بحذر: "ما الذي يحدث؟"

نظرت ميا إلى أندريه الذي قال: "سنفسد هذا الزواج ونحتاج إلى خطّة لذلك"

تنقل بنظراته بينهما وهو متفاجئ، وحينها أضافت ميا: "أرجوك لا تخبر أحداً وساعدنا، فأنت ذكيّ يا روبن"

"ألا تظنان أن هذه فكرة خاطئة؟"

زفر أندريه بعصبية: "أخبرتكِ أنّه لا يمكننا الوثوق به!"

أمسكت ميا بيد روبن وقالت بوجه حزين: "لا أريد لهذا الزواج أن يتمّ، وماما لا تريده أيضاً، لكنّها تقول إن هذه أمور بالغين"

"ومن حقيّ أنا وميا أن نرفض ويكون

لنا رأي!"

"أرجوك يا روبن.."

تأمّل وجهها الحزين، ثمّ قال: "لا أريد لروبي أن تغضب منّي"

تقدّم أندريه قائلاً: "لن يعرف أحد. سنضع خطّة محكمة ونتصرّف بشكل طبيعي"

تنقل بنظراته بينهما مجدداً حتّى تنهد موافقاً، فاحتضنته ميا على الفور مثيرةً غيرة أندريه الذي فصلهما بعفوية، وأمرها أن تركّز وتحضر كرّاسة رسمها التي جلسوا حولها حتى ابتلعهم الصمت؛ ينتظرون أن يبادر أحدهم بالحديث والإدلاء بأفكاره

سألت ميا: "ما هي الخطّة يا أندريه؟"

حاول أن يتصرّف كمخطّط متمرّس، فأجاب: "يجب أن نفكّر باسم أوّلاً"

زفر روبن بتململ بعد أن نفد صبره: "الاسم ليس مهمًّا. استعرضا هدفكما والأفكار أوّلاً"

تنحنح أندريه بتكبّر: "حسناً، ستكون حفلة الخطوبة بعد يومين، وسوف تُقَام على الشاطئ حسبما سمعت"

سألت ميا وهي تحتضن الوسادة: "وكيف نفسدها؟"

عصر أندريه منّحه بينما روبن يراقبه حتى خطر شيءٌ بباله أخيراً: "سنسرق الخاتمين ونخفيهما فور علمنا بمكانهما... وماذا تقترحان أيضاً؟"

لمست ميا ذقنها تفكّر: "سوف ترتدي ماما فستاناً"

أندريه وهو يشير لها بإدراك: "وسيرتدي أبي البدلة! يمكننا إفساد

الملابس وتأخير الحفلة"

أومأت ميا، ثمّ نظرا إلى روبن وانتظراه أن يبدي فكرة أخرى، فهزّ كتفه بلا مبالاة وقال: "ستكون هناك كعكة بالتأكيد لذا دمّراها"

ميا بتساؤل: "ولكن كيف؟ نحن لم نرها بعد"

دوّن أندريه فكرته على الورقة: "سنكتشف ذلك لاحقاً ولكنّها فكرة جيدة، قد يغضب أحدهما، ولنأمل أن يتشاجرا ويلغيا الخِطبة"

دخلت روبي إلى الشقة فجأة وأربكتهم جميعًا، فانبطح أندريه وفوقه ميا ليغطي الورقة التي رسموا فيها خطة الأحلام، بينما تنهد روبن وشعر بالحرج منهما

"ما الذي تفعلونه يا صغار؟ أهذه

لعبة جديدة؟"

نهضت ميا وذهبت لتعانق والدتها قائلةً: "ماما، هل يمكننا تناول المعكرونة بالجبن الليلة من فضلك؟"

قام أندريه بلفّ الورقة بينما ميا تلهي والدتها، ثمّ ودّعهم بسرعة وبابتسامة زرعت الشكوك في روبي التي هزّت رأسها فقط وحاولت أن ترتّب أفكارها:

"سيقيمون وليمة شواء اليوم في المجمّع على شرف الجدّة نينا وراكيل، لذا سنؤجّل المعكرونة ليومٍ آخر"

مسحت على رأسها قبل أن تتّجه إلى المطبخ، وحينها زفرت ميا بارتياح وعادت للجلوس بجانب روبن الذي تمالك ضحكته الساخرة قدر الإمكان...

***

كانت تحضيرات الوليمة أو حفلة

الشواء الكبيرة على شرف الجدّة نينا تجري على قدمٍ وساق في الفناء، حيث أعاد الرّجال ترتيب الطاولات في صفوف طويلة وغطّوها بمفارش تقليدية باللون الأصفر الذّهبي الذي يرمز إلى الشمس والفرح في تقاليدهم؛ نصبوا الشّوّايات الكبيرة، حضّروا اللحوم الحمراء والمشروبات وكلّ شيءٍ قد يحتاجون إليه، كما كان هناك من يعزف أنغاماً جميلة، تتسلّل بين الضحكات والأحاديث حتّى أوقفتها الجدّة نينا...:

"هل تريدني أن أحطّم غيتارك بعكّازي يا ولد؟ اعزف أغانِيَ قديمة أعرفها وليس الترهات التي تستمعون إليها اليوم!"

هتف العازف بتوتر: "آسف آسف! سأغير الأغنية فوراً يا جدة"

تعالت الضحكات والتعليقات الساخرة على مزاج الجدّة الحادّ، لترمقهم بنظراتها وتُخرسهم على الفور. وخلال ذلك، كان أندرياس العابس يتفحّص اللحوم بعناية ويتحقق من تتبيلها جيداً ليشغل نفسه عن التفكير بالزواج قليلاً، وحينها أتاه صوت جدّته...:

"لا تقل إنّك من سيتولّى أمر الشواء، فالمرة الأخيرة التي فعلت فيها ذلك كان اللحم مثل البسكويت المحترق"

ضحك من حولها ضحكاتٍ مكتومة ليهزّ أندرياس رأسه: "حدث ذلك مرّة واحدة فقط يا جدّتي. لقد سهوت!"

"كنت تحدّق بامرأة ما ولهذا سهوت كالأحمق، من حسن الحظّ أنّ لعابك لم يسل على اللحم"

تنهد أندرياس متمالكاً إحراجه، ثمّ

استنجد بلورينا التي رافقت الجدّة بضحكة لتجعلها تجلس وترتاح، فاسترخت على مقعدها وأخذت تراقب الرّجال والنساء حولها، حتى رأت روبي وهي تعود من الخارج مع صغيريها

اقترب أندرياس منهم وحاول أن يكون عفويّاً: "هل ستشاركيننا الوليمة؟"

"أصرّت جدّتك على ذلك، لذا اشتريت بعض الأغراض وأنوي صنع المشروبات للجميع"

"فهمت... شكراً"

ابتسمت تزيّف المجاملة: "العفو.. أراك لاحقاً"

ردّ بصوتٍ خافت: "لاحقاً.."

راقبت الجدّة نظراته نحو روبي، والتنهيدة الصغيرة التي غادرت صدره

مدحته ببرود: "لم تفسده هذه المرة... تهانينا" ثمّ رفعت كأسها قائلةً: "اسكبوا لي كأساً آخر من ذلك العصير الورديّ. إنّه ممتاز"

ابتسمت روبي بفخر خلسةً وهي تتناول طعامها، ثمّ قالت ميا: "ماما؟ أريد المزيد من فضلك"

"حاضر، ماذا عنك يا روبن؟"

أومأ بالموافقة وحينها بادر أندرياس: "سأتكفّل بتقطيع اللحم من أجل ميا"

نظرت ميا إلى أندرياس بتحفّظ حتى وضع طبقها أمامها وهو يبتسم، لكنّها لم تبادله تلك الابتسامة وشكرته بصوتٍ خافت فقط

توتّرت ابتسامته قليلاً، لكنّه قال: "العفو يا أميرة"

وبعد انقضاء العشاء، قام الأطفال باللعب مع بنيتو وترياكي حتى كادوا يتقيؤون ما تناولوه، ثمّ نهضت روبي بعد أن أنهت التحلية واعتذرت من الجميع بحجة العمل، وظلّ أندرياس يتأمّلها مع صغيريها بصمت حتّى قاطعته جدّته وهي تضرب الأرض بعكّازها: "لقد مللت وأريد النوم يا ولد، لذا خذني إلى غرفتي"

نهض عن مقعده ببطء، ثمّ عرض ذراعه لجدتّه ورافقها إلى الشقة التي خصّصها لوالدته ولها، حيث ألقت عليه بعض الأوامر التي نفّذها دون اعتراض أو تذمّر، وكأنّه لا يملك الطّاقة أو المزاج لفعل ذلك...

"هل تحتاجين إلى شيءٍ آخر يا جدّتي؟"

تفرّست في ملامحه المتعبة، ثمّ سألت: "ما الذّي فعلته ليقوم فيرناندو بتزويجك؟"

"وما الذي يجعلك تظنّين أنّ الدّون هو السبب؟ ربّما هذه رغبتي"

ردّت بنبرة صارمة امتزجت بالعطف: "لست والدتك ولكنّي أعرفك. أنت مثل أبيك، ابني! ولكنّ قلبك ليّن مثل أمّك... وهذا القلب لا يحبّ تلك المرأة المدعوّة روبي، وهي تبدو كذلك أيضاً"

ضحك ضحكة خفيفة بدت بائسة، ثمّ قال محاولاً التهرّب: "علاقتنا جيّدة"

رمقته بنظرة طويلة: "قد أكون طاعنة في السّن، وقد لا يتّفق جيلك مع أفكاري ومعتقداتي، لكنّي أعرف كيف أفرّق بين الخيارين الصائب والخاطئ، وتلك المرأة هي الخيار الأمثل لك. قد

لا تكون مثل النساء اللاتي اعتدت مرافقتهنّ ولكن ثق بي عندما أقول لك إنّها ستكون أفضل زوجة قد تحظى بها في حياتك كلّها"

"ولكن...؟" قال بنبرة هادئة وكأنّه يدرك أنّ هناك المزيد من الكلمات التي لم تبُح بها

"هذا الزواج يقوم على البؤس، لذا يجب أن يبادر أحدكما لتغيير ذلك، وفي هذه الحالة أنت من يجب عليه اتخاذ الخطوة الأولى"

رفع حاجبه الأيمن قليلاً وهو مستنكر: "ولماذا أنا؟"

أجابت بنبرة لينة: "لأنّها أجنبية. هذا ليس موطنها بعد والأمر واضح على وجهها وضوح الشمس. تبدو أنّها أكثر من يعاني، وحيدة بلا ظهر أو سند تلجأ

إليه يا أندرياس"

تنهّد تنهيدة طويلة، ثمّ قال بنبرة متهكّمة: "لو كنت تعرفينني كما قلتِ، فستعرفين أنّي لا ألاحق إلّا المرأة التي لا تريدني وتكون صعبة المنال"

ردّت بازدراء: "ولهذا السبب حياتك مثيرة للشفقة! اخرج قبل أن أضربك"

زفر أندرياس ضحكة قصيرة قبل أن يغادر وتسقط ابتسامته؛ يفكّر بكلام جدّته ويقلّبه في عقله، ثمّ رفع رأسه ونظر إلى الشقة، حيث تقف روبي خارج الباب وبدت أنّها تبحث عنه بعينيها، وعندما وجدته أخيراً، أشارت للسطح وانطلقت قبله، فأخذ نفساً عميقاً، ثمّ صعد لمقابلتها

كانت ما تزال هادئة ورسمية. نظرت إليه قليلاً قبل أن تعقد ذراعيها وكأنّها

تحاول أن تتمسك بموقف دفاعي أو متحفظ، وقالت: "رأيت جبل الهدايا في غرفة المعيشة"

أومأ بابتسامة معتذرة: "إنّها من عائلتي، وهناك هدايا لميا أيضاً. هذه عاداتنا"

ردّت بصوتٍ ناعم: "لا يمكنني قبول كلّ هذا"

"لا أستطيع استردادها، وهذا ليس بالكثير فأنتِ ستصبحين من آل غارسيا" أردف بعد لحظة صمت: "هناك علبة سوداء مخملية أيضاً وبها خاتمك... وددت أن أعطيه لكِ بنفسي ولكن..." هزّ كتفه بلا حيلة

"من الجيد أنّك لم تفعل، فلا أستطيع تخيّلك تركع وتتقدم لخطبتي" ثمّ ابتسمت ابتسامة خفيفة جدّاً: "شكراً،

وسأشكر عائلتك على كرمهم أيضاً"

همّت بالرّحيل، فقال أندرياس بعد تردّد تخلّله الضيق: "روبي..."

"نعم؟"

اقترب حتّى امتثل أمامها، ثمّ تأمّل وجهها وقال بصوتٍ مستاء: "أكره هذا الحال.. وأنا آسف"

"علامَ؟"

"على الزواج. لا بدّ أنّك تكرهينني لأنّي لم أقاوم أكثر وأرفض أوامر الدّون، فبتُّ عالقة معي. أنا آسفٌ حقّاً وأكره علاقتنا الحالية والغريبة هذه"

خفضت روبي عينيها للحظة تستمدّ فيها القوّة، ثمّ نظرت إليه مجدداً وقالت: "أنا لا أكرهك يا أندرياس، ويستحيل أن أفعل ذلك، فأنا مدينة لك" تنهدت بقلبٍ مثقل: "أنا فقط...

مستاءة من كوني مقيّدة ويُتَحَكّم بي بهذه الطريقة. منذ قدومي إلى هنا وأنا أشعر أنّي في سجن من نوعٍ آخر، وأسوأ جزء من ذلك هو أنّي لا أستطيع التّحدث عن الأمر مع أيّ أحد. لا أستطيع التحدث عن الدّون بسوء ولا حتى شتمه أو السخط عليه"

"سنيوريتا، إنّ الدّون—"

قاطعته وعيناها تلمعان بالدموع: "أترى؟ لم أبدأ بعد وها أنت ذا تقفز للدفاع عنه، كلكم هكذا، وهذا يجعلني أشعر أنّي مذنبة ويجب أن أصمت فقط" تابعت بصوتٍ متحشرج: "أنا بخير، بصحتي، بأمان، ولكنّي لا أزال أسيرته، ولا يمكنني الاعتراض أو الرحيل لأنّي أعلم أنّه سيقف بيني وبين ابنتي، فما حاجته لي؟ أنا مجرّد دخيلة وغريبة، ولدي مكان بينكم

بسبب ميا فقط!"

لوّحت بيديها حولها وكأنّها تجسّد كلماتها المكبوتة داخلها: "المكسيك بمثابة قلعة، هو الملك وهي الأميرة، وأنا الدخيلة التي تتشبث بحبل يتدلى من الشرفة، أتمسّك به بيديّ وبكلّ قواي من أجلها وبسببها فقط، وليس لأنّي سعيدة... وإن أتى يومٌ وقررت فيه أنها لا تحتاج إليّ بعد الآن أو تمّ إبعادها عنّي، فحينها سينقطع ذلك الحبل وأسقط للهاوية"

غزا الحزن والندم وجه أندرياس الذي قال بصوتٍ خافت: "لم أعلم أنّك تتحمّلين كلّ هذا... أنا آسف حقّاً"

مسحت دموعها بسرعة، ترفض أن تضعف أمامه أكثر، ثمّ قالت: "لم تفعل أيّ شيءٍ خاطئ لتعتذر يا أندرياس"

"إذاً اسمحي لي أن أعوضّك على الأقل يا روبي. أنتِ مهمة بالنسبة إليّ، وأريد فعل شيءٍ من أجلك" أمسك يديها بلطف، ورفعهما إلى صدره: "عندما نتزوج، فأنا أعدك أنّي سأبذل ما بوسعي لأجعلك سعيدة"

هزّت رأسها وردّت بابتسامة صغيرة: "ليس لدي شك أنّ لديك القدرة لتجعلني أسعد امرأة على الأرض يا أندرياس. ليس لديّ شكّ أنّك ستكرّس نفسك لهذا السبب وتقدّم سعادتي على سعادتك، ولا يمكنني قبول ذلك فأنت تستحق أن تحصل على ما تريد، كلانا يستحقّ الاختيار!

الظروف ضدّنا، ولكننا يجب أن لا نجعلها تتحكم بنا وتقضي على رغباتنا الحقيقية. نحن عالقان معاً، وأنا أريد صديقي أندرياس وليس زوجاً ألعب

معه دور الزوجة السعيدة" أردفت بتهكم: "ومن يعلم؟ ربّما بعد سنوات من الآن قد أقع في حبّك وأتقمص الدور"

قال بنبرة غزلية: "أنا لا أُقَاوَم يا سنيوريتا، سوف تتوسلين إليّ خلال فترة قصيرة وليس سنوات"

ضحكت روبي ودفعت صدره: "هذا صديقي الذي أعرفه!"

ضمّها إليه في عناق مليء بالاطمئنان: "نعم، سأكون صديقك وأخاك الأكبر دائماً"

ابتعدت عنه وسخرت: "لست مؤهلاً لتكون الأخ الأكبر يا سنيور غارسيا"

قلّب ناظريه: "حسناً حسناً... تصبحين على خير"

تبسّمت بنعومة: "تصبح على خير"

28: البارون و005

هناك سكون غريب ومريب، يتسلّل بخفّةٍ بين أروقة المكان، رغم الحركة الحيوية التي تحصل في الخارج؛ النسيم اللطيف، العمل، ضحكات وبكاء الأطفال حول روبي، والتي كانت تقضي يومها على غير المعتاد؛ تلاعب الأطفال، تمازحهم، تتحدث وتضحك، ثمّ تصمت فجأة محدّقةً بالفراغ وكأنّ الحياة تنسحب منها... لا تعلم لماذا، لكنّها تشعر بالسّكون المثير للرهبة، وكأنّه الهدوء قبل العاصفة التي ستجلب معها الدمار!

هذه الليلة لن تشهد العاصفة وحسب، بل ستشهد الدّموع وربّما الدّم، وستكون بداية زلزال لن يعود بعده شيء كما كان...

***

"تهانينا على خطبتك! ستقام الحفلة الليلة ولم تقومِي بدعوتنا" قالت زميلتها وهي تعقد ذراعيها

ابتسمت معتذرةً: "لم أقم بدعوة أحد. سوف تقتصر الحفلة على العائلة فقط" أردفت في محاولةٍ لتخفيف التوتُّر بينهما: "قد أقيم حفلة صغيرة للأصدقاء، وسأقوم بدعوة الجميع بالطّبع"

ربّتت على كتفها: "أنا أمازحك فقط، وتهانينا مجدداً. أندرياس حلم كلّ امرأة في ڤيراكروز، هذا ما سمعته من الكثير من النسوة... آسفة"

ضحكت روبي مجاملةً: "لا عليك. أسمع هذا كثيراً. عن إذنك الآن، فيجب أن أغيّر حفاظة بولين"

حملت روبي الرضيعة بين ذراعيها بحنان لتعتني بها، ثمّ أخذت تداعب خدّيها وتُضحكها لتتناسى التفكير بالليلة التي ستبتسم فيها وتمسك بيد أندرياس أمام الجميع، دون حبّ، دون رغبة، بل طاعةً لأوامر الدّون فقط، وهذه الفكرة أكثر ما يسبّب لها الاختناق

نظرت إلى الحديقة عبر النافذة، لترى روبن يجلس وحده عند الطاولة الخشبية، يشغل نفسه بالرّسم والتلوين ليهرب من الملل، ثمّ رفع رأسه عن كرّاسته عندما جاءت وأعتمت رسمته بظلّها للحظة قصيرة ذكّرته بمقولة اعتاد تكرارها صبي غريب الأطوار يعرفه: ((الظلام الذي نراه، قد يكون الضوء الذي نبحث عنه...))

لم يعلم لماذا تذكّر ذلك فجأة، ولكنّه

نظر إلى وجه روبي بتمعّن وكأنّه يبحث عن شيء، حتى قاطعت تفكيره بسؤالها، وأعادته للواقع: "ما الذي تفعله؟"

هزّ كتفه بإحباط: "لا شيء مهمًّا"

"هل تشعر بالملل؟" تحاشى روبن الإجابة وخفض عينيه فقط، فقالت والذنب يعتريها: "أنا آسفة لأنّ الأمر قد تأجّل. تحدّثت مع أندرياس عن وضعك في المدرسة مع الآخرين وسأذكّره بعد الحفلة أيضاً"

"حقّاً؟"

"أجل. لن تشعر بالملل من مرافقتي مجدداً"

ردّ باندفاع: "لا أشعر بالملل!"

ضحكت روبي قليلاً: "أمازحك فقط. أنا من سيشعر بالملل لأنّه لن يتسنى لي

التسكع معك كلّ صباح، ولكن التعليم أهمّ" ابتسم بسعادة واضحة على وجهه، فمسحت على شعره النّاعم بلطف وسألت بنبرة مشجعة: "أخبرني يا روبن، ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟"

ارتفع حاجباه لسؤالها المفاجئ. سرح بأفكاره وكأنّه يبحث عن إجابة لهذا السؤال بين ذكريات ماضيه الموجِع، ثمّ أجاب بنبرة حزينة: "لم أفكّر بذلك. تمنّيتُ أن يكون لي خيار فقط على الأقل عندما كنت في الميتم. أخبرونا أننا لن نفلح في شيء وسنصبح متسوّلين في الشوارع، وربّما صبية نساعد في المزارع"

"أنت لست في ذلك الميتم بعد الآن. يمكنك أن تحلم وتتمنى وسأبذل ما بوسعي لأساعدك"

غمره دفء كلماتها، فابتسم بامتنان قبل أن ينظر للرضّيعة بولين التي تضرب على الطاولة وتصدر أصواتاً ظريفة، ويقول: "لا أعلم ماذا أريد أن أكون في المستقبل. هناك الكثير من المهن والمسمّيات، لذا الأمر مخيف ويدعو للتفكير كثيراً... ماذا عنكِ يا روبي؟ ماذا أردتِ؟ حاضنة مثل الآن؟"

أجابت بنبرة مرحة، لكن عينيها حملتا الحزن: "أردت أن أكون طبيبة مرّة، ومعلمة، محامية، وحتّى مغنية! كان لديّ أحلامٌ وطموحات كثيرة"

سأل بوجه مشفق: "وهل حققتها؟"

تنهدت بابتسامة صغيرة: "حققت بعضها، أو بالأحرى واحدًا. لطالما تمنيت أن أكون أمًّا وأحظى بعائلتي الخاصة. حصلت على ميا وعليك أنت أيضاً"

خفض عينيه مجددًا لكن بخجل هذه المرّة، ثمّ بدأت الرضيعة تصدر أنيناً متضجراً، فحملتها قائلةً: "يبدو أنّ صغيرتنا جائعة، لذا سأعود إلى الداخل. حسناً؟"

"حسناً"

***

زفرت ميا بضجر بعد الحصة الأخيرة، وقد بدا التعب واضحًا على ملامحها المحبطة؛ إذ كانت هي الأخرى تفكّر بهذه الليلة وما قد يحدث لو فشلت كلّ خططهم. التقطت حقيبتها بكسل واستعدّت للخروج لكنّ سيسيل المزعجة اعترضتها مجدداً لتمارس ما تفعله دائماً... التنمر!

قالت بابتسامة ساخرة ونظرة متعالية: "هل ستتزوج والدتك من والد

أندريه؟"

أجابت ميا بامتعاض: "ليس بعد، اليوم حفلة الخطوبة فقط" تمتمت بهمس: "ولن تتم"

"على أيّ حال، تقول أمّي إنّ والدتك لا تليق به، وأوافقها الرّأي"

هتفت ميا: "بل هو الذي لا يليق بها، إنّه أقلّ وسامة وذكاءً وشجاعة من بابا!"

ضحكت سيسيل وقالت: "تقصدين والدك المزيف؟"

"ليس مزيّفًا ويوماً ما سأثبت ذلك لكِ!"

التفتت ميا فور سماع صوت بنيتو وهو يناديها متجاهلةً تعليقات سيسيل، والسخرية التي بدأت تتعالى خلفها كما علّمها روبن، ثمّ تفاجأت عندما فتح

أندريه باب السيارة واستقبلها بابتسامة عريضة، وقالت: "لماذا خرجت مبكراً؟"

ردّ أندريه وهو يسعل قليلاً ويزيّف المرض: "شعرتُ بتوعّك وأخبرتهم أني أرغب بالخروج"

غمز لها وابتسم بمكر لتسترق نظرة إلى بنيتو وتومئ بفهم فقط، وما أن انطلقت السيارة، حتى اقتربا من بعضهما وهمسا سريعًا لمراجعة خطتهما، وكأنهما عميلان في مهمة سرية...

"لقد خبأت خاتم أبي تحت سريري وألصقته بشريط لاصق كي لا يراه، ماذا عنكِ؟"

"فكّرت مع روبن في مكان مناسب وخبّأناه في فتحة التهوية. لن تجده ماما أبداً"

"جيد جيد... عندما أعود فسأفسد بدلة أبي"

سدّت فمها لتمنع ضحكتها المشاكسة، ثمّ سألت: "كيف؟"

"سأشرب العصير وأتعثر لأسكبه على بدلته!"

همست بهلع طفولي: "ولكن ماذا لو أرسلها للتنظيف في الوقت المناسب؟"

"لن يفعل، فالمغسلة التي يتعامل معها مغلقة اليوم"

ضحك بنيتو الذي يراقبهما عبر المرآة، وسأل: "عن ماذا تتهامسان؟"

ارتبكا للحظة، ثمّ هتفا بعفوية وابتسامة عريضة في الوقت ذاته: "لا شيء!"

استغلّا انشغال بنيتو بمكالمة ما

ليتابعا الحديث حتّى وصلا إلى المجمع، ودخلت ميا لتجد والدتها في وسط الفوضى، تعبث بالأدراج، تزيح الأريكة والوسائد، وتفتّش في كلّ الزوايا بنظرات قلقة ومرهقة، غارقة في البحث إلى درجة أنها لم تلاحظ دخول ابنتها إلا بعد لحظات

"هل عدتِ باكرًا اليوم يا ماما؟"

"أجل، صرفتني مديرتي مبكراً بسبب الحفلة" تنهدت بتعب، ثمّ سألت بوجه قلِق: "ميا؟ هل رأيتِ خاتمي يا ترى؟ لقد كان في درج المنضدة واختفى فجأة. أبحث عنه منذ ساعة مع روبن!"

أجابت ميا ببراءة مصطنعة: "لم أره على الإطلاق"

تقدّم روبن بهدوء قائلاً: "سأتابع البحث مع ميا، فاذهبي واستحمّي يا

روبي قبل أن يضيع الوقت"

هزّت رأسها موافقةً، ثمّ قالت: "ابحثا في الألعاب أيضاً فقد يكون هناك"

زفرت ميا بارتياح عندما اختفت والدتها خلف باب الحمّام، بينما قال روبن بتعاطف: "أظنّ أنّكِ يجب أن تعيدي الخاتم. لقد كانت على حافّة الجنون يا ميا!"

ردّت بعناد: "بل يجب أن نتابع الخطّة" ذهبت للمطبخ وأخرجت المقصّ من الدّرج، ثمّ نظرت إليه بابتسامة ماكرة: "لا يُسمَح لي باستخدام المقصّ دون إشراف، لكنّك أكبر منّي لذا ساعدني"

تنهد مستسلماً وأخذ المقصّ من يدها، ثمّ تسلّلا معاً لغرفة روبي حيث فستانها المعلّق داخل حافظة خاصّة

بثياب السهرات. سحب روبن الزّمام للنهاية دون إخراجه، ثمّ نظر لميا التي أمسكت بطرفه وهمست: "مزّقه!"

"هل أنتِ واثقة؟"

همست بتذمّر: "بسرعة قبل أن تأتي ماما!"

"حسناً لا تدفعيني!"

***

بعد جولة أخرى من البحث العقيم وترتيب الفوضى. فتحت روبي علبة مساحيق التجميل، وبدأت تختار الألوان المناسبة، وتنسّق الإكسسوارات بدقّة؛ تحاول أن تتناسى التفكير بالخاتم الضائع أو بردّة فعل أندرياس عندما تخبره، لكنّها لم تعلم أنّ هذه البداية، إذ سحبت الفستان من الحافظة وشهقت عندما رأت حالته؛

ممزّق وبه بقع غريبة وكأنّه مرّ من بين مخالب وحشٍ غاضب

لمست رأسها بصدمة: "يا إلهي، ما الذي يحدث معي؟"

خرجت ومعها الفستان، فشهقت ميا بفزع: "هل أكل الفأر فستانك يا ماما؟"

"هل تعرفين أيّ شيءٍ بخصوص هذا؟"

انسابت الكذبة من فم ميا بسهولة: "بالطّبع لا. ما الذي حدث؟"

حملقت بها روبي بشكٍّ وتساؤلات عديدة، لكنّها لم تشأ التّصرّف الآن، لذا وضعت الفستان جانباً كما لو أنها تضع كلّ الظنون معه، ثمّ خرجت من الشقة لتصادف أندرياس الذي بدا مشوشاً ومضطرباً أيضاً، فزادت شكوكها أكثر فأكثر

"اسمح لي بسؤال، هل وقعت لكَ مشكلة يا ترى؟"

أجاب بسرعة وكأنّه كان ينتظر أن يسأله أحد هذا السؤال: "نعم! وأنتِ؟"

"هل المشكلة متعلقة بخاتمك؟"

وضع يده على قلبه بدرامية: "هل هو معك؟"

شهقت بدهشة: "هل أضعته؟"

هتف متذمراً: "لا! لقد اختفى فجأة وبحثت عنه في كلّ مكان، ثمّ سكب أندريه العصير على البدلة لذا أرسلت خوليو كي يجلب لي بدلة أخرى من متجرنا وما زلت أنتظر"

عقدت روبي ذراعيها بعد أن فهمت ما يجري: "ثوبي ممزّق، وخاتمي مفقود أيضاً"

ارتفع حاجباه: "أنتِ أيضاً؟ ما الذي يحدث؟ هل هذه إشارة ربّانية أم ماذا؟"

ابتسمت بسخرية: "فكّر قليلاً... من قد يأخذ الخاتمين ويفسد الملابس؟ من لا يريدنا أن نتزوج؟"

رفع رأسه وتأوّه بتعب: "الصغيران..."

زفرت روبي وهي تهزّ رأسها: "لا أصدّق أنّ ميا كذبت عليّ ولم أكشفها، ظننت أنّ الكذب لا يُوَرَّث ولكنّي كنت مخطئة"

"وأنا لا أستطيع التصديق أنّي لم أكشف أندريه... سحقاً يجب على لورينا أن تعلمني كيف!" هزّ رأسه ساخرًا: "لكن عجبًا! انظري إلى أيّ مدًى قد وصلا"

ضحكت روبي ضحكة رقيقة خفّفت

توتّرها وسط الفوضى، ثمّ سألت: "ماذا نفعل؟ هل نواجههما؟"

فكّر قليلاً حتّى علت الابتسامة الماكرة شفتيه: "هل لديكِ ثوب آخر؟"

"لديّ واحد سيفي بالغرض"

"ارتديه إذاً وسأحضر خاتمين جديدين وأبقيهما معي. سنتجاهل ما حدث ونرى ماذا سيفعلان ثمّ نمسكهما بالجرم المشهود" ضحك بخفّة: "أشعر أنّنا سنحظى بوقتٍ ممتع!"

ابتسمت روبي باستهزاء، ثمّ عادت لشقّتها والتقطت الفستان بوجه محبط بينما ميا تراقبها فقط، أمّا روبن فقد شعر أنّها عرفت شيئاً، لكنّه قرّر ألا يتحدّث

"ما الذي ستفعلينه يا ماما؟ هل ستتأجّل الحفلة؟"

كتمت روبي ضحكتها وأجابت بنبرة عفوية: "بالطبع لا يا حبيبتي، سوف نجد حلّاً"

انفعلت ميا في سؤالها: "كيف؟ لا يمكنك الذهاب بفستان ممزق!"

"سأرتدي شيئاً آخر، فلا تقلقي"

***

وعلى صوت دندنة روبي، وقفت ميا أمام المرآة تتفقد فستانها البنفسجي المنفوش وحقيبتها الصغيرة بجوار روبن الذي يرتدي بدلة سوداء تجعله يبدو مثل رجلٍ نبيل وصغير، ثمّ أتى أندريه ببدلته البيضاء أيضاً، وانبهر بجمال ميا وظرافتها؛ إذ بدت في نظره كأميرة صغيرة من إحدى الحكايات الخيالية

هتفت بابتسامة بريئة: "أندريه! تبدو

رائعاً مثل روبن"

تضاربت مشاعره فجأة؛ شعر بالخجل أوّلاً ثمّ بالغيرة من روبن الذي بدا رائعاً بالفعل، وقال بغرور: "لا يمكنك أن تقارني لونين مختلفين.. الأبيض أفضل من الأسود"

تجاهل روبن تعليقه ومغزاه الواضح، ثمّ اقتربت ميا وهمست: "لم تنجح الخطّة، يبدو أننا سنذهب"

همس بعزم رافعاً قبضته بينهما: "سنفكّر بحلٍّ عندما نصل إلى هناك. لن نستسلم"

فتحت روبي باب غرفتها، فالتفتوا إليها جميعاً وانبهروا لمظهرها الأنيق. كانت ترتدي فستاناً أحمرَ داكنًا، ذا قصّة كلاسيكية، يضم خصرها بنعومة قبل أن ينساب حتى كاحليها، يليق

بشعرها المرفوع وأقراطها اللامعة، يبرز عنقها وعقد أحجار الياقوت الثمين الذي حصلت عليه من دييغو وقرّرت ارتداءه كعلامة تمرّد قد لا يعرفها سواها ضدّ الدّون فيرناندو، وكأنّها ترسل إليه رسالة غير معلنة أنّه مهما حدث فلن تخضع له كليًّا!

وقعت في غرام الصّغار وأشكالهم الظريفة. طلبت منهم أن يقفوا جنبًا إلى جنب لالتقاط صورة تذكارية قبل حفلة الخطبة، فامتثلوا للأمر على مضض لم تلاحظه وابتسموا عندما أصرّت على ذلك حتى تم التقاط صورة بدت كلوحة نابضة بالبراءة والدفء...

"هيا بنا الآن"

غادرت الشّقة واتّجهت إلى الدرج، وحينها مدّ روبن ذراعه لها دون إدراك لتبتسم وتقبل مساعدته رغم قصر

قامته عنها، وحولها الأهالي الذين يطرون على جمالها ويباركون لها مجدداً، فلم يكن لها سوى أن تتمسّك بالقناع، تبتسم وتشكرهم كما لو أنّها أسعد امرأة في العالم

التقت بأندرياس الذي أطرى على مظهرها وقبّل يدها عمداً في مشهد شاعريّ، أثار هلع أندريه وميا التي همست: "هل أحبّا بعضهما بهذه السرعة؟"

"لا أعلم يا ميا!"

همس روبن بصرامة: "تريثا في الهلع قليلاً. لا تزال لديكما فرصة في الحفلة"

صعدت روبي إلى سيارة أندرياس ومعها روبن وميا، أمّا أندريه فقد صعد مع والدته وجدّته متّجهين للشاطئ

الخاصّ حيث الخيمة الكبيرة -المفتوحة الجوانب- التي تتوسّط الشاطئ، بسطح أرضي خشبي ليسهّل السير، طاولات مزيّنة بالزهور والمقبّلات، وأضواء تنتظر الغروب والليل لتسطع وتخلق جوّاً احتفاليّاً ورومنسيّاً، فرقة تعزف وتغنّي كلّ الأغاني المحبوبة، وحتى تلك التي تفضّلها الجدّة نينا. الجميع متأنّقون، ومستعدّون للاحتفال بأندرياس، العازب الشهير الذي سيرتبط أخيراً...

وأخبارٌ كهذه يستحيل ألّا تصل لمسامع إيزابيل التي كانت تجلس بين الرّجال المتيمين بحبّها في فندقها الجديد. لا تسمع ثرثرتهم أو تكترث لنظراتهم الغزلية وحتى الهدايا التي يقدّمونها، كلّ ما يجول في رأسها هو خطوبة أندرياس وروبي؛ كيف سيحتفل معها، يعانقها ويراقصها، كيف

سيضع خاتماً في إصبعها ويهمس بكلمات الحبّ والغزل في أذنها وأمام الملأ

لم تستطع تصديق بوبي عندما أتاها بالخبر في البداية، وادّعت اللا مبالاة، لكنّها سرعان ما غرقت بالتفكير وهي تشعر بالحقد تجاهها وتتساءل ما المميز بها لهذه الدّرجة ليفضّلها مارسيل أوّلاً ثمّ أندرياس أيضاً. حاولت تجاهل الأمر وإعارة اهتمامها للذين حولها دون جدوى... فإلى متى ستكابر يا ترى؟

***

لازمت روبي جانب أندرياس لأداء واجبهما حسب التقاليد الخاصّة بالعائلة ورحّبت بكلّ الضيوف بابتسامة مهذّبة وكلماتٍ مدروسة، بينما ميا تراقبها بوجه مستاء، تنتظر أن يفرغ

جدّها من الحديث مع بعض الرّجال والترحيب بهم. كان يسترق النظرات إليها، يبتسم بخفّة عندما يراها تزمّ شفتيها وتقطّب حاجبيها بالقوّة في مجال رؤيته علّه يلاحظها، حتّى أتى وجلس بجانبها دون قول شيء، لرغبته بالعبث معها قليلاً

تأفّفت بصوتٍ عال كي يلتفت لها، وعندما لم يفعل، نهضت عن مقعدها ووقفت أمامه وهي تعقد ذراعيها، لتبتسم ڤيرونيكا وتتظاهر بالانشغال بهاتفها

قال بنبرة هادئة: "ما بك؟"

أجابت بغضب لطيف: "أنا غاضبة!"

رفع حاجباً بتهكّم: "حقّاً؟ مِمَّن؟"

"منكَ يا جدّي!"

"لم تغضبِي منّي من قبل"

وضعت يدها على خصرها وقالت: "ولكنّي غاضبة الآن، وأريدك أن تجد حلًّا يرضيني فأنا حفيدتك الوحيدة!"

قاوم الابتسامة الساخرة، ثمّ جلست على حجره وهي متجهمة، فقال: "هل يمكنكِ إخباري لماذا أنتِ غاضبة منّي؟"

أجابت بإحباط وهي تتحسّس يده الاصطناعية: "لماذا ترغم ماما والعم أندرياس على الزواج؟"

أجاب بهدوء: "لا أرغم أحداً، بل أرى أنّهما مناسبان لبعضهما فقط"

"لا أريد ذلك. أريدها أن تتزوج بابا عندما يعود"

"والدك ليس هنا، وهي موافقة على الزواج بأندرياس. ألا تظنين أنّه يجب أن تحترمي قرارها؟"

ضربت الهواء بيدها متذمّرةً: "لا أفهم كلامك، لا بدّ أنّه كلام كبار"

أومأ الدّون بطيف ابتسامة، ثمّ سأل: "هل تجعلك والدتك سعيدة؟"

"أجل.."

"وهل تحبّك؟"

أومأت: "بالطّبع، وأنا أحبّها كثيرًا أيضًا!"

"ألا ترغبين برؤيتها سعيدة؟"

"بلى"

"هي تبدو كذلك الآن، وأندرياس رجلٌ رائع ويحبّك أيضاً، فلماذا لا تكونين سعيدة من أجلها؟"

حدّقت به ميا للحظات قبل أن تنظر باتّجاه والدتها التي تجلس إلى طاولة بعيدة وتتجاذب أطراف الحديث

الشّيق مع أندرياس:

"لا تلتفت، فميا تنظر باتّجاهنا ويبدو أنّها اشتكت لجدها عن وضعنا"

زفر بسخرية، ثمّ همس واضعاً ابتسامة عفوية: "قد يقبل طلبها ويلغي الخطبة"

هزّت روبي رأسها بلا مبالاة: "أظنّه سيرفض هذه المرّة"

لمس أندرياس يدها بلطف، ثمّ قال: "لقد تحدّثت معه وأخبرته أنّي لا أريد إقامة حفل الزواج مبكراً، وأنّنا نحتاج إلى بضعة أشهر"

"ولماذا فعلت ذلك؟"

رفع كتفه ونظر لعينيها مجيباً: "لا أعلم... ربّما آمل أن تظهر معجزة في آخر لحظة ويُلغى كلّ شيء"

شدّت على يده وتأمّلت خاتمَي الخطوبة، ثمّ سألت بتردّد: "وهل وافق؟"

"وافق دون أن يناقشني حتى! ألا تظنّين أنّ الأمر مريب؟"

همهمت: "مريب بالفعل..."

استرقت روبي نظرة إلى الدّون، لتجد ميا لا تزال تنظر باتجاههما. ابتسمت لها، فبادلتها ابنتها ابتسامة اختلطت بالحزن حتّى قال جدّها: "إذاً...؟"

نظرت إليه وقالت بعد تنهيدة قصيرة ومحبطة: "سأكون سعيدة من أجل ماما"

"أحسنتِ القول"

أتى أندريه ليأخذها معه، فطبعت قبلة على خدّ جدّها قبل أن تلحق به، ثمّ لمست ڤيرونيكا كتفه وهمست بصوتها

النّاعم: "أنا فخورة بك"

ردّ بتحفّظ موجهاً نظراته إلى روبي وأندرياس: "السبب؟"

"تعلّم حفيدتك درساً بينما كلانا يعلم أنّ أمّها وأندرياس ليسا سعيدين. انظر كم هما بارعان في التمثيل"

"جيد"

همست: "لو أنّهم يعرفون فقط..."

"لا أريدهم أن يعرفوا"

مسحت على كتفه بحنان: "بالطبع، فأنت الدّون، ويجب عليك الظهور بصورة معينة"

ردّ بنبرة متهكّمة تليق به: "وقعتِ في حبّ تلك الصورة حسبما أذكر"

ضحكت ضحكة خافتة وشعرت بالحنين إلى الماضي الذي جمعهما معًا،

ثمّ قالت: "صحيح، وكرهتك في البداية، ثمّ بدأت أغوص بالتفاصيل وأراقب جيداً حتى غرقتُ بك كليّاً"

"ثمّ هربتِ"

"وأنت بحثت ووجدتني... وانظر إلينا الآن. خمسة عشر عاماً ولدينا توءمان جميلان"

وجّه نظراته للأمام متأمّلاً الحفل، ثمّ همس بتحفّظ: "شكراً..."

***

"إلى أين تأخذني يا أندريه؟" سرّعت من خطواتها لتجاري خطواته المتحمّسة

"وجدنا الكعكة في ثلاجة كبيرة داخل خيمة، وروبن ينتظرنا"

همّت ميا بقول شيء، ولكنّهما اجتمعا

بروبن الذي أعلمهما أنّ الخبّاز ومساعده لا يزالان في الداخل، ليعقد أندريه العزيمة أكثر:

"سأستدرجهما إلى الخارج، وأنتما أفسدا الكعكة بعصًا أو ملعقة أو أيّ شيءٍ، اتفقنا؟"

"لا..."

التفتا إلى ميا الحزينة التي قالت: "لن أدمّر الكعكة. دعونا نلغِ كلّ الخطط"

هتف أندريه بتعجب: "لماذا؟ ما الذي حدث؟"

ردّت بوجه محبط: "إنّ ماما سعيدة، ولا أريدها أن تكون تعيسة، والعم أندرياس يبدو سعيداً أيضاً لذا فلنتوقف"

تشوّش أندريه ولم يعلم ماذا يقول: "ولكن–أنتِ لا تريدينها أن تتزوج به

بل بوالدك!"

"أجل... ولكن إن كان العم أندرياس يجعلها سعيدة فلا بأس. أنا أحبّ ماما وأريد لها السعادة"

هتف معترضاً: "لا!"

أمسكت يده محاولةً إقناعه: "يجب أن تكون فرِحًا لوالدك أيضاً. سنعيش معاً، ونرى بعضنا طوال الوقت، لن يتغير شيء"

سحب يده وصاح بغضب: "أنتِ لا تفهمين! لن أسمح لهذا الزواج أن يتمّ!"

ركض أندريه الغاضب مبتعداً عنهما، وكادت أن تلحق به لقلقها لولا أن قال روبن: "اتركيه"

"ولكن..."

"فعلتِ الصواب بقرارك يا ميا. لقد كان

لقلقك عليّ، ولكنّي سأكون بخير، لأنّ والدك لن ينتقل بل سيستمر بالعيش في المجمّع حتى لو تزوج. سيبقى الجميع معاً يا عزيزي... ولو تفرقنا فسوف تمضي أياماً عنده وأخرى عندي، لذا لا تعبس. اتفقنا؟"

تنهّد مفكراً بالأمر، ثمّ أجاب على مضض: "اتفقنا"

"ممتاز... هيا، لنعد إلى الحفلة"

"أريد البقاء قليلاً. لقد انفجرت في وجه ميا، وأريد أن أفكّر بكلماتٍ مناسبة للاعتذار"

ردّت بتهكّم: "تقصد التدرب على الاعتذار"

أجاب بحرج: "أجل"

أمسكت وجهه بكلتا يديها: "ولدي الجميل، كم أنت ظريف!"

همس متذمراً: "لا تفعلي هذا أمام الرجال. أنا ولد كبير!"

"حسناً حسناً. سأسبقك فلا تتأخّر. أريد الرقص معك"

أومأ أندريه لوالدته التي نهضت وأوصت بنيتو عليه، وعاد ليراقب السيارات وهو يتمتم، ويتدرّب على كلماته كي لا ينساها عندما يرى ميا

سأل بنيتو بنبرة ساخرة: "ما الذي تفعله يا ولد؟"

"أنا أفكّر فلا تقاطعني!"

"تبدو غارقاً في التفكير، آي لا تزال صغيراً. لم ترَ من الحياة شيئاً يستحق ما تفعله الآن"

"كلٌّ لديه هموم تناسب سنّه" مدّ أندريه لسانه

ضحك بنيتو ومن بجانبه، ثمّ قال: "هل تودّ أن تشارك أفكارك معنا؟ قد نساعدك"

"لا، شكراً، سوف تسخرون كالمعتاد و..."

تبخرت كلماته في الهواء حين توقّفت سيارة سوداء مريبة، لا تبدو أنها تنتمي لهذا الاحتفال المبهج. سرقت انتباههم جميعًا، وخيّم الصمت عليهم حتّى تبدّلت ملامحهم إلى خليط من الرّهبة والذهول عندما شاهدوا الرّجل الذي لم يُرَ منذ خمس سنوات كاملة، وعاد الآن وكأنّه شبح من الماضي، يخترق حاضرهم بهيبة حضوره فقط!

شهق أندريه بلا وعي، فرك عينيه كمن يظنّ نفسه يهذي أو يرى سرابًا، لكنّه لم يكن كذلك، بل كان مارسيل بشحمه

خفض بصره وهو محبط لتتنهد لورينا وتمسح على وجنته: "لقد تحدثنا كثيراً يا أندريه، فلماذا لا تزال محبطاً؟ قلتُ لك إنّ ميا لن تكون أختك بالدّم، وإنّك ما تزال صغيراً على الحبّ والزواج"

"ليس هذا السبب الوحيد يا أمّي"

"ماذا إذاً؟"

تردّد للحظة، ثمّ نظر إليها بقلق: "ماذا لو انتقل أبي لمنزلٍ أكبر وأخذني معه؟ أين ستمكثين؟"

ضحكت لورينا بتعجّب، ثمّ قالت: "هل هذا ما يحزنك؟ لا تقلق! سيعطيني والدك غرفة في علّية منزله الجديد"

تذمّر أندريه: "أنا لا أمزح، لذا كوني جادّة قليلاً من فضلك"

احتضنته وقبّلت رأسه: "أنا ممتنة

قراراً حكيماً ويدلّ على النضج، وأندريه لم ينضج بعد كما يبدو"

تنهدت بإحباط وهزّت رأسها: "آمل أن ينضج، سوف أتحدث معه وأساعده كما فعل جدّي، فهو صديقي"

"انتظريه أن يهدأ أوّلاً"

أومأت بابتسامة صغيرة، ثمّ تمايلت بفستانها بظرافة وسألت: "ماذا نفعل الآن؟" أردفت بسرعة: "وجدتها! لنذهب لساحة الرّقص"

سحبت يده قبل أن يتسنى له قول شيء أو حتّى الاعتراض، وانضمّا مع الكبار ليرقصا معاً.أمسكا بأيدي بعضهما وتمايلا مع الموسيقى لتبتسم روبي وهي تراقبهما، وتلتقط الصور خلسة حتى مدّ أندرياس يده قائلاً: "نحن من يجب عليهم الرقص، لذا هيّا"

مشت لورينا بين الضيوف وشقت طريقها نحو المدخل، حيث يجلس ابنها المتجهم، يراقب السيارات بصمت بينما قريب والده بنيتو يسخر منه مع بقية الرّجال، يحاولون جذب انتباهه وتغيير مزاجه بكلّ الطّرق ولكن دون فائدة...

"عزيزي؟ ما الذي تفعله هنا؟"

أشاح بوجهه مجيبًا: "لا شيء"

"لماذا لا تعود إلى الداخل إذاً؟ ميا وروبن هناك وجميعنا نحظى بوقتٍ ممتع"

عقد ذراعيه وقال باستياء: "أريد أن أبقى هنا وأراقب السيارات"

لمست ذقنه الصغير: "لماذا تبدو مستاءً؟ هل بسبب الزواج مجدداً؟"

ولحمه، ملامحه الساكنة التي لم يمسّها الزّمن، وخطواته الرزينة التي شعروا بها كخطوات عملاق على وشك أن يغزو المكان

اعترض طريقه بارتباك؛ يحاول تكوين كلمات تُعبّر عمّا يشعر به، لكنّ مارسيل لم يترك له مجالاً وتجاوزه لغزو حفلة الخطوبة التي ستشهد زلزالاً لا ضجيج فيه، لكنه سيخلّف الدمار بكل تأكيد...!

***

وبين لحظات الفرح والبهجة، تعلو ضحكات روبي وتمتزج بموسيقى السّالسا التي تملأ الأجواء بنغمتها الحيوية، ترقص وتدور بخفّة ومرح بين ذراعي أندرياس الذي قاد الرقصة باحترافيّة أثارت حماس الضيوف حوله حتّى تجمهروا حولهما، ثمّ هتفوا عندما انحنى بها إلى الخلف بانسيابية

وأعادها بحركة سلسة استحقّت جولة من التصفيق

قالت روبي من بين ضحكاتها: "ستجعلني أصاب بالدّوار يا أندرياس!"

"بل سأجعلك لاتينية حقيقية يا سنيوريتا!"

تابع الرقصة بحماسة إلى أن توقّف فجأة مثيرًا استغراب روبي التي لاحظت التغيّر الواضح في ملامح وجهه وسألت باهتمام: "ما الأمر؟"

نقل نظراته إليها في الوقت ذاته الذي انخفض فيه صوت الموسيقى، وباتت همسات الضيوف المتفاجئين أعلى و أوضح. مسح على كتفيها بحذر وكأنّه يخشى أن تتهشّم فجأة، ممّا جعل القلق يتصاعد في صدرها مثل دخان خانق، فتلقّتت تعاين الحضور وتتبع

أنظارهم حتّى التقت عيناها بمارسيل الذي كان يحدقّ باتجاههما بملامح لا يمكن قراءتها

تجمّد الزّمن، وسقط قناع العروس السعيدة الذي كانت ترتديه، خفتت كلّ الأصوات، واختفى الجميع حولها كما لو أنّ الأرض ابتلعتهم وتركتها وحيدة في مواجهة الماضي الذي عاد بهيئة رجل لم تلتئم الجراح التي سبّبها بعد، ولم تُنسَ رغم المحاولات الكثيرة. ارتعشت يداها فجأة وبدأت أعصابها بالانهيار دفعة واحدة، تقلّص صدرها بألم وهجر الهواء رئتيها حتّى اختنقت وشعرت أنّها تغرق مجددًا!

أمّا مارسيل، فلم يكن يتوقّع أنّ قلبه وكلّ خلية في جسده ستؤلمه بهذا الشكل، وأنّ روحه التي كانت متعطشة لرؤيتها طوال هذه المدّة ستصرخ

وتجرّه بقوة ليذهب إليها ويروي ذلك العطش، وليطفئ لهيب قلبٍ ظنّ طوال حياته أنّه ميت حتى أثبتت هي أنّه حيّ وينبض...

كسرت روبي اتّصال أعينهما قبل أن يدمّرها. التفتت إلى أندرياس وهي بالكاد تقف، ثمّ همست بصوتٍ مختنق: "ما الذي يفعله هنا؟"

"لا أعلم... إنّه يتجه إلى طاولة الدّون"

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثمّ قالت بصوتٍ متحشرج: "أخرجه.. أخرجه من هنا.. بسرعة!"

أمسك بيدها المرتعشة وقرّبها إليه أكثر؛ يرغب أن يمدّها بالقوّة حتّى تهدأ، ثمّ همس بنبرة حانية مشوّبة بالقلق: "هل أنتِ بخير؟ هل تشعرين بنوبة هلع

قادمة؟"

هزّت رأسها بنعم وتمتمت: "أخرجه– و ميا! أين هي؟ لا يمكن أن تراه!"

أمسك بكتفيها وثبّتها، ثمّ قال: "اهدئي... ابتعدي عن هنا واستجمعي شتات أمرك. سأرى ما يجري وآتي إليك على الفور"

أومأت روبي وهي تشعر بالبرد يتسلّل إلى عظامها، ثمّ تركها أندرياس وذهب إلى حيث مارسيل الذي يقف أمام الدّون ويتبادل معه بضع كلمات، بينما رجاله يحاولون صرف انتباه الضيوف عنهما وإعادة البهجة والمرح للمكان...

وقف أندرياس مقابله، ثمّ قال بنبرة هادئة لكن مشحونة بالغضب كي لا يلفت الأنظار إليهم أكثر: "ما الذي تفعله هنا؟"

"لقد تمّت دعوتي.."

لم يظهر مارسيل أيّ مشاعر في إجابته، ثمّ نظر إلى روبي التي ابتعدت عن المكان، فهمّ بالتّحرك أيضاً ليضع أندرياس قبضته على صدره بعنف ويوقفه قائلاً: "لا تفكر بذلك حتى!"

تبادلا النّظرات المشحونة لبرهةٍ طويلة حتى تكلّم الدّون حاسماً الأمر بكلّ هدوء: "اتركه"

نظر أندرياس إلى الدّون وهو مصدوم؛ لا يعلم ماذا يجري حوله، ثمّ [illegible] مارسيل قبضته وتجاوزه ليلحق بروبي التي ابتعدت كثيراً ووقفت أمام البحر وهي تحتضن نفسها وتحاول الهدوء، وفي تلك الأثناء، كان أندريه قد وجد ميا أخيراً، حيث كانت مع روبن؛ يلعبان مع كلب ترياكي ويحظيان بوقتٍ ممتع دون إدراك ما

يجري

"ميا!"

انتفضت من مكانها وهي متفاجئة: "ما الأمر؟ لقد أفزعتني!"

قال بأنفاس لاهثة: "والدك.. إنّه هنا.. لقد عاد!"

أجفلت غير مصدّقة، وصُعِقَ روبن كذلك، ثمّ سألت بصوتٍ عالٍ: "هل أنتَ متيقن؟"

"أجل!"

ضمّت يديها لقلبها وهمست بمشاعر مختلطة بالفرح والتوتر: "بابا... قد عاد!"

***

لم يكن صوت أمواج البحر كفيلاً بجعل روبي تسترخي؛ بل كان يزيد

حالتها سوءاً، وكأنّه يسخر منها أو يوبّخها. كانت غاضبة، خائفة ومتوترة، تدور حول نفسها دون وعي، ثمّ التفتت بحدّة عندما شعرت بخطوات ظنّت أنّها لأندرياس، لكنّها تجمّدت تماماً عندما رأته وبقيت تحدّق به فقط حتّى شعرت بالسكون فجأة... لقد هدأت العاصفة بداخلها، وهذا جعلها تقف بثبات وقوّة!

ولم يستطع مارسيل ألا يجري عينيه عليها ليتفقدها، ولكن ببطء هذه المرّة؛ اشتاقت عيناه لالتقاط كلّ تفاصيلها. لاحظ لون شعرها الجديد، وكيف يليق بلون عينيها الزرقاوين اللتين يهيم ويضيع فيهما حتى وإن لم تعودا تشعّان بالعاطفة، الحبّ أو الدفء كما في الماضي...

قالت ببرود حادّ دون أن يرفّ لها

جفن: "ما الذي تريده؟"

استغرق ثانية، تنعّم خلالها بصوتها الذي لم يسمعه منذ زمن، ولكن لطالما سكنه ثمّ قال بهدوء:" هل يمكننا أن نتحدّث؟"

"تحدثنا قبل خمس سنوات وانتهينا من الحديث، فما الذي تفعله هنا؟"

"أنا هنا لأجلك"

وخز قلبها بتلك الجملة، وتمكّن من لمس جدارها المنيع الذي استغرقت سنوات لتبنيه. شعرت بالتهديد، فقبضت على يدها بقوة كما لو كانت تقبض على عنق ذكرياتها وذاتها القديمة التي أحبّته يومًا ما، لتمنعها من العودة إلى الحياة

ردّت بنبرة ممزوجة بمرارة وسخرية دفاعية: "لترى ما إن كنت لا أزال حية؟

هل أنت متعجبٌ يا ترى؟"

اقترب خطوة مدروسة نحوها؛ يراقب ردة فعل جسدها؛ انقباض فكّها، انحباس أنفاسها لوهلة قبل ابتلاع ريقها بخفّة، يدرك ما يسبّبه اقترابه منها، ويأمل أن يكون ذلك في مصلحته حتّى يستعيدها مجدّدًا

ردّ بصوت خافت ونظراته غارقة في عينيها: "لا، ليس لهذه الأسباب"

رمقته بنظرة ازدراء: "أليس من المفترض أن تكون في مكان آخر، وتقتل هدفاً؟ أم أنّ هدفك هنا في حفلة خطوبتي؟"

"لقد اعتزلتُ عملي"

حملقت به قليلاً، ثمّ قالت بجمود: "وما شأني لتخبرني بذلك؟"

اقترب خطوة أخرى فصرّت على

أسنانها محاولةً تمالك أعصابها، حتّى شعرت بنبض قلبها الشديد داخل صدرها

قال بنبرة لينة يرجو بها استعطافها: "لقد حدث الكثير خلال السنوات الماضية، وأريد إخبارك بكلّ شيء"

ردّت بسرعة لتصدّه: "لا... لا أريد سماعك"

راقب التغيّر في ملامحها وكيف مالت للاضطراب، ثمّ سأل: "ولمَ لا؟"

رفعت صوتها بحزم، لكنّه اهتزّ قليلاً وخذلها عندما قالت: "لأنّه لا يوجد سببٌ يدفعني إلى ذلك!" أردفت بامتعاض: "عندما وصلتَ لتوّك، نظرت إليك فإذا بالذكريات تعود إليّ دفعة واحدة. تذكّرت كلّ ما عرّضتني له، كلّ الكذبات، كلّ جرح وكسرة قلب وكأنها

حدثت البارحة..."

لمس ذراعها بأطراف أصابعه فقط قبل أن تبتعد عنه بخشونة وتصرخ: "لا تجرؤ على لمسي أو الاقترابِ منّي!" أومأ بهدوء، فحملقت به باحتقار وقالت بنبرة جسّدت مرارة الماضي: "خمس سنوات لم تكن حاضراً بها... لم تكن موجوداً عندما أخذوني وأجبروني على العيش في المكسيك، لم تكن حاضراً لتوقفهم أو تساعدني وتتفقّد حالي. لم تكن موجوداً خلال فترة حملي وفي الأيام التي كنت أشعر فيها أني أغرق! لم تأتِ وقت ولادتي لتبدّد خوفي، ولا في الليالي التي لم أستطع النّوم فيها بسبب قلقي أو بسبب بكاء ميا. لم تكن حاضرًا عندما تملّكني الضعف عدة مرات وكدت أنهار! لم تكن موجوداً أبداً يا مارسيل ومضيتُ أنا قدماً وحدي، ولن أنسى ذلك ما

حييت!"

تابعت عتابها بصوتٍ أهدأ: "لذا أخبرني... لماذا يجب أن أستمع إليك الآن؟ لا شيء ستقوله قد يغيّر أو يمسح كلّ الألم الذي سبّبته لي، أو تعرضت له بسببك"

تنهد تنهيدة طويلة مثقلة بالأسرار والكلمات التي انتظر ابوح بها كثيراً. استجمع شجاعته، وهمّ بالإفصاح عمّا يحبسه بداخله، لكنّه تجمّد عندما سمع صوتاً رقيقاً وصغيراً يناديه. نظرت روبي إلى ابنتها من فوق كتفه. كانت تقف وخلفها أندريه، خائفة من التقدم أكثر، تفرك يديها ببعضهما في توتّر ورهبة من أوّل لقاء يجمعهما... لقاء كانت تتمنّاه بشدّة

"أنا ميا... ابنتك"

حوّلت روبي نظراتها إلى مارسيل الذي جمّد كلّ الأفكار والمشاعر، ثمّ قال بهدوء ثقيل: "هل يمكننا التحدث في مكان آخر؟"

همست ببرود: "لماذا لا تلتفت وتنظر إليها؟ هل أنت خائف من تذكّر وجهها للأبد؟"

لم يجبها بشيء، فتذكّرت كيف كان سكوته أقسى من حديثه، يعذّبها ويقتلها كلّ مرّة، والآن يستهدف ابنتها البريئة التي تتوق إلى نظرة فقط!

هتفت بنبرة حازمة: "التفت وانظر إلى ابنتك"

ردّ بنبرة مشحونة وهو يتمسّك بأعصابه: "سأحدّثكِ لاحقاً إذاً"

تجاوزها مارسيل ومضى مبتعداً فقط، فنظرت إلى الروح الصغيرة التي

تركها خلفه، تشاهده وهو يرحل بدموعٍ تبلّل وجنتيها، وكأنّه داس على الأمل والأمنيات التي بنتها...

نشجت ميا وهي تردّد باستنكار: "لا يريد رؤيتي.."

ازدردت روبي بصعوبة، ثمّ اقتربت بخطوات مترددة وقالت بصوتٍ مضطرب: "ميا... أنا..."

لم تترك لها ابنتها مجالاً للحديث، وصرخت في وجهها: "لقد كذبتِ علي، قلتِ إنّ بابا يحبني ويريدني!"

"دعيني أشرح لكِ—"

ضربت الأرض الرملية بقدمها وهي تبكي: "هو لا يريدني ولا يحبّني... أنت كذبتِ كذبتِ كذبتِ!"

"أنا آسفة حقّاً"

همّت بالاقتراب منها أكثر، لمسها واحتضانها، لكنّ ميا صدّتها وهتفت: "لا! أنتِ كاذبة، وأنا أكرهك ولا أريد أن أكون ابنتك أبداً!"

ركضت ميا المحطمة وهي تبكي بحرقة، بعد ما كانت كلماتها القاسية هي الضربة الأخيرة التي بعثرت قلب روبي... قطعت الحبل، وأنهت كلّ شيء!

***

"ما الذي يعنيه ذلك أيّها الدّون؟ أنا لا أفهم"

"ما الذي لم تفهمه يا أندرياس؟ لقد قمت بدعوة ابني إلى الحفل ولبى الدعوة"

حدّق أندرياس به وهو مشوش، ثمّ قال: "وكيف؟ ظننت أننا لم نجده،

وأنتَ من أمرنا بالتوقف عن البحث عنه! وعاد الآن بشكلٍ مفاجئ بعد كلّ هذا الوقت، وبأيّ صفة؟"

أجاب فيرناندو بهدوء: "سنرى بأيّ صفة قد عاد"

أتى أندريه راكضاً، ثمّ توقّف أمام والده وقال بكلماتٍ متقطعة وأنفاسٍ سريعة: "العمّة روبي. ميا. الكثير من البكاء! سأذهب! آه أنا متعب جداً"

نهض أندرياس بعد أنّ قلّب ناظريه قائلاً: "حصلت على إجابتي... عن إذنك"

ترك أندرياس الخيمة بخطواتٍ غاضبة، وقلبٍ تعصف به المشاعر. بحث عن روبي حتى وجدها تجلس على الرمال الباردة، تحدّق بالبحر بصمت وكأنّها معزولة عن العالم حولها،

لكنّه يعلم أنّها ليست كذلك، بل تمّ عزلها قسرًا؛ تمّ طردها من القلعة التي ذكرتها، وسقطت إلى الهاوية قبل أن يتسنّى له مساعدتها...

وضع سترته على كتفيها بحركة حانية، ثمّ جلس بجوارها وسأل بصوتٍ حمل قلقًا وغضبًا مكتومًا، ورغبةً بفعل أي شيء لأجلها: "هل آذاكِ؟"

أجابت بصوتٍ خافت يفيض بالحزن والاستسلام، وهي تحدّق بالبحر المظلم: "مارسيل لا يؤذي بل يدمّر، ولقد دمّر كلّ شيءٍ لتوّه، مثلما فعل خمس سنوات. لم يقبل رؤية ميا، فغضِبَت وبكت، نعتتني بالكاذبة وقالت إنّها... تكرهني"

همست آخر كلمة باضطراب، ليتنهّد أندرياس بشفقة ويلمس كتفها ليضمّها إليه، ثمّ قال: "ميا لا تكرهك، بل

تفوّهت بذلك لاستيائها فقط. ستعود وتعتذر إليكِ"

"لقد خذلتها... لن تثق بي مرة أخرى، وستبقى مجروحة القلب بسببي"

حاول مواساتها وزرع الاطمئنان بها مجدّدًا، فقال: "ستكبر وتدرك الحقيقة، ستعرف كم ضحيت من أجلها وكيف اخترتِ الأفضل لها، لذا عليكِ بالتحمل والانتظار إلى ذلك الحين"

زفرت نفسًا مرتعشًا، ثمّ سألت بصوتٍ متحشرج: "وماذا أفعل الآن يا أنـرياس؟ كيف أصلح الأمر؟"

"دعي هذا اليوم يمضِ، دعيها تهدأ، ثمّ تعاملي معها كالمعتاد. أريها حبّك، وستدرك تدريجيّاً أنّ والدها مختل لعين وأمها هي الطرف الذي يعطيها الحب والاهتمام"

"وهل هذه نصيحة حكيمة؟"

هزّ رأسه بتنهيدة: "ليس تماماً.. ولكنْ بها شيءٌ من الحكمة"

تنهدت روبي تنهيدة طويلة ومسحت الدمعة في طرف عينها، ثمّ قالت: "لا أستطيع العودة إلى الحفلة"

"سأعتذر من الضيوف وسيرحلون من تلقاء أنفسهم، فقد دمّر ذلك الوغد الاحتفال على أيّ حال" مسح على ظهرها عندما شعر بارتجاف جسدها، ورغبتها الشديدة بالانفجار والنحيب، ثمّ همس: "اهدئي... أنا هنا لأجلك"

أغمضت عينيها بقوّة وهمست: "لا تقل هذه الجملة... فأنا أكرهها"

***

كانت ميا تجلس على الأرض، تضمّ ركبتيها إلى صدرها وتذرف الدموع

دون توقّف، مثيرةً شفقة أندريه الذي لمس كتفها وقال: "هذا يكفي، توقفي عن البكاء وإلا فستتدهور صحتك"

ربّت روبن على ركبتها بلطف وقال: "إنّه محق... لا تبكي"

رفعت وجهها المحمرّ، ثمّ قالت: "لماذا ليس لديّ أب يحبّني؟ سوف تسخر منّي سيسيل للأبد، ولن أحظى بأب يشتري لي الألعاب أو يأخذني في نزهة أو يقلّني من المدرسة"

تنهد أندريه، ثمّ حاول مواساتها قائلاً: "سأضرب سيسيل لو سخرت منكِ مجدداً!"

تذمّرت بصوتٍ حزين: "الصبيان لا يفترض بهم ضرب البنات!"

"أعلم ولكنّي سأضربها من أجلك، أو أضع حشرة في حقيبتها أو حتى

القاذورات. لن أدعها تسخر منك يا ميا. أعدك!"

شعرت ميا بالامتنان، ثمّ نظرت إلى روبن الذي سحب يده وتأمّل وجهها مليّاً قبل أن يتحدث: "أنتِ لا تملكين أبًا يحبّك، ولكن لديك أم تحبّك، تشتري لك الألعاب وتأخذك في نزهة، تحضّر الطعام وتقرأ لك القصص قبل النوم، تسهر بجانب فراشك عندما تمرضين، تعطيك مصروفاً للمدرسة وتحضر لمسرحياتك واجتماعات أولياء الأمور"

شرد بذهنه لثانية، ثمّ أفضى بما في لبه: "أنا لم أملك والدين من قبل. كنت في ميتم مع صبية يتمنون أن يكون لهم أم متل والدتك. أنتِ تملكين ما يتمناه كلّ طفل في العالم، لذا يجب أن تكوني سعيدة وممتنة" أردف بنبرة جادّة: "فقد تستيقظين يوماً ما ولا

تجدين هذه النّعم حولك"

حدّق أندريه به وهو مندهش، ليس لأجل الحقيقة فقط، بل لكلماته التي بدت حكيمة ومحزنة في آنٍ واحد، وكأنّها تنبع من تجربة مريرة، لكنّ ميا لم تقتنع وتمسكت بعنادها قائلةً: "ولكنّها كذبت عليّ. لن أسامحها!"

تنهد روبن عندما لم يجدِ كلامه نفعاً: "الجميع يكذبون في مرحلة ما.."

قال أندريه وهو ينظر باتّجاه الخيمة: "أوه..؟ يبدو أنّ الضيوف يغادرون الحفلة" ثمّ تنهد بإحباط: "لقد حصلنا على مبتغانا، ولكن ليس كما كنّا نتوقع"

نهض روبن ونفض الرّمال عن بدلته، ثمّ قال: "هيا بنا قبل أن يبحثوا عنّا"

سارت بينهما بخطوات بطيئة يثقلها الحزن، ثمّ جلست على الكرسيّ

بصمت، لا تقبل الحديث مع أيّ أحد، وكانت روبي تنظر إليها بقلبٍ مفطور حتّى لمس أندرياس كتفها ليعيدها من شرود ذهنها، وقال: "راسلتُ بنيتو وسيحضر السيارة"

أومأت فقط، ثمّ اتّجهت إلى حيث ابنتها التي نظرت إليها للحظة قصيرة فقط قبل أن تشيح بوجهها المتجهّم، فقالت: "هيا بنا، فبنيتو ينتظرنا"

نهض روبن أوّلاً، ثمّ عقدت ميا ذراعيها وردّت دون النّظر لوالدتها: "لا أريد الذهابَ معك"

تنهدت روبي وتمالكت نفسها قائلةً بنبرة هادئة تخلو من الصرامة أو الغضب: "ميا، لنذهب من فضلك"

نهضت ميا وأسرعت إلى جدّها، ثمّ تشبّثت بساقه قائِلةً: "خذني معك إلى

العاصمة يا جدّي، فلا أريد الذهاب مع ماما!"

التفتت العائلة نحوها، وتنقلت نظراتهم بينها وبين روبي الصامتة؛ فهي لا تستطيع أن تبكي الآن، لا تستطيع أن تظهر الضعف أو الانهزام والانكسار. تمنعها كرامتها من ذلك، لكنّ داخلها يصرخ وقلبها يتمزق!

"ستذهبين مع والدتك الليلة، وسنرى بشأن ذلك غداً"

رفعت ميا وجهها بعناد: "ولكن يا جدّي —"

"ميا... كوني مطيعة وعودي مع والدتك للمنزل"

انكمش وجهها لأمره الصارم وخفضت رأسها مبتعدةً عنه، ثمّ تقدّم أندرياس وأمسك بيدها ليعيدها إلى جانب

والدتها التي تحرّكت بضع خطوات فقط قبل أن تلتفت مجدداً وترى ابنتها لا تزال واقفة مكانها، فتقدّم روبن وقال بنبرة مشجعة: "لنعد إلى المنزل. يمكننا اللعب معاً أو مشاهدة فيلم جديد، ويمكننا تناول المثلجات أيضاً، صحيح يا روبي؟"

نظر إلى روبي ببراءة، لتبتسم له ابتسامة شاحبة وتجاريه: "صحيح"

أخرج صَدَفَة من جيبه، ثمّ قال: "انظري يا ميا، وجدتها بالمصَادفة، لنضمّها إلى مجموعتك! أريد رؤيتها مجدداً، فهيا بنا"

شعر بيدها تسترخي، ثمّ سحبها بلطف فقبلت بالمشي معه، وحينها أسرع أندريه إلى والده وقال بتوسّل: "هل يمكنني الذهاب معهم؟"

لمست لورينا وجهه: "بني، دعهم وحدهم الليلة"

"ولكنّ ميا حزينة يا أمي، وأريد أن أواسيها. أرجوكما!"

تبادلت لورينا النظرات مع أندرياس ليقرّر، فتنهّد مستسلمًا لتوسّلات ابنه، و قال: "حسناً، اذهب. سنلحق بكم بعد قليلٍ على أيّ حال"

رفعت لورينا سبابتها محذرةً: "لا تزعجهم يا أندريه"

"لن أكون مزعجاً، أعدك"

عانقها بسرعة قبل أن يركض للخارج حيث روبي التي وقفت عند سيارة بنيتو، ليستقبلها رجلٌ آخر غريب ويفتح الباب لهم، فسألت: "أين بنيتو؟"

فرك الرّجل رأسه مجيباً بنبرة ساخرة: "لقد أكل شطيرة تاكو فاسدة وهرب

إلى الحمام في آخر لحظة، لذا سوف آخذكم إلى المجمع يا سيدتي"

أومأت روبي بصمت قبل أن تنظر إلى الخلف وإلى الرجال المشغولين، ثمّ أشارت لصغيريها بالصعود، وحينها قفز أندريه للداخل وأخبرهم أنّه سيأتي معهم ، فهمس له روبن معبّرًا عن انزعاجه: "لماذا تحبّ التطفّل لهذه الدرجة؟"

همس أندريه بامتعاض: "أنت من يحب التطفل على كلّ شيء!"

انطلق السائق في طريقه، بينما روبي تنظر لابنتها وتفكّر بطريقة للتحدّث إليها، وشرح ما حدث بأسلوبٍ مناسب. تساءلت ما إن كانت المثلجات ستعدّل مزاجها قليلاً، أو ربّما فطائر الكعك المحلاة التي تفضّلها. خياراتٌ كثيرة تأمل أن ينجح أحدها في إعادة البسمة

إلى وجهها، ولو للحظة واحدة فقط...

تنهدت تنهيدة مرهقة، ثمّ نظرت لانعكاس وجه السائق على المرآة الداخليّة وسألت بفضول: "ما اسمك؟"

نظر للمرآة وابتسم بأدب مجيبًا: "ڤولكِر يا سيدتي"

"لم أرك من قبل"

"جئت من العاصمة بصحبة الدّون فيرناندو"

ردّت بابتسامة مجاملة: "تشرفتُ لقائك يا ڤولكر"

ابتسم عبر المرآة: "الشرف لي يا سيدتي"

فتحت روبي حقيبتها بهدوء والتقطت هاتفها لترسل رسالة لأندرياس، تستفسر فيها عن السائق

الذي قذف الشكّ في قلبها، ثمّ توقفت السيارة فجأة ولوقت قصير صعِد فيه رجلٌ آخر بجانب السائق، والتفت إلى الخلف شاهراً سلاحه على الفور، يبث الرعب في قلوبهم!

ارتعد قلب روبي وارتعشت أصابعها فوق شاشة الهاتف بخوف، ثمّ تركته بناءً على أمره بعد أن وجّه سلاحه نحو ابنتها التي أطلقت صرخة مذعورة، مثل أندريه الخائف وروبن القلق. حاولت التفاوض وقول شيءٍ، لكنّ الرّجل وضع قناعاً مثل السائق وضغط على الزّناد، ولم يكن الرّصاص ما انطلق بل دخانًا كان كفيلاً بإسقاطهم نياماً في ثوانٍ قليلة...

استأنف السائق القيادة، وسلك عدّة منعطفات حتى وصل مع شريكه إلى موقعٍ به سيارة أخرى كانت تنتظر

مسبقًا. ترجّل شريكهم الثالث منها، وحيّاهم بابتسامة ماكرة، ثمّ فتح الباب وتأمّل المخطوفين قبل أن يقول بنبرة ساخرة: "هل نمت معهم يا ترى... أيّها البارون؟"

فتح روبن عينيه ورمق الرّجل بنظرة ثلجية قاتلة، ثمّ ترجل من السيارة وقال بصوتٍ خالٍ من المشاعر: "حمّلوهم بسرعة ولننطلق، فـ 005 في ڤيراكروز"

يتبع...

ظنّت روبي أنّ اللقاء به من جديد سيكون بداية جديدة، وأنّ الحب وحده يكفي لتحقيق المستحيل. لكنها كانت مخطئة، فمارسيل ما يزال الشخص ذاته، الرجل الذي يأبى أن يتغير. بعاداته التي تنهش قلبها، وهدوئه الذي يربكها أكثر مما يطمئنها. كلّما سعت إليه، وجدت نفسها تصطدم بجدرانه المنيعة، تحاول اختراقها بلا جدوى، لتعود لنقطة البداية وكأنّها تدور في حلقة مفرغة

لكنّ مشاعرها تجاهه ليست المعركة الوحيدة التي ستخوضها، فهناك خطر يحيط بها، أعين تختبئ في الظلال وتلاحقها بصمت، ترصد خطواتها وكأنّها قطعة شطرنج في لعبة مميتة...يديرها البارون

شهد قربان

shahdqurban

تصميم الغلاف
@BOOK.COVERS

9 786038 543177

adabarabic7
services_book
servicesbook1
www.adab-book.com